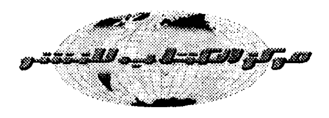
الإسلام والبعث الحضارى

من مقومات الدفع فى الحضارة الإسلامية إلى فعاليات التطبيق والنهضة

دكتور

أحمد عبده عوض

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م



الطبعة الأولى
٢٠٠٣م



مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس- المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨

http://www.top25books.net/bookcp.asp.
E-mail:bookcp@menanet.net

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣]

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾
[التوبة : ١٠٩]

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥]

صدق الله العظيم



بسم الله الرحمن الرحيم

تقـديم

تمتلك الأمة الإسلامية مقومات **التقدم والدفع الحضارى،** ففى تراثنا -الزاخر الخالد- أدلة على اتجاه المسلمين نحو العلم التجريبى، وعنايتهم بالتطبيق، وبعد مرحلة من الرُقاد والنعاس أفاق المسلمون على تقدم الغرب؛ بما أفادوه من نواتج حضارتهم يوم أن فهم المسلمون دورهم الحضارى المنوط بهم أداؤه. ويوم أن تيقنوا أن الإسلام هو باعث نهضتهم، وأنه الـمُخلِص للأمم من الضياع والتمزق.

ونؤكد هنا حقيقة مهمة مؤداها أن **واقع الإمكانات المادية والثروات البترولية** والكثافة البشرية والمد الجغرافى كلها أمور تُحفز للإنتاج والتقدم، وتقديم المنجزات، واستنفار الطاقات الإسلامية الضخمة؛ التى إن خرجت من عقالها سيكون لها تأثيرها فى تشكيل العالم الجديد.

وقبل ذلك فإن الناظر للإسلام وقيمه الروحية المتسامية، وأخلاقياته الربانية، وما يقدمه من بدائل وأطروحات للحياة الرشيدة، وما اشتمل عليه القرآن الكريم من نفائس وتوجيهات وأحكام وضوابط؛ يتأكد لديه أن القرآن الكريم تضمن الأمور الأساسية فى تنظيم الحياة والحكم وفى الهداية والرشاد وفى الاستقامة والتجرد لله تعالى، وفى أمور العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاقيات، وهى كلها أمور من شأنها أن تكون بواعث ومحفزات ليقظة إسلامية.

والمتأمل لرد فعل الغرب نحو الإسلام يجد أن أخشى ما يخشاه العالم الغربى أن تحدث النهضة الإسلامية، واليقظة الفكرية -وهى حادثة إن شاء الله- ولذا فإنهم يحاربون أى نهضة إسلامية فى بلادهم، ألا ترى أنهم لازالوا يحتفلون ــ فى أسبانيا ــ بخروج المسلمين من الأندلس كعيد عظيم لهم؛ رغم إدراكهم للزخم الحضارى الذى خلفه المسلمون هنـاك.

وليس غريباً أنهم لم يُخفوا ذلك، ولكن أعلنوه، وصوروا الإسلام على أنه خطر عظيم عليهم!!!

ولنتوقف قليلاً عند تصريح لأحدهم:

«إن الخطر الحقيقى الذى يهددنا تهديداً مباشراً عنيفاً هو الخطر الإسلامى، والمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا؛ فهم يملكون تراثهم الروحى الخاص، ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة، وهم جديرون أن يقيموا بها قواعد عالم جديد دون حاجة إلى (الاستغراب) أى دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية بصورة خاصة فى الشخصية الحضارية الغربية..»

« .. وقد حاولنا خلال حكمنا الطويل فى الجزائر أن نتغلب على الشخصية التاريخية لشعب هذا البلد؛ فلم نأل جهداً فى صوغ شخصية غربية له، فكان الإخفاق الكامل نتائج مجهودنا الضخم الطويل».

«.. وإذا تحرر العملاق من قيود جهله، وعقدة الشعور بعجزه عن مجاراة الغرب فى الإنتاج فقد بُؤنا بالإخفاق الذريع، وأصبح خطر العالم العربى وما وراءه من الطاقات الإسلامية الضخمة خطراً داهمًا يتعرض به التراث الحضارى الغربى لكارثة تاريخية ينتهى بها الغرب، وتنتهى معه وظيفته القيادية» **«لم هذا الرعب كلّه من الإسلام؟ (ص ص ٢٣-٢٥).**

هذا ماجاء على لسان **أحد المسئولين فى وزارة الخارجية الفرنسية فى الخمسينات!**.. ولك أن تتصور كيف نُميت هذه الأفكار - المتقدمة الذكر-؟ وكيف رعاها الإعلام الغربى ودلل عليها وطورها؟ وكيف ساعدت قوى الشر والصهيونية على نشر مثل هذه الأفكار؛ التى تخيفهم وتُفزعهم من الإسلام؟

لقد بات ذلك واضحاً فى سلوك الحكومات فى تلك البلاد؛ فقضية الحجاب الذى ارتدنه تلميذات مسلمات فى مدارس فرنسا اتخذت أبعاداً سياسية عظيمة؛ فى مجتمع متحرر يسير فيه العراة وأنصاف العُراة، وتخصص فيه

شواطئ للعراة والمنكر!! مفارقة عجيبة وبون شاسع!! فإذا بهم يحسبون، ويتيقنون بأن الإسلام هو الخطر الداهم عليهم. وربما يعجب المرء من هذا الخوف والحذر الذى انتقل للعداء والكراهية ثم الحرب المعلنة ضد الإسلام وأهله، ويزول هذا العُجب عندما يقفز إلى ذهنه أنهم ــ أى أعداء الإسلام ــ **أدركوا الجانب العملى والحركى والحياتى فى الإسلام** ، ربما أكثر من فهم كثير من المسلمين وإدراكهم له، إنهم لايخشون الإسلام كفكرة، وإنما يخشون منه **كباعث حضارى** لهذه الأمة، لايذوب فى سباقات الحضارات الأخرى، وإنما تتميز أمته بذاتها وذاتيتها، ويتميز هو بأنه صانع أمة، عندما يكون الإسلام هو نقطة بدايتها، وعنوان زعمائها وقادتها، ومبعث تفكيرها ونهضتها، ويحتكم إليه فى خلافاتها، وإليه يُرجع فى شئونها العامة والخاصة.

هذا الجانب العملى والحركى هو الذى ابتعث المسلمين، وحرّكهم من الجزيرة العربية ليحملوا أنوار الهداية لكل العالم، وهو الذى دفعهم لنشر هذا الدين وتبليغه، وتوصيل آيات الحق والهدى لكل البشر.

وقد انطلقت مسيرة العرب والمسلمين فى الشرق والغرب، رافعين راية الله، وكان منطلقهم الدعوة للتوحيد والأخوة والتحاب، والشريعة العادلة، والخلق الكريم، فالله تعالى هو ربهم والناس جميعًا هم إخوانهم، والأرض كلها هى ديارهم. لذا فقد انتصروا ولم يذيلوا أحدًا، وقد فتحوا البلدان ولم يخربوها، وساسوا الناس بالعدل والرحمة والحق، وحاربوا على شريعة، وسالموا على شريعة. وقد قادهم إلى الفتح والانتصار والتمكن فى الأرض ونشر السلطان ذلك الإيمان، الذى ملأ قلوبهم، والعقيدة الصافية التى صاغتهم من جديد، واليقين بنصر الله الذى أكسبهم ثقة وعوناً ورشدًا.

هذا الإيمان، وتلك العقيدة، وذلكم اليقين كان منطلق سيرهم ونهايته، وصَحِبهم من غزوة بدر الكبرى إلى تبوك والقادسية واليرموك وبلاط الشهداء. وقد كان ديدنهم فى ذلك الشريعة الجامعة؛ التى ساروا عليها، والقانون الإلهى المحكم، الذى رُشدوا به، وعملوا به فكانوا لايعتدون، ولايبغون، ولاينقضون العهد، ولايظلمون، ولايغدرون، ولا يفسقون ولذا لم يسيروا فى الأرض

ابتغاء المال والملك والسلطة والسلطان والجبروت، ولكنهم كانوا دعاة دين عظيم، وشرع قويم، وخلق كريم، وأصحاب رسالة، ورسل عدل ورحمة ومساواة وكانوا أصحاب حضارة قوية، قامت على أساس من الدين القويم، وقد أدركوا ينابيع الهدى ومصابيح الهداية ومقومات التمكين فى الأرض فى هذه الحضارة، وأن هذه الحضارة المستمدة من السماء لايمكن أن تقف عند حد الجمود والتصلب بل لها من الانبعاث والتجدد الشئ الكثير.

ونحن هنا ننطلق من هذا الانبعاث الذى نجده إحدى سمات هذه الحضارة الإسلامية فهى (حضارة بعث) وحضارة انطلاق وتطور ونهضة ودفع لحركة المجتمع. وتبقى يقظة هذه الأمة ما بقى الحراس الأمناء لهويتها الحضارية، ودعاة الإحياء والتجديد والبعث.

بين الحضارة الإسلامية.. وبين البعث يأتى كتابنا هذا؛ الذى هو محاولة -متواضعة- لرصد عناصر البعث الحضارى ومقوماته فى الإسلام، انطلاقاً من كون هذا الدين به عناصر النهضة، ولزوميات التحضر، وأساسيات التقديم والتفوق. إيمانًا منا بأن النهضة الحقيقية واليقظة الصحيحة لهذه الأمة إذا لم تنبعث من دين الله فهى إلى موات وزوال ومحق، اتساقًا مع هذه العبارة الذهبية للفاروق عمر بن الخطاب «كنا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام، فإذا ابتغينا العزة فى غيره أذلنا الله».

فضلاً عن كون الدين الإسلامى قد ضُمن كل المقومات التى تدفع المجتمع للتقدم، وتستطيع أن ترصد ذلك فى الجوانب القيمية والأخلاقية والعلمية والعملية فى هذا الدين **وأن الإسلام وحده هو القادر على إنقاذ البشرية فى حاضرها ومستقبلها** ، مما يحيق بها من أخطار وتحديات وذلك بسلامة منهجه فى النظر والفعل، وفى النظرية والتطبيق، وقضائه على روح الأثرة والفردية والأنانية والنفعية والتسلطية والجموح والشرود. فقد حدد القرآن الكريم علاقة الإنسان بالوجود كله، وبكل من حوله، ومايعرض له ،ورسم سمات المجتمع المسلم الفاضل، ووضع لها ضوابط الحفظ من الهلاك والسقوط والتردى.

وأوجد حلولاً منطقية ومقبولة وعملية لكل الجوانب، وبذا جاء القرآن العظيم غنياً وثريًا فى كل جوانب الحياة، الروحية، والمادية، والعقلية، والنفسية، والجسمية، والاجتماعية.

من هذا المنطلق الذى ندور فى دائرته، مقتنعين بأنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح عليه أولها، **وبأن مايعرض للأمة من ضعف ووهن إنما مرده إلى ضعف صلتها بدينها وبقرآنها، وبافتقاد فاعلية الإسلام وتطبيقاته فى حياتها.**

ولست أصادر على عقل القارئ الكريم فيما خلصت إليه، ولكننى أبرز منطلقى الفلسفى والفكرى فى معالجة قضية البعث من منظور إسلامى؛ يكون الإسلام هو مادته وروحه وجوهره وعندما أصحبك وتصحبنى إلى مادة الكتاب تجد دلائل وشواهد على ما خلصت إليه.

ومحاولتنا هنا فى استلهام الإسلام مادةً للبعث، وجوهراً للنهضة، وسبيلاً للإحياء قد أفدنا فيها من علماء، كان لهم عطاؤهم وسبقهم فى ذلك، وقد صاغوا ذلك فى مؤلفات؛ تناولت مثل ذلك. ومع إقرار إفادتنا منهم، وغرفنا من روافدهم إلا أننا ننحو نحوًا يبدو مختلفًا فى تناول ذلك، اختلافًا فى المدخل أحيانًا، وفى التناول أحيانًا أخرى، وفى النتائج فى بعض الأحايين، مع عزو الفضل لأهله، والسبق لأصحابه.

ولست أزعم أننى سأحيط كل الموضوع دراسة وفحصًا، ولا أزعم أن ما قدمته هو الدلالات القاطعة التى لا اجتهاد بعدها.. وإنما حسبى أن أقرر أن هذا عملٌ تتلوه أعمال أخرى إن شاء الله؛ مكملة لنفس فكرة هذا الكتاب.

وتقتضى الأمانة العلمية أن أشير إلى أن هذه المحاولة لم تأت من فراغ، وليست مقطوعة السياق، ولكنها تواصل مع مؤلفات دينية وفكرية سابقة لى بعون الله. وأننى شغلت بفكرة هذا الكتاب وعشتها منذ فترة ليست بالقريبة، فكان أن طالعت ـ بتأن ـ كل ماوقع فى يدى، مما يتصل بفكرة الكتاب من كتابات، وربما كان ذلك ـ أحيانًاـ لأغراض أخرى غير التأليف، ولكنها

بالضرورة كانت مخزونًا خبريًا، اهتديت به فى بلورة فكرة هذا الكتاب، الذى آمل أن يكون **جانب التأصيل والتجديد فيه أكثر من جانب الأخذ والنقل** عن الآخرين إن شاء الله تعالى، اتفاقًا مع نهج هذه السلسلة.

وأجدنى الآن فى حاجة لرحلة قصيرة **لمادة الكتاب،** نتوقف عند جزئياتها وعناصر تناولها وهيكلها العام.

فقد عولجت مادة الكتاب فى ثلاثة فصول أساسية؛ نعرض لموجزها فيما يلى:

ـ استهلت بتناول مفصل لقضية الحضارة من منظور إسلامى، وذلك تحت عنوان **(مضامين الفكر الحضارى فى الإسلام)** أو (مضامين الحضارة الإسلامية)؛ حيث التعريف بالحضارة ومضمونها، وتطبيق ذلك على الحضارة الإسلامية وفاعلية الجانب العقائدى فيها، ثم بيان دور العرب والمسلمين فى هذه الحضارة، وإبراز عناصر الخصوصية فيها. مع رصد لتطورها وموقف المسلمين من الحضارات الأخرى وتحليل رؤية كل موقف وبواعثه ومنطلقاته ومسلماته ثم التوقف عند الجانب الحضارى فى عقول السلف، بتقديم مقتبسات من أقوالهم، وتلمس كيفية استيعابهم لمضامين البناء والتواصل وعوامل الدفع والتقديم فى دينهم، والتى فصلنا القول فيها فى تناولنا لركائز الحضارة الإسلامية، وبيان خصائصها التى قامت عليها، وتحليل طبيعتها وأسسها ومبادئها التى بنيت عليها، مع شرح مُبسط لكل مبدأ منها. وصولاً لعدة مسلمات فى حضارة هذا الدين، هى بمثابة قناعات وثوابت لدى المتعامل معها ولدى كل مسلم. ثم خلصنا فى نهاية ذلك إلى الإجابة عن سؤال محورى هو : ما واجبنا نحو حضارتنا؟ فكان أن قدمنا سبعة واجبات، وبينا الجانب المعرفى والعملى فيها. ثم عقبنا على ذلك وأوجزنا ما فصلناه. **وهذا ما تجده فى الفصل الأول بمباحثه التسعة.**

ـ ثم عرضنا للجانب القِيمى فى الإسلام تحت عنوان **(المنظور القيمى والأخلاقى فى الإسلام كأحد مقومات البعث)** فى أربعة مباحث: أوضحنا المضامين الأخلاقية فى الإسلام وتأصيل القواعد الأخلاقية والرؤية الشمولية لها

فى الإسلام فى المبحث الأول؛ ثم صنفنا المنظومة الأخلاقية فى الإسلام فى أقسام ثلاثة؛ عرضنا لأحد عشر خلقا فى كل قسم - بالتفصيل والشرح - حيث الأخلاق الأساسية فى البناء الاجتماعى والعلائقى للمجتمع المسلم فى القسم الأول، والأخلاق الفرعية الحميدة لكل مسلم فى القسم الثانى، ثم الأخلاق الذميمة المنهى عنها فى الثالث، وهذا ما عرض له المبحث الثانى، ثم توقفنا عند قضية العمل فى الإسلام ورؤيته للعبادة كجزء من الرؤية الأخلاقية فى المبحث الثالث. أما المبحث الرابع فقد تناول نظرة الإسلام للمال والجانب القيمى فى ذلك **وهذا ما تجده مفصلاً فى الفصل الثانى.**

وامتدادًا لعرض مضامين الحضارة الإسلامية وتحت عنوان (المنظور العلمى والإعلامى فى الإسلام كإحدى ركائز البعث) جاءت معالجة ثلاثية الأبعاد؛ مستلهمة الفكر الإسلامى فى الجانب العلمى ومضامينه فى الإسلام (أولاً) وذلك بعرض المنهج الإسلامى فى رؤيته للعلم. ثم رصد العلاقة بين العلم وحضارة المسلمين بين الأمس واليوم فى (ثانياً) وذلك بعرض المنهج التجريبى عند المسلمين والرؤية الشمولية للعلم فى الإسلام. واستطرادًا فى تناول المضمون النهضوى البعثى التجديدى فى الإسلام عرضنا للجانب الإعلامى ومضامينه فى الإسلام فى (ثالثاً) وذلك بعرض أكيان التبليغ والإبلاغ والدعوة والإعلام فى دين الله تعالى . **وهذا ما تجده مفصلاً فى الفصل الثالث.**

وهذا الرصد لمضامين الحضارة الإسلامية فى المجالات التى عرضنا لها فى الفصول الثلاثة، والتى نرى أنها أبرز ركائز البعث الإسلامى الذى نرى أن الإسلام هو خير نموذج عصرى لتحقيق معادلة النهضة والتجديد.

وثم مضامين أخرى لم تتسع لها المعالجة هنا مثل : الشخصية الإسلامية ومضمونها المتكامل، والمنظور الصحابى والتراثى للتجديد، والمنظور المتصل بالحكم فى الإسلام وقضايا الشورى والحرية، والمنظور المتصل بدور العرب فى قضية البعث والمنظور القومى، والرؤية التربوية فى الإسلام.

وأرجو من الله تعالى أن تستكمل المعالجة، بفضل منه سبحانه، حرصًا

على تمام المعالجة، واستيفاء الموضوع، وتوفية القضية حقها، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان : ٣٠]

وبقدر حُسن النوايا وسلامة القصد وجلال المقصد ورجاء النفع للمسلمين فإنى أدعو الله تعالى أن تكون ثمة إضافة فكرية لهذا الكتاب فى لبنة الثقافة الإسلامية، وأن ينفع الله به. وإن تكن الإضافة مثمرة فذلك بفضل الله تعالى، وإن تكن الأخرى فهذا من نفسى.

والله أسأل أن يتقبل منا عملنا هذا؛ الذى أرجوه خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله ذخرًا لى يوم القيامة. راجيًا القبول وتحقيق النفع إن شاء الله. والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم المعين والوكيل . . والحمد لله رب العالمين.

د. أحمد عبده عوض

الفصل الأول

مضامين الفكر الحضارى فى الإسلام
(مضامين الحضارة الإسلامية)

أولاً : قضية الحضارة والمضمون.

ثانيـاً : المسلمون والحضارة.

ثالثـاً : تطور الحضارة الإسلامية.

رابعـاً : الحضارة الإسلامية فى عقول السلف.

خامساً : ركائز أساسية للحضارة الإسلامية.

سادساً : خصائص إسلامية قامت عليها الحضارة.

سابعـاً : طبيعة الحضارة الإسلامية ومبادؤها التى بنيت عليها.

ثامنـاً : مسلمات فى حضارة هذا الدين.

تاسعـاً : واجب المسلمين نحو حضارتهم.

مضامين الحضارة الإسلامية

أولاً : قضية الحضارة والمضمون :

تناول قضية الحضارة هو تجسيد لأهم قضايا العصر، **والحضارة** -فى تصورنا- نظام حياة يحمل قيمًا وسلوكاً ومبادئ، ويقوم على ثوابت ومنطلقات، وينتظم المجتمع بقدرة أفراده على العطاء والعمل والتطور والتقدم والإنجاز، وبقدرتهم على الحفاظ على ما أنجزه السابقون واللاحقون والحضارة -كذلك- هى خلاصة جهود البشرية؛ نتج عنها تراث روحى وعقلى وخلقى، وهى تجسيد صادق للنشاط العقلى عند الإنسان، وتاريخ الحضارة سجل لتطور إنجازات هذا العقل، وفاعليته فى شتى مجالات الحياة، وماحفلت به من منجزات.

وثمّ جانب تكنولوجى ومادى وخدمى فى دراسة قضية الحضارة، وجانب آخر علمى وقيمى وأخلاقى لاينبغى أن ينفصم عن الجانب الأول. وتكتسب الحضارات ثبوتها وخلودها بعنايتها بالجانب المعنوى، وعدم تغليب الجانب المادى عليه. . وبالتفاعل الطبيعى بين الإنسان والكون والحياة.

ونؤكد بداية أن الحضارة الإسلامية تميزت عن غيرها بكونها هادفة؛ تقوم على الإيمان بالله تعالى والارتقاء الروحى والقيمى والخلقى والإنسانى؛ فضلاً عن كونها حضارة شاملة لجميع الميادين الحياتية كما أنها حضارة متوازنة فى كل نواحيها، مستمدة لأصولها من القرآن الكريم.

والحديث عن **الحضارة الإسلامية** إنما هو حديث عما وضعه الإسلام من أسس للعقيدة الصحيحة والأخلاق القويمة، ونظم الحياة الفردية والجماعية، وما أنتجته البيئات الإسلامية من أدب وفن وفلسفة وعلوم، وماتوصل إليه العلماء من نظريات، وما أبدعوه من مخترعات، وما زخر به الإسلام من روحانية عالية، ومثل عليا، وإيمان بالقوى الغيبية.

والحضارة الإسلامية هى حضارة عقيدة؛ تتمثل فى عقيدة التوحيد والإيمان بالخالق سبحانه، لذا فسمو مصدر التنزيل جعل هذه الحضارة متميزة؛ إذ جاءت من لدن حكيم خبير، متضمنة منهج حياة وسلوك والتزام قويم.

ولأنها كذلك فمن الطبيعى أن تكون أكثر ثبوتاً وخلودًا؛ لأنها ليست من صنع بشر، لهم أهواؤهم وتقلباتهم وتأثراتهم وميولهم. كما أن هدفها نبيل وعظيم؛ فهى فضلاً عن كونها تقوم على جانب أخلاقى، ولاتستهدف ترويع الآمنين، ولا إلحاق الضرر بالآخرين، بل مد يد العون للجميع؛ فهى حضارة تعمير واستخلاف فى الأرض﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُون** ﴾ [**الأعراف** :٩].

وليس الجانب الأخلاقى والعمرانى هما الأساس فقط؛ بل هناك **الجانب الإنسانى المتميز** فى هذه الحضارة فالإنسان رفع الله قدره، وكرمه وآتاه مفاتيح الاستخلاف فى الأرض، ووهبه ملكات التفاعل والاستجابة والتطور، ومن ثم فإن الإنسان المسلم عليه دور عظيم فى الحفاظ على حضارته الإسلامية والقيام بواجباتها بأداء ما يستلزمه كونه خليفة لله فى أرضه، وكونه مسئولاً عن تبليغ دين الله، وكونه يحمل أمانة عظيمة ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾ [**الأحزاب** : ٧٢].

بل وكلفه الله باستعمار الأرض، وسخر له الطبيعة ومافيها، وهيأ له السُبل لتسخير كل طاقاته فى تمهيد ماخلقه لخدمة الإنسانية، فى إطار غاية دينية وقيمية وخلقية شـاملة تصان فيها حرمة المرء والمجتمع ﴿**مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ [**المائدة** : ٣٢]

والإشارة السابقة للجانب الإنسانى فى حضارة **الإسلام**، تجعلنا فى حاجة لأن نعود فنُحدث نوعًا من التفريق بين أمرين: **فالإسلام** إطار متكامل للحياة هبط الوحى على رسول الإسلام ﷺ بقرآن عظيم، يجسد هذا الإطار، ثم كانت

التطبيقات النبوية والتوجيهات الكريمة تدور فى نفس هذا الإطار، وتوضح ماغمض منه؛ فى ضوء تلاقٍ بين عنصرى الهداية: القرآن والسُنة هذا عن الإسلام من حيث كونه دينًا وهداية وتشريعًا.

ثم يأتى **الجانب الحضارى للإسلام** وهو لن ينفصم عن الإسلام كدين، ولكنه يدخل فى إطار مقومات هذا الدين، وعناصر الهداية فيه، وماقام به السلف من إرساء للجوانب الثرية فى هذا الدين وكذلك الجانب العمرانى، والجانب القيمى، والجانب المتصل بالقدوة، وبناء الشخصية المسلمة فالحضارة الإسلامية هى رد فعل وأثر لتوجيهات الإسلام وتوجهاته الإنسانية والأخلاقية والقيمية، وهى بواعث العمل والجهاد فى الإسلام، فضلاً عن تمثلها للمضامين الإسلامية فى عنصرى الهداية وروافدهما.

وتفريقنا المتقدم بين الإسلام كدين، وبين الحضارة الإسلامية آت من أن الأول نظام كامل لاتشوبه شائبة، وعندما نأخذ به فى حياتنا يهدينا الله تعالى للتى هى أقوم، وهذا النظام به كل عناصر التحضر والابتعاث ـ كما أشرنا ـ، وعندما نقترب من الدين ونعمل به ونجاهد لأجله ونحيا فى نوره نكون قد جسدنا هذا الجانب الحضارى السلوكى العملى فى الإسلام. فيصح أن نكون مسلمين وتغيب عنا منطلقات التحضر الإسلامى، ونبتعد عن جوهر الحضارة الإسلامية وذلك عندما ننتسب ـ فقط ـ للإسلام، ولاينالنا منه إلا أننا مسلمون بالاسم لا بالعمل والسلوك والحركة.

ونؤكد هنا أن الحضارة الإسلامية الصحيحة هى التى تقوم على النسق التكاملى للإسلام على النحو الذى ذكرنا؛ وعندما يساء فهم الإسلام فقد تأتى نواتج العمل مخالفة لتعاليمه، والإسلام بالطبع لايتحمل أخطاء أتباعه

-مُتبعيه- ومن هنا فقد حرصنا على التفريق بين الإسلام والحضارة الإسلامية[١]، ولكننا عندما نشير فيما سـيأتى إلى مصطلح **(الحضارة الإسلامية)** فإننا نعنى به الحضارة المتصلة بالفهم الرشيد والصحيح للإسلام كما أراده الله تعالى، وكما دعا إليه رسوله الكريم ﷺ وعمل به، ثم سار على هديه أصحابه وأتباعه. فضلاً عن الجانب العمرانى والتاريخى والتراثى والعملى والفكرى الذى خلده السلف ، وصار داخلاً فى نطاق الحضارة الإسلامية، ونُسميه كذلك، وثمّ أمر مهم نرصده بداية وهو أن كون الحضارة الإسلامية، قامت فى ضوء دين قويم فإن هذا أكسبها تميزًا وتفردًا، فبصفة عامة لايشك أحد فى أن للدين أثره العظيم فى صنع الحضارات، وفى رسم النهج الصحيح لواجبات الاستخلاف فى الأرض؛ فحين تكون هذه الخلافة لله تعالى على عهد الله تعالى وشرطه، وحينما يقوم المرء بواجبات حياته؛ عملاً وحركة وإنتاجًا وبناءً وسلوكًا، وحينما يفجر ينابيع الرزق، ويقيم الصناعات، ويُعمر الأرض، عندما يفعل كل ذلك على أنه عباده لله تعالى وطاعة له سبحانه، واستجابه لأوامره، وقيام بماهيات الاستخلاف يكون قد بلغ ذروة الحضارة وقمتها وأقصاها.

ويصل المرء لقناعة بأن الحضارة تنبعث **بالعقيدة الدينية** ، ولذا فإن البحث فى أى حضارة إنما يكون عن أصلها الدينى؛ الذى آتى من السماء عن طريق الوحى، والذى يكون شرعة ومنهاجًا، وتقوم أسسه على توجيه الناس نحو إله عظيم خالق. فالعقيدة هى أساس قوة الفرد وقوة المجتمع، وهى السياج الواقى للأمة ، وهى القوة المحركة لها، وهى المثال الذى يحفز إلى الحركة والتقدم، وهى العروة الوثقى التى تربط المسلمين فالعقيدة بما تتضمنه من إيمان بالله،

---

(١) يشار فى ذلك إلى أن أخطاء التطبيق والظروف الصعبة كانت وراء التخلف التاريخى فى مراحل متعددة وقعت بها الأمة الإسلامية، وأن ذلك كله كان وراء سوء فهم للإسلام أو مخالفات صريحة له.

واستجابة لأوامره سبحانه تكتسب قدسية ومصداقية وماتستحثه فينا من عمل صالح وهداية، بكل ذلك يتحقق الإرث الطبيعى للأرض ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾ [**الأنبياء**: ١٠٥].

وثمة أمور نؤكد عليها بشأن العقيدة؛ **فوحدة العقيدة** من أهم ركائز وحدة المسلمين، وتكامل قوتهم فعقيدة المسلمين واحدة، لاتختلف باختلاف جنس أو لون أو مصر أو جيل. ودعائم هذه العقيدة ثابتة، ومصدرها معلوم وهو القرآن الكريم وآيات العقيدة له.

وبهذه العقيدة تجتمع قلوب المسلمين، وبها تكتمل رابطتهم، وهى أقوى عوامل نهضتهم وتقدمهم ووحدتهم؛ فالمؤمن حينما يستشعر قرابته من كل المسلمين واجتماعه معهم على أصل واحد، يجمعه وإخوانه المؤمنين فى مشارق الأرض ومغاربها، فإن ذلك يُشعره بالانتماء إلى عقيدته التى يحيا بها معهم، وتلفهم جميعًا رابطة واحدة هى رابطة العقيدة.

ثانياً: المسلمون والحضارة:

يحق لنا أن نقرر أن ظهور الإسلام كان إيذانًا بظهور **حياة راقية**؛ تخلص فيها البشر من شوائب الجاهلية ورذائلها، وأنارت أمامهم سبل الرخاء والسعادة، وأعلت من قيمة العمل، وارتكزت على أساس أخلاقى صحيح وفضائل حميدة، وكرمت الإنسان، وجمعت بين المادة والروح، وبين الدنيا والآخرة.

والقرآن الكريم ناطق بما تقدم، كما أكدته ممارسات العرب والمسلمين، الذين أشرقت بلادهم، وما فتحوه حضارة ورقيًا وتقدمًا وعمرانا وتعليمًا؛ بفضل دينهم. وفى القرون التى كان فيها العرب المسلمون لهم إنتاجهم العلمى والأدبى، **وكانت لهم نهضتهم وحياتهم الفكرية**، ويأخذون من الحياة بحظ وافر، ويقيمون حضارة راقية، كان الغربيون - آنذاك - **يعيشون فى جاهلية وهمجية** ولايعرفون الإدارة ولا الأمن ولا السياسة.

فالعرب المسلمون هم الذين مدنوا البربر فى المغرب، وأوقدوا مشاعل النور فى الأندلس، وأقاموا فى بلادهم أعظم حضارة، وقد شهد علماء الغرب بفضل المسلمين على الحضارة الغربية[1] ولا نعدم ــ رغم ذلك ـ أن نجد أقلامًا غربية أخرى ــ متعصبة ـ تنكر ذلك وتجحد فضل العرب المسلمين وحضارتهم.

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ❋ وينكر الفم طعم المـــاء مـن سقـم

رغم أنه من المقررات والثوابت فى هذا الصدد أن الغرب أقبل بنهم على **امتلاك رصيد الحضارة الإسلامية** من العلوم الطبيعية، وعلوم التمدن المدنى، وعلوم المادة. كما أخذوا عن علمائنا وحضارتنا المنهج التجريبى «أما فيما هو خصوصية حضارية عربية إسلامية؛ مما يتصل بالإنسانيات الإسلامية سياسة واجتماعًا واقتصادًا وفلسفة وأنماطًا قيمية وسلوكية وذوقية.. إلخ. فكل ذلك تحفظ عليه الغرب الناهض، وذلك حتى يكون انفتاحه على حضارتنا كافلاً إضافة مصادر القوة، وحافظاً على خصوصيته وبصمته وهويته»[2].. حيث رفضوا أبرز **خصائص الحضارة الإسلامية** فى التوحيد والتدين والوسطية .. الخ. ورفضوا الطابع الدينى للدولة، وحاكمية الله، وأخلاق الغايات، وفى مقابل كل ما تقدم كانت بدائلهم التى ميزت حضارتهم بالثنائية والنفعية والليبرالية، والاهتمام باللذة والشهوة، وجعل السيادة للعلمانية اللادينية.

ثالثاً: تطور الحضارة الإسلامية:

وكانت الحضارات المعاصرة للإسلام ـ عندما جاء ــ قد بلغت غايتها فى

---

(١) انظر فى ذلك دراسة (لوثرب مستودارد) عن [حاضر العالم الإسلامى]، ودراسة (جوستاف لوبون) عن [حضارة العرب] وكذلك دراسة (كرد على) عن [الإسلام والحضارة الغربية] وفى هذا الصدد تقول الكاتبة الألمانية (سيجريد هونكة) فى كتبها (شمس الله تسطع على الغرب) «يبدو أن الأوان حان بالنسبة للغرب، كى يتحدث بكل صدق وإخلاص عن العرب، هذا الشعب الذى أثر بكل عمق فى مجرى الأحداث العالمية والذى يدين له الغرب والإنسانية جمعاء بالشىء الكثير».

(٢) محمد عمارة فى التقاء الحضارات، جدة ، مجلة المنهل(تصدر عن دار المنهل للصحافة والنشر، العدد٤٩٥، ذو القعدة ١٤١٢ هـ ، ص ٦٠.

الانحراف، ودخلت مرحلة السقوط والتردى، ولذلك فإنها سرعان ماتهاوت وانتهت ولم تخلف وراءها إلا ما تخلفه الحضارات عادة فى مجال المدنية والعمران. وفى جانب (المدنية) نجد أن الحضارات السابقة قد تركت بصماتها وآثارها فى المنطقة الواقعة بين وداى الرافدين ووادى النيل.

ففى جانب (الثقافة) فى مرحلة تالية استقدم المسلمون المعطيات المادية لدى حضارة اليونان والرومان والفرس، ثم طوروها، وأضافوا إليها الإطار الفكرى والعقائدى والثقافى، «الذى يقوم على : الإيمان بالله الواحد الأوحد، وتحرير العقل البشرى، والنفس البشرية من الوثنية، وتحرير الإنسان من العبودية وقيام الوحدة الإنسانية العالمية؛ فضلاً عن الجوانب الأخلاقية الأخرى»(١).

والذى نرصده فى التصور الحضارى فى الإسلام أن حركة المدنية والعمران لاتتم **إلا فى إطار عقائدى** أخلاقى، وأن تكون موجهة بالحق للناس جميعًا على أساس العدل والرحمة والإخاء والمساواة، ومن هنا تسقط الحضارات فى هيكلها المادى ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾[**الرعد**: ١٧] وتقوى الحضارات وتثبت وتدوم بهيكلها الدينى المتكامل ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [**الرعد**: ١٧].

ولانستطيع أن نغفل ما ورثته الحضارة الإسلامية، أو نغض الطرف عما نقلته من منجزات الحضارات البشرية المجاورة، وإنما نقرر أن مزيجًا متآلفًا جاء من نتاج هذا الإرث وذلك النقل، وهو قيام حضارة ذات مضمون مدنى متقدم فى إطار دينى أخوى. ثم أضاف المسلمون إلى تلك الحضارات، وزادوا عليها، بعدما تمثلوها وهضموها واستوعبوها، ثم أنشأوا هذا المزيج، الذى يجمع بين الجانب المادى والجانب الروحى الدينى، وكان نتاج ذلك فى العلوم والمعطيات؛ بعدما حرروها من الزيف والضلال، وارتفعوا بها عن قيم الظلم والفساد والإفساد والإباحية، وجعلوها ربانية الطابع، إنسانية العطاء، دينية النزعة.

(١) أنور الجندى : عالمية الإسلام، سلسلة اقرأ، القاهرة، دار المعارف، العدد ٤٢٦، ١٩٧٧، ص٩٨.

فكان عطاؤهم الوفير لكل البلدان التى فتحوها؛ فكانت بمثابة قلاع للحضارة والتمدن. وكان للمسلمين الحظ الأوفر فى صنع تلك الحضارة، وأفرغوها فى قالب متجانس، مطبوع بطابع عظمتهم، ورموز دينهم.

ثم دخلت الحضارة الإسلامية فى صراع مع **حضارات غازية كثيرة** ، أرادت أن تقتلع الأمة من جذورها وحرّكتهم مفاهيم عنصرية وعدائية، ومن ذلك المغول والصليبيين، ورغم ماخلفته هذه الغزوات من جراح إلا أنها لم تستطع أن تفك العرى أو تقتلع الجذور أو تمحو الهوية أو تطمس المعالم.

ورغم التحديات التى واجهت حضارتنا، إلا أنها استطاعت الرفض والمقاومة أحياناً والقبول والاستجابة أحياناً أخرى، ويحسن بنا أن نقرر أن شراسة التحديات أوجبت على المسلمين فهم دينهم، والثبات للتحدى، وعدم الانخداع ثم الانخلاع.

وعندما نهضت أوربا ـ حديثاً ـ فكريًا وسياسيًا واقتصاديًا كان ذلك حدثًا تطوريًا مفاجئًا، إذ أضحى الغرب فى القرن الماضى والحاضر ـ وبإرهاصات قبلهما ـ هو المسيطر على العالم بأساطيله وأسلحته، ثم باستعماره وسطوته على البلدان، ومنها بلاد العالم الإسلامى؛ فامتزج الغزو العسكرى والتقنى بغزو فكرى وعنصرى؛ فهجمت العاصفة العسكرية ومعها عاصفة فكرية أخرى، وجاست خلال الديار، وأخذت ترى داخل الجسد والعقل المسلّمين، فقد بديا تائهين وضعيفين، ووجد المسلمون أنفسهم إزاء هذا المد الحضارى فى موقفين: -

إما الاستسلام والخضوع والتقليد الأعمى، وإما المعاداة والخصام والرفض وهذان الموقفان المتناقضان برز لهما دعاة وأصحاب رأى، لهم ميولهم ووجهتهم وأدلتهم، التى اتسمت بالخضوع والإيمان بالغرب لدى الأول، والثورة والرفض. . والإيمان بالإسلام لدى الثانى.

والحق **أن أصحاب الموقف الأول هم** بلاشك أصحاب فكره قاصر، وعقلية غير واعية، وضيقة الأفق وهم ينساقون تحت الحضارة الغربية، متغافلين حقائق تاريخية واجتماعية وحضارية كثيرة .فهم يؤمنون بأن الغرب هو السيد، وهو الأستاذ، وهو المتفوق فى كل المجالات الصناعية والإدارية والثقافية والأدبية والاجتماعية والسياسية والتطبيقية.

وكان حظ هؤلاء أن رضوا بفتات الموائد، وتطلعوا إلى نتاج الغرب، وشخصت أبصارهم إليه، وتعلقت قلوبهم وعقولهم به، فخسروا منبع قوتهم ودينهم، وكان التقليد والمحاكاة والاستسلام والانقياد هو ديدنهم وسبيلهم، والتبعية والذوبان هم نهايتهم.

وفى المقابل وجدنا **أصحاب الموقف الثانى؛** الذين تركزت جهودهم فى محاربة الغزو الفكرى والسياسى، وكرهوا كل ما آتى به، إذ رأوا فيه الاحتلال لوطنهم، والاغتصاب لأملاكهم والنهب لثرواتهم، وتراثهم الإسلامى.

وهؤلاء -رغم موقفهم الحماسى السابق- «إلا أنهم أغفلوا التفريق بين ما يؤخذ وما يرد، ولم يحاولوا معرفة عدوهم، والتطلع لأسراره، وجوانب القوة والضعف، ولم يفرقوا بين ما يتفوق فيه علينا من علوم وصناعة وغير ذلك، وما يفتقره من أهداف كريمة، وعقائد سليمة، وغايات نبيلة (فهو رفض مطلق)»[1].

وهكذا انضم **الأول** إلى خضم الأفكار الغربية وتياراتها، وأما **الثانى** فقد حاول الإفلات منه، ورفضوه كله بما يعنى العزلة عنه.

وهنا نجد تفاوتًا بينهما بين الاستسلام والرفض، وبين الخضوع والتصلد، وبين الانقياد والتصدى بين الموقفين، اللذين يبدوان متناقضين.

---

(١) محمد الحسينى : الإسلام الممتحن، القاهرة ، المختار الإسلامى، ١٩٧٧، ص٥١ . .

بيد أن هناك موقفًا وسطيًا بينهما؛ له دعاته كذلك، وله مؤيدوه، وهم يقفون موقف المتأمل الدارس، الذى لاينكر الغرب برمته، ولا يقبله على علاته، ولا يخلط بين ما أنتجه من وسائل لإسعاد هذه الحياة، وما اخترعه من مذاهب باطلة وثقافات سخيفة، وآداب مبيدة للدين والأخلاق وللمبادئ الإنسانية الكريمة والصفات النبيلة.

وأصحاب هذا الموقف الوسطى لا يستلمون ولا يندمجون، ولا يواجهون ضغطه السياسى والاستعمارى فحسب، بل يحاربون روح الجشع والأنانية وعبادة الشهوات، كما أنهم يستفيدون من أدواته ومعلوماته وعلومه وصناعاته، التى لا يحتكرها شعب، ولا تختص بها أمة، بل هى نتاج حضارى متاح، يمكن الإفادة منه فى نواحى التقنية والتنمية.

وبذا فإنهم لا يعتبرون الغرب عدواً لدودًا لهم، فلا يحقدون عليهم، ولايخشعون لما يأتى به، ولا يطأطأون له الرأس، بل يقبلون ويرفضون، ويناقشون ويقتنعون ويُقنعون، أنهم يأخذون من علومه وصناعاته، التى لاتضر الإنسان كثيرًا إذا لم ينلها أو يُحصلها، ولكنهم يرفضون استخدامه لهذه القوة الضاغطة، وهذا العلم فى التأثير على الجونب الأخلاقية والقيمية لدى الشعوب الناقلة.

ويبقى أن نقرر أن المسلمين لا يقبلون ــ ولا ينبغى لهم ذلك ـ **تغريب الحضارة،** بحجة غلبة الغرب وسلطانه فى العصر الحديث.. ففى تصورنا ويقيننا أن هذا الغلب المادى والتقدم التقنى هو مرحلة مؤقتة لن تستمر، فهى ــ أى الحضارة الغربية ــ لا تستمد كينونتها من الحق، فضلاً عن كونها تخالف الفطرة، وتعارض سنن الكون، ولذا فلن تلبث أن تسقط، بعد أن تهتز أركانها، وتخور قواها. ونضيف لما تقدم أن الحضارات الإنسانية لا تقاس بالتقدم المادى والعسكرى والحربى، وإنما تقاس بما تضيفه إلى البشرية من قيم التقدم والرقى

وبذا فإن الحضارة الإسلامية لم يستطع الاستعمار ــ الذى احتل كثيراً من البلاد الإسلامية أن يذيب هذه الحضارة، أو يقتلعها، أو يغيرها[١].

بيد أننا **لا نغفل انجذاب كثير من المسلمين** إلى فلك الحضارة الغربية، نتيجة تعلقهم التاريخى بها ووقوعهم تحت سيطرتها. ولسنا فى حاجة للتأكيد أننا أمة مستقلة، لها حضارتها وذاتيتها وإرادتها وجوهر دينها، وأن مرحلة التحرر من رق التعلق والاستعباد الفكريين ينبغى أن يتزامن معها اقتناع بقوة جذور حضارتنا الإلهية، وضرورة الاعتصام بأصولنا وروافد حضارتنا ومنطلقاتنا.

رابعاً : الحضارة الإسلامية فى عقول السلف :

لانحتاج إلى كثير أدلة للتأكيد على أن المسلمين الأوائل الذين صنعوا حضارة عظيمة فى بلادهم فى ضوء دينهم العظيم، والذين شاركوا بجد وفير بنّاء فى إقامة حضارات أخرى مجاورة **كانوا قد استوعبوا مضامين البناء والتواصل فى الإسلام،** وأيقنوا بأهمية العطاء والبذل فى هذا الدين، فقد أيقنوا أنهم صناع حضارة، وأنهم جند الله، وحملة رسالته.

ويمكن لنا أن نتلمس **الجانب الحضارى فى فهم المسلمين أنفسهم لعوامل الدفع والتقدم فى دينهم** من نماذج فريدة؛ نلتقى بها فى كتب التراث؛ معبرة عن نصاعة فهمهم، وقوة بصيرتهم ووضوح رؤيتهم، وإيمانهم برسالتهم، وفاعلية دينهم فى التحرير والهداية وحسن التوجه من هؤلاء **ربعى بن عامر -رضى الله عنه-** عندما سأله رستم الفارسى عن دوافع الفتح والمجئ لفارس فقال: «جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدينا إلى سعة الدنيا والآخرة».

(١) ربما يتساءل البعض عن ظواهر الطمس للحضارة الإسلامية فى تركيا وفلسطين، ونؤكد أن تركيا تسير فى طريق العودة إلى أحضان أمتها الإسلامية، وثم ما يدلل على ذلك من تيارات الصحوة الإسلامية والعودة للجذور ومواجهة التحديات الثقافية من العالم الغربى وفى فلسطين ــ رغم قسوة المحنة ــ إلا أن الصهاينة لم يستطيعوا تهويد أرضهم أو إذابتهم أو اقتلاع كيانهم، وإنما يبقى المد الإسلامى والتمسك بالدين هو طريق الخلاص والتحصين والصمود والمواجهة.

إنه فهم عميق لفاعلية الرسالة فى حياة الناس، وإخراجهم من عبادة العباد من الأكاسرة، ومن تسلطهم إلى رحابة الإسلام حيث التوجه للإله العظيم الخالق، وإخراجهم من حياة الظلم والتمييز والطبقات إلى حياة الحق والعدل والإسلام، ومن غلبة الدنيا وسطوتها عليهم وتحكمها فى سلوكهم إلى أفاق أرحب وأوسع حيث تتلاقى الدنيا والآخرة، والدين والدنيا فى سبيل واحد هو طاعة الله والاستجابة لأوامره ثم الفوز بنعيم الآخرة.

بمثل هذا الفهم يكون الدفع الحضارى والإيمان الوثيق بأن الإسلام ليس طقوساً يؤديها أتباعه إنما هو رسالة متكاملة، لها تبعاتها وتأثيرها فى سلوك المسلمين،عندما تمثلوا روح الإسلام التى جسدها صحابة رسول الله ﷺ، الذين كانوا جنوداً ـ حقاً ـ لله، وطلابًا للآخرة وقد وصفهم **رُسل المقوقس- عظيم مصر- بهذه الكلمات الذهبية** التى نلمح من خلالها سلوكهم العبادى والانقيادى والحضارى فى حياتهم : «رأينا قومًا الموت إلى أحدهم أحب من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة، وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم.. ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد من العبد.. وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد؛ يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم».

بهذا السلوك المتكامل والفهم الرشيد وحب الموت والجهاد وتمثل القيم الإسلامية، والتواضع والمساواة والعدل، وطاعة الله تعالى كانت حياتهم، وبهذا السلوك بنوا حضارتهم وأقاموا دولتهم.

وفى هذا الصدد يمكن رصد نماذج أخرى؛ تبعث روح العمل، ولا تميل إلى الرفاهية التى تقلل من كفاءة المسلم وتجعله غير قادر على تحمل المشاق، وعلى القيام بواجبات عمارة الكون، وتكبد التبعات الثقال.. **ونلمح الفهم السابق فى قول الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه** لأحد عماله ببلاد العجم «إياكم والتنعم وزى العجم، وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب، واخشوشنوا، واعطوا الركب أسنتها، وارموا الأغراض».

ونماذج أخرى، تبعث روح الإيثار والتواضع وإنكار الذات، وإقدار الأمانة والمسئولية والقيادة، واستهداف وجه الله من كل ذلك، دون رغبة فى عزة أو سيطرة أو تمتع بمال أو سلطان **ونلمح هذه الروح فى قول أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه** فى تواضع القائد المؤمن[١] : «ما لسلطان الدنيا أبحث، وما للدنيا أعمل، وإن كل ماحولنا سيصير إلى زوال وانقطاع إنما نحن إخوان نتبع أمر الله عز وجل، وما يضر رجل أن يلى [أى الإمارة] عليه أخوه فى دينه أو فى دنياه. . وإن الوالى (القائد) يكاد يكون أقرب الناس إلى الوقوع فى الفتنة وأدناهم إلى الخطيئة لما يتعرض له من الغواية، إلا من عصمه الله عز وجل، وهم فى الناس قليل».

وفى ميدان القتال؛ نرى إيمانهم بنصر الله تعالى؛ رغم قلة عددهم، وكثرة عدوهم. . ففى غزوة مؤتة، **نشاهد عبدالله بن رواحة رضى الله عنه ـ ثالث الأمراء** ـ ينهض وسط الصفوف؛ بعد أن انزعج المسلمون من كثرة جيش الروم، وقلة عددهم، فإذا به يقول [ياقوم. . إنا والله، مانقاتل أعداءنا بعدد، ولا قوة، ولاكثرة. . مانقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة].

بل إن خالداً بن الوليد رضى الله عنه المقاتل المجاهد، الذى لاينام ولايترك أحدًا ينام، نجده باكيًا حزينًا على فراش الموت، لأنه كان يطلب الشهادة ويتمنى الموت فى سبيل الله ونُصرة دينه، فإذا بالبطل يموت على فراشه، ولنستمع إلى كلماته النورانية [لقد شهدت كذا، وكذا زحفًا، وما فى جسدى موضع إلا فيه

---

(١) قالها أبو عبيدة عندما كتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه لتعيينه واليًا على المسلمين بدلاً من خالد ابن الوليد رضى الله عنه . . ولما كانت الحرب دائرة رحاها بين المسلمين وأعدائهم من الروم، فقد تكتم أبو عبيدة الخبر، حتى وضعت الحرب أوزارها. وعندما علم خالد بالأمر ذهب إلى أبى عبيدة، وعتب عليه ذلك، فكان رد أبى عبيدة موضحاً سبب ذلك، بتواضع ورفعة وتقديم للمصلحة العامة للمسلمين.

ضربة سيف، أو طعنة رمح، أو رمية سهم ثم ها أنذا أموت على فراشى حَتْفَ أنفى كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء».

والحكمة الحقة والفهم الرشيد والاعتدال والقناعة وفهم حقيقة الدنيا **نجده فى قول أبى الدرداء** رضى الله عنه «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يعظم حلمك، ويكثر علمك، وأن تبارى الناس فى عبادة الله تعالى» ثم يقول« التمسوا الخير دهركم كله، وتعرضوا النفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا الله أن يستر عوراتكم، ويُؤمن روعاتكم»، وبحكمة بالغة يقول «لاتكلفوا الناس مالم يُكلفوا، ولاتحاسبوهم دون ربهم، عليكم أنفسكم فإن من تتبع مايرى فى الناس يَطُلْ حزنه».

ونقفز للأمام **لنجد المحاسبى ــ رحمه الله ـ يذكر لنا مقدمة كتابه (الوصايا)** سمات المسلمين العاملين ومدى فقهم وفهمهم وسموهم، ولأهمية هذا النص فإننا نسوقه، ملتمسين هذه الصفات الفريدة لمسلمى هذه الأمة «. . فقيض لى الرءوف بعباده، قوماً وجدت فيهم دلائل التقوى، وأعلام الورع وإيثار الآخرة على الدنيا، ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل الهدى، ووجدتهم مجتمعين على نصح هذه الأمة. يرضون أبدًا بالصبر على البأساء والضراء بالقضاء، والشكر على النعماء يحببون الله إلى العباد، بذكرهم أياديه وإحسانه، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى. علماء بعظمة الله تعالى وعظيم قدرته، وعلماء بكتابه وسنته؛ فقهاء فى دينه، علماء بما يحب ويكره، ورعين عن البدع والأهواء؛ مبعضين للجدال والمراء ، مخالفين لأهوائهم، مالكين لجوارحهم، مجانبين للشبهات، تاركين للشهوات، مشفقين من الحساب، وجلين من المعاد، مشغولين بشئونهم. علماء بأمر الآخرة، وأهاويل القيامة، وجزيل الثواب، وأليم العقاب، ذلك أورثهم الحزن الدائم، والهم المضنى؛ فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها. .».

بمثل هذه النماذج الفريدة ودلائل الحكمة؛ وبهذا الإيمان الواسع العميق، والاهتداء بالتعاليم النبوية المتقنة نرى عظمة تأثير هذا الدين، الذى عمد إلى أمة

عربية ضائعة فجعل منها نوابغ وعجائب للدهر وصناعاً للتاريخ، وأفرزوا مواهب وقوى صبغت العالم بنور جديد، امتدت روافده وملأت كل ثغر، برجال عظام ـ فهموا حقيقة هذا الدين وطبقوه ـ جمعوا بين الكفاية والديانة، والقوة والأمانة، والعدل والرحمة، فكان منهم الأمير العادل، والقاضى المقسط، والخازن الأمين، والوالى المتورع، والجندى التقى، والعالم العامل.

خامساً : ركائز أساسية للحضارة الإسلامية:

ثمة ركائز وأسس قامت عليها الحضارة الإسلامية، ونلمحها فى مضامين هذا الدين، ويمكن رصد هذه الركائز فيما يلى : الربانية، الإخاء، الشمول، والمنهجية العلمية[1]، والتطبيق.

* **فالربانية :** هى صلة الإنسان بربه، من خلال العبادات التى فرضها الله، وهى كلها تحقيق للربانية «ولكون الشريعة اتسمت بالربانية وبأن الله هو مصدرها فهى مبرأة من كل نقص، لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا بينت حكمها، وجاءت خالية من كل جور وهوى، ولاتفرق بين الناس لمنصب أوجاه، ولذا اكتسبت أحكامها هيبة واحترامًا فى نفوس المؤمنين بها حكامًا كانوا أو محكومين دون قسر لهم أو كُره لهم» [2].

* **والإخاء:** يتحقق بصوره المتعددة فى المساواة فى الحج، ووحدة المكان فى الصلاة والحج، ووحدة الزمان فى الصوم، والإخاء الإسلامى بعامة هو تحقيق لصلة المسلم بأخيه المسلم.

---

(1) عبدالعزيز كامل : **الإسلام والعروبة فى عالم متغير،** الكويت، سلسلة (كتاب العربى) رقم ٢٢ يناير ١٩٨٩، ص ١٢٩.

(2) محمد عبدالغفار شريف : خصائص التشريع الإسلامى، الكويت، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٣٢٠، ربيع الآخر ١٤١٣هـ، ص ٤٥ وما بعدها.

وليس خافيًا أن الإخاء الإسلامى هو الأصل الأصيل فى بناء دولة الإسلام، وقيام الأمة الإسلامية، «ووفق البناء الأخوى بين المهاجرين والأنصار قامت دولة الإسلام، على أساس سليم ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. وبفعل الإيثار وتقدم الغير وتقديم حاجات الناس على حاجات النفس تأكدت أخوة الإسلام، والتوادد فى ظل الإيمان»[١].

ولسنا فى حاجة إلى التأكيد على أن الأخوة فى الإسلام قاعدة لسلوك المسلمين وعلاقاتهم معاً، ولذا فهى فوق كل الحواجز الجنسية، والعرقية، والقومية، والحزبية، والسياسية، وتقوم على أصول متينة [٢] مأخوذة من قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]

وهذه الأخوة ـ كما هو واضح ـ تستمد أصولها من القرآن الكريم، الذى أذكى روح الأخوة الإسلامية، ودعم المحبة بين المسلمين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

* **والشمولية :** تتحقق بصلة الإنسان بالكون والبيئة، وهى شمولية تتخطى الواقع المحلى؛ لتنتشر فى واقع عالمى، جاءت فى الرسالة إلى الناس كافة (وسيرد تناول مفصل للشمولية فى الإسلام بعد قليل).

* **وأما المنهجية العلمية** : فتتمثل فى الجمع بين نورىّ الوحى والعقل، والتآلف بين أوامر الوحى، وبين اجتهاد العقل المسلم فى مدارسه الفكرية المتعددة، التى جعلت من العقل مادة لفلسفتها.

---

(١) أحمد عبدالرحيم السايح : الإخاء الإسلامى وأثره فى المجتمع، الكويت، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٢٣٦، شعبان ١٤٠٤هـ ، ص ٤٢.

(٢) نفس المرجع السابق : ص ٤٦.

وما سمى بـ (علم الكلام) هو تحقيق لإعلاء قيمة العقل والتفكير لدى المسلمين (وسيرد تفصيل لهذه الجزئية فى معالجة تالية).

* **وأما التطبيق** : فتجد صداه فى كون الحضارة الإسلامية ليست مندرجة فى إطار الترف الفكرى أو المثاليات أو الأمانى والطموحات، ولكنها تنفض غبار ذلك فى روح العمل والتطبيق **﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾** [البقرة:٤٤]. **﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾** [الحشر:٧]. **﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾** [الصف:٣].

فأحكام الشريعة لاتقف عند حد الإقرار النظرى وإنما يتكامل شقاها النظرى والتطبيقى؛ انتقالاً من مرحلة اليقين والتصديق إلى الاستجابة والتطبيق.. فالإيمان لاتستكمل أركانه إلا بأثره الفاعل فى حياة المرء كأن يحب فى الله ويبغض فى الله، ويأمن جاره بوائقه، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ وهكذا ينتقل الإيمان من اليقين إلى التطبيق (١).

وبديهى أن نقرر أن الإيمان الحقيقى يتحقق بالاقتناع والاتباع معًا، **﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾** [النور:٥١]. وتتحقق هذه المعانى بالسلوك الفعلى والتطبيق، وهذا ما يجسده قول ابن عمر رضى الله عنهما ــ ورواه مسلم : لقد عشنا برهة من الدهر، وان أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة؛ فيتعلم حلالها وحرامها وأوامرها، ومايبنغى أن يقف عنده منها، لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان؛ فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدرى ما آمره ومازاجره، وما ينبغى أن يقف عنده؛ ينثره نثر الدقل».

(١) لمزيد من الإيضاح يُرجع لكتابنا (مؤلفنا) : **التقوى فى القرآن الكريم** - دراسة تفسيرية لغوية إحصائية، طنطا، دار الصحابة للتراث ، ١٩٩٠. وذلك فى الفصل الثالث الذى أوضحنا فيه فاعلية الإيمان فى حياة المتقين.

ومن أجل تحقيق التلاقى الحقيقى بين الإيمان والتطبيق؛ فإن هذا الأمر يتحقق عندما تزداد علاقتنا بالإسلام كمنهج حياة، بحيث يكون إذ عاننا له، وولاؤنا له، ويقيننا به. ثم يكون طبيعياً أن يهيمن على فكرنا وحركتنا وحياتنا.

وأعود فأقول إن هذا أمر يخشاه أعداء الإسلام؛ أن يتحول علاقة المسلمين بالإسلام إلى يقين وإلى حركة فاعلة فى حياتهم، ويسيطر على وجدانهم وفكرهم وحركتهم وبذا تحدث اليقظة المرجوة، ويستعيد المسلمون ذاتيتهم وقوتهم وتفوقهم.

سادساً : خصائص إسلامية قامت عليها الحضارة :

المتأمل لخصائص الإسلام - التى تقوم عليها حضارته الروحية والعملية والبنائية ــ يجد جمعاً بين نقاء النفس البشرية لخالقها، وحسن توجهها، وبين الارتكاز على قوانين منطقية فى تيسير الحياة والقيام بأعباء الرسالة وتبليغها، وتعهد الله سبحانه بنصر المؤمنين.

ويمكن رصد هذه الخصائص فى :التوحيد، التوازن، الوسطية، فريضة الجهاد، قانون النصر[1] وسنوجز الحديث عن كل خصيصة فيما يلى:-

- **فالتوحيد :** خصيصة تؤكد البناء القيمى فى الإسلام، وتأكيد العلاقة بين العبد وربه، وتحريره من كل القيود والوثنيات، ورفع الإنسان إلى مستوى الاستخلاف فى الأرض. وليس خافياً أن التوحيد هو ركيزة الإسلام، وسر نجاح دعوة النبى الكريمﷺ فى اجتثاث الوثنية من جذورها، وترسيخ التوحيد لبناء حضارة إسلامية. وقد صبغ التوحيد كل نتاج الحضارة الإسلامية التى قامت على أساس من عقيدة التوحيد فى كل البلدان الإسلامية.

---

(١) أنور الجندى : عالمية الإسلام، مرجع سابق ، ص ٢٢.

- **وأما التوازن** : فتجده واضحاً فى الأخلاقيات الإسلامية؛ التى تقوم على الاتقاء عن كل ماحرم الله تعالى وضبط النفس، وكظم الغيظ، ومراقبة الله وعدم معصيته. كما نجد قاعدة التوازن فى معالجة الإسلام فى مختلف القوى فى الإنسان بين الرغبات والضوابط، وبين الروح والجسد، وبين العقل والقلب، وبين الترف والحرمان؛ فهو لا يقر المادية المغرقة ولا الروحانية المطلقة، ولا يقر الرهبانية المفرطة ولا الانحلال من ربقة الشريعة.

وأما الوسطية : فتمثل فى مظاهر عدة منها أن الإسلام ليس عقيدة مادية؛ تنطبق عليها المقاييس المادية وليس عقيدة روحية؛ تتصل بالرؤى والمعجزات، وإنما الإسلام عقيدة تقوم على المادة والروح معاً.

والوسطية سمة لهذا الدين؛ بُنيت فى ضوئها التشريعات الإسلامية ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ [**البقرة**:١٤٣]. وقد جعل الله تعالى هذه الأمة فى منزلة وسطى بين المنزلتين، فلا هى إلى الغلو المفرط ولا هى إلى التهاون المفرط. ويمكن لنا أن نرصد مظاهر أخرى للوسطية فى العقيدة الإسلامية الواحدة، وفى العبادات والتيسير فيها، وفى المعاملات وصورها، وفى التدرج فى أحكام الشريعة، وفى السلوكيات الإسلامية التى ترفض التشدد، وفى توجيهات الرسول الكريم ﷺ. وكل جزئية منها تحتاج إلى بسط وتفصيل؛ لكن مقام ليس هنا[1].

والتوسط فى الدين الإسلامى له أسسه وركائزه، كما أن له منهجه القويم؛ الذى يتفق مع الطبيعة البشرية التى فطر الله الناس عليها.

وأما فريضة الجهاد : فهى أعظم صورة لليقظة والتأهب والاستعداد والمرابطة، حفاظاً على كيان الدعوة الإسلامية فى الداخل، وتبليغها فى

---

(١) لمزيد من التفصيل يُرجع فى ذلك لدراستنا عن (الوسطية والاعتدالية فى الإسلام) القاهرة، ١٩٩٠ حيث تناولنا سمة الوسطية فى المنهج الإسلامى، ومفهومها، ومظاهرها، وتطبيقاتها.. وغير ذلك.

الخارج. ورغم أن الإسلام دين يقوم على السلم إلا أن القتال له بواعثه ومواقفه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ﴾[البقرة:٢١٦]. فالمسلم حامل رسالة ولا يعطى الذلة فى دينه، ولذا رفع الإسلام من منزلة الشهيد والشهادة، وجعلها لا تطاول وبهذا الفهم فتح المسلمون البلدان، وجاهدوا وأقاموا حضارتهم.

ثم تعهد الله بالنصر: فى انتصار الحق على الباطل، إذا ما أخذ المسلمون بالأسباب، واعتمدوا على الله، دون أن تأخذهم ثقة أو غرور ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠]. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[محمد:٧].

وحديثنا المتقدم عن الخصائص الخمس السابقة هو تقديم للأهم، ولانجد كثير صعوبة فى الربط بين هذه الخصائص، **فالتوحيد** أمر متصل بالبناء العقائدى للأمه، وبيان لمناط التوجه فى هذا الدين، وفى إطار من البناء العقائدى القويم نجد **توازنًا** فى جوانب التشريع والأخلاقيات والنفس البشرية ونجد **توسطاً** فى التشريعات وفى المنهج الإسلامى، ثم يأتى الجانب الحركى والتبليغى لرسالة التوحيد بما حوته من توازن وما اتسمت به من وسطية، وذلك من خلال **الجهاد** والشهادة، ثم **نصره** تعالى للمؤمنين المجاهدين.

بيد أن خصيصة أخرى نلمحها فى الشريعة الإسلامية وفى هذا القانون الإلهى، وهى خصيصة لا تختلف كثيراً عما تقدم، وذلك فى **(الشمول)** والذى نجده واضحًا فى انتظام الشريعة لكل شئون الحياة من نظم سياسية واقتصادية، واجتماعية، وخلقية، وقضائية[١].

وكان لهذا الشمول تأثيره العظيم فى بناء الحضارة الإسلامية على أسس

(١) محمد رأفت سعيد : المدخل لدراسة النظم الإسلامية، القاهرة، دار هجر.

قوية؛ على نحو نجد فيه تفصيلاً دقيقًا لكل جزئيات الحياة، ولكل مايجرى فيها من أحداث، وما يستلزم ذلك من أحكام مُفصلة[١].

فأحكام العقيدة تتناول مسائل الإيمان والتوحيد، وأحكام تتناول الأخلاق وتتصل بالصفات الحميدة التى حثنا الإسلام عليها كالصدق والصبر والأمانة.. الخ، والصفات المرذولة المنهى عنها كالكذب والنفاق والرياء والخداع والغدر .. الخ.

وفى الأحكام العملية نجد العبادات بمعناها العام والخاص، والمعاملات؛ التى يقصد بها تنظيم علاقات الأفراد فيما بينهم، وتشمل أحكام الأسرة (الزواج والطلاق) مما يدخل فى نطاق (قانون الأحوال الشخصية) والمعاملات المادية (البيع والإجارة والرهن والكفالة) مما يدخل فى (القانون المدنى)، ثم أمور الشركات والتجارة (القانون التجارى). وأحكام تتناول نظام القضاء والدعوى والشهادة واليمين (قانون المرافعات) وأحكام تتناول معاملة الأجانب غير المسلمين فى الدولة الإسلامية (القانون الدولى الخاص) وتنظيم علاقة الدولة الإسلامية بالدول وعلاقاتهم معًا (القانون الدستورى) وأحكام تتناول موارد الدولة الإسلامية ومصارفها وتنظيم العلاقات المالية (القانون المالى) فضلاً عن أحكام الجرائم والعقوبات (القانون الجنائى).

هذه بعض مظاهر شمول الشريعة الإسلامية؛ فى تغطية جميع الجوانب، ويبدو من ذلك قصور القوانين الوضعية فى عدم تناولها لمسائل العقيدة والعبادات والأخلاق، وهى المسائل التى تبنى الإنسان وتجعله صالحًا، ملتزمًا، يُجازى على الخير، ويُعاقب على الإثم.

---

(١) ثم دلائل نبوية عدة تؤكد لنا هذا الشمول والتفصيل لكل الأحكام، ففى حديث مسلم - عن سلمان الفارسى رضى الله عنه أن المشركين قالوا له: لقد علمكم نبيكم كل شئ حتى الخِراءة، قال أجل : لقد نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول، وأن نستنجى باليمين، أو بأقل من ثلاثة أحجار، أو برجيع، أو بعظم.

ويبرز شمولها كذلك، فى تقديم عطاء متكامل للإنسان يشمل واقعه المادى والقلبى والعقلى.

وثمّ خصائص أخرى للشريعة الإسلامية -كان لهامردودها على الجانب الحضارى - وذلك فى: خلودها فهى ناسخة لكل الشرائع، وهى الخاتمة فرسول الله ﷺ هو موضع اللبنة[١]؛ الذى جاء فختم الأنبياء ولذا نرى أحكامها صالحة لكل زمان، لا تحتاج إلى تغيير أو تبديل.

كما تتسم كذلك **بموافقة الفطرة** ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ [**الروم**:٣٠]. ولأن الإسلام دين الفطرة فإن أحكامه ومبادئه تجد قبولاً لدى أصحاب النفوس السوية والعقول الراجحة، البعيدة عن الأهواء والضلال. فكل مولود يولد على الفطرة؛ وفق ما قررت الأحاديث ذلك[٢].

وتتسم أيضًا بالتيسير وعدم الحرج ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [**البقرة**:١٨٥]. ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [**الحج**: ٧٨]. وتؤكد الأدلة النقلية أن السماحة سمة أساسية فى الشريعة الإسلامية والأمة الإسلامية أمة وسطى، بعيدة عن الإعنات والغلو. ولذا أقبل الناس على الإسلام رغبة فى سماحته، ويسر أحكامه، وسهولة الأخذ بها.

فضلاً عن خصائص أخرى متصلة بالنواحى الأخلاقية والعقائدية والتطبيقية، مما سنفصله فى مواضع أخرى تالية، بتناول مختلف.

---

(١) يشار فى ذلك إلى قوله ﷺ فى الحديث الصحيح «مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها، ويقولون : لولا موضع لبنة قال ﷺ فأنا موضع اللبنة، جئت فختمت الأنبياء » رواه مسلم.

(٢) منها قوله ﷺ فى الحديث الصحيح «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جدعاء هل تحسون فيها من جدعاء» (متفق عليه).

سابعًا : طبيعة الحضارة الإسلامية ومبادؤها التى بُنيت عليها :

غنى عن القول أن الإسلام يحمل **حضارة إلهية**، فهو شريعة ومنهاج من عند الله، وبذا فإنه محفوظ عن الخطأ والانحراف، والزيغ والضلال، ولا حاجة فيه إلى تعديل أو تغيير﴿**وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [**الأنعام**:٣٤].

وطابع الحضارة الإسلامية **أخلاقى فى أساسه**، وأن ثمة ارتباطاً وثيقًا بين الحضارة وبين الإيمان بالله، وذلك فى مقابل (النفعية) ونظريات الذرائع فى الحضارة الحديثة.

وتقوم الحضارة الإسلامية كذلك على مفهوم العدل الشامل للبشرية كلها؛ دون تحيز لجنس أو لون. وترفض كل مفاهيم التميز والعنصرية والصراع بين القوميات ، وادعاء التفوق لبعض الأمم دون غيرها.

وقد طُبعت الحضارة الإسلام بجانب إيجابى، حيث لا يقر الإسلام الواقع الفاسد، بل يطالب بتغييره، ليتفق مع القيم الإسلامية؛ التى تدور فى إطار الربانية والالتزام الخلقى، وتقدير مسئولية الإنسان.

كما طبعت كذلك بالفهم الإسلامى الأصيل؛ حيث الربط بين الروح والمادة والعقل والقلب فى إطار مفهوم جامع، ومنظور متكل، هو فى ذاته دين ومنهج حياة ونظام مجتمع. ومن هنا يقرر الإسلام أن الرقى مادى وروحى معًا، وأن كليهما لا يعارض الآخر، وانهما وجهان للحياة الإنسانية، وإن الإسلام يدعو للتقدم فى إطار الإيمان وسيادة الإنسان على الكون تحت حكم الله.

ولك أن تتساءل عن أسس هذه الحضارة الإلهية ومبادئها؟

ويمكن لنا أن نخلص إلى عدة أسس ومبادئ، بُنيت فى ضوئها حضارة الإســـلام فيما يلى:

* **المبدأ الأول : التوجه فيها لله تعالى**، وحده لا شريك له ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ**﴾[**الأنعام**:١٦٢-١٦٣] .

ووفق ذلك فإن الغايات من الأعمال والمقاصد متجهة لله عز وجل ، فمن إماطة الأذى عن الطريق إلى آخر درجات الجهاد، وأفضل أنواع السعى؛ تجد روح التقرب إلى الله هو النسق الذى يأتلف حضارة هذا الدين؛ فهناك اتحاد فى الغايات، وحسن فى التوجه، فالحياة كلها عبادة والأرض كلها مسجد، والمسلمون كلهم إخوة «ومهما اختلف المسلمون فى منهجهم وسلوكهم، أو فى وظائفهم ورتبهم الدنيوية، إلا أن الشئ الذى لن يتفق فيه اثنان هذه النية وراء هذه الأعمال، والروح التى تحددها، فإن هذا الشئ تتعدد فيه المسالك، وتتفرق فيه السُبل»[1].

وفى ضوء صفاء العقيدة تصفو النية، وينشرح الصدر، وترقى السرائر، وتخلص الأعمال لله تعالى، وتنقى من شوائب الرياء، وتبتعد الأعمال عن المظهرية والدنيوية ﴿ **وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ [**التغابن**: ١١].

ووفق هذه العقيدة المثلى؛ التى لا يصل إليها الباطل، وبقوة الإيمان، وحسن التصديق واليقين، تشرق النفس الإنسانية بكثير من صفات الخير والفضائل الحميدة والأخلاق العظيمة.

* **المبدأ الثانى : ربانية المجتمع،** فى المجتمع الربانى لايكون الإنسان سلعة للبيع، ولاينبغى أن يعيش على أساس تبادل المنفعة؛ بل إنه يهديه إلى طريق أفضل، ويُحمله رسالته ودعوته؛ بأن يخدم الآخرين، ويساعدهم غير طامع فى الأجر منهم، ولاحريص على مكافأة ﴿ **يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [**هود**:٥١]. وألا يعلق قلبه بمباهج الحياة وزخارفها، فإن أقبلت عليه الدنيا حمد الله وشكره، وإن أصابته سراء حمد الله، وإن أصابته ضراء استغفر الله وقبل ذلك بصبر دون جزع، مؤمنًا بالقدر خيره وشره؛ غير مستعين بمخلوق مثله ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[**الأنعام**: ١٧].

---

(١) محمد الحسنى، الإسلام الممتحن، القاهرة ، مرجع سابق، ص٩٣، . . بتصرف شديد.

وتتأكد ربانية هذه الحضارة فى أن المسلم لا يبر أخاه، ولا يساعده كواجب خلقى محض، بل يقوم بهذا العمل حرصًا على الثواب، وطلبًا للمغفرة، وطمعًا فى رضى الله سبحانه؛ فالله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه.

* **المبدأ الثالث :** قامت هذه الحضارة الإلهية **على دين ثابت لا يتغير**، كامل لاينقص، كلٌ لايتجزأ، لا يحتاج إلى تطوير (بل إلى اجتهاد) ولاتؤثر فيه الأحداث والتطورات الحضارية، والانقلابات، والثوارت. ذلكم لأنه جاء به وحى سماوى من الله سبحانه، وكتاب الله هو إطاره المرجعى، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [**الأنعام**: ١١٥]. إنه نعت لهذا الدين بالثبات والقرار كشجرة طيبة، عميقة الجذور، ثابتة الأصول ممتدة فى السماء، وتعطى أكلها دونما انقطاع. أما المذاهب الوضعية ـ الصناعة السطحية ـ فلا جذور لها، وليس لا قرار؛ كالكلمة الخبيثة؛ التى توشك، أن تجتث من الأرض، وتقتلعها أبسط الأنواء.

* **المبدأ الرابع :** طبيعة هذا الدين أنه **نابع من قوة ذاتية**، ومن نور إلهى ومن طاقة معنوية من الله سبحانه؛ لتثبيت دينه، وتأليف القلوب حوله، وتقريبه لعقولهم وقلوبهم.

وهذه القوة الذاتية هى التى استقطبت رؤس الكفر إلى الإسلام، رغم صلدهم وعنادهم ومنعهم لأبنائهم، ولغوهم فى القرآن، وليس إسلام عمر ببعيد عن الأذهان فبعد الرفض والعناد والصلف آتى القبول والانقياد والانضواء والهداية.

ونقرر هنا أن القوة الذاتية جاءت من كون الإسلام منهجًا إلهيًا؛ تقوم عليه سعادة البشر ومن كونه يرفض الأنظمة الباطلة، التى قامت على أساس عقائدى غير صحيح. وهكذا جاء القرآن العظيم يغرس فى قلوبنا بغض الكفر

وأهله، بعدم مودتهم، بل ومجاهدتهم، وألا نتخذ منهم بطانة، وعدم التشبه بهم ومخالفتهم، وكراهية أئمة الكفر والنفاق والضلال والإلحاد والغواية، وتحذير الناس منهم، وفضحهم، وكشف حقارة أغراضهم، ودناءة غاياتهم.

وفى المقابل نجد الحث على محبة المسلمين ومودتهم ، والرحمة بهم، وعدم ظلمهم، والذلة لهم، والتقرب إليهم، والوفاء لهم، وإيثارهم، وخفض الجناح لهم، والدفاع عنهم، واتباع أئمتهم.

* **المبدأ الخامس : النظرة للدنيا فى هذه الحضارة** ليس على أنها حياة مباحة مشاعة مطلقة من سائر الحدود، لإرضاء الشهوات، وتحقيق الآمال، وجمع الأموال، وليست هى الرهبانية المغللة بالسلاسل والقيود. ولكنها نظرة متوازنة؛ تجمع بين الدنيا والآخرة؛ فآمال الفرد الطامحة، وشتى رغباته وأمنياته إن تحققت له فى الدنيا، وتحققت له كل أنواع الراحة والهناء؛ فهذا يعنى أن هذه الحياة هى النهاية والمآل، ولكن ثمة حياة أخرى، فيها ما تقر به العيون، وتلذ به الأنظار، وتطرب له القلوب.

لذا فما فات المسلم فى الدنيا ينتظره رضوان الله يوم القيامة؛ فالآخرة هى الراجحة دائماً، لأنها هى الخالدة الباقية، وهى الحيوان ودار القرار. وهذا الفهم يدفع المسلم لبذل كل الجهد للعمل للآخرة، بالتزود بالتقوى، وقيام حياته على أسس إسلامية صحيحة.

ولذا يُحقر القرآن الكريم من شأن الدنيا ـ وكذلك الأحاديث النبوية ـ عندما نفهمها فهمًا خاطئًا فتكون فتنة ومتاعًا وغرورًا، ونجد أصداء ذلك فى كتب التراث، التى عنيت بالزهد، واعتباره نهجًا فى حياة المسلمين، والتقليل من قيمة الدنيا، والانفلات منها بالإقبال على الله، والشوق إلى الجنة، والعمل للآخرة، ومزرعة للغراس الصالح من العمل والأجر والثواب، وعندما نقابل ابتلاءها بالصبر واليقين، ولا نفرح كثيرًا بما تأتى به، ولا نأسى على ما فاتنا منها.

* **المبدأ السادس : روح الالتزام هى المسيطرة على هذا الدين،** فالإسلام روح وتشريع، وعبادة ومنهج، ودين ودولة، إنه يغرس فى أهله، ويُنشئ فيهم هذا الالتزام بالقانون الإلهى الشامل، والاستجابة الحقة[1] لأوامر الحق ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ [**الأنفال** : ٢٤].

ولا نعجب كثيراً عندما نقرأ فى تفسير الآية ٩٠ من سورة المائدة، والتى حرمت الخمر (فاجتنبوه) أن نجد الخمر وقد سالت فى سكك المدينة — بنفس تعبير أنس بن مالك — حيث أُهرق الشراب، وكُسرت القلال استجابة لأمره تعالى. وهذا هو التطبيق الحقيقى للالتزام. وتستطيع أن تجد له صوراً متعددة أخرى حيث يظل المرء صائمًا شهرًا كاملاً لارقيب عليه - بعد الله — إلا نفسه، فى ضوء إيمان قويم، ويقين بالاستجابة، وأحياء للمراقبة.

* **المبدأ السابع : الوحدة عنوان رئيسى لحضارة هذا الدين،** ويقصد بالوحدة هنا : وحدة الدين ﴿ **وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** ﴾ [**المؤمنون**: ٥٢]. ويمكن رصد هذه الوحدة فى دين الله فى ثلاث زوايا« وحدة المصدر، ووحدة الموضوع، ووحدة التسمية»[2].

أما وحدة المصدر؛ فتتمثل فى نزوله من لدن حكيم خبير، على لسان وحى ذى قوة عند ذى العرش مكين، بلسان عربى مبين ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ**

---

(١) تصديق ذلك نجده فى كتب الزهد، ونلمح هذه الكلمات الخالدة التى ذكرها صاحب كتاب (الأمالى ورواه الأصمعى إذ قال: بلغنى أن بعض الحكماء كان يقول «أنى لأعظمكم، وأنا كثير الذنوب، مسرف على نفسى غير حامد لها، ولاحاملها على المكروه فى طاعة الله عزوجل. قد بلوتها فلم أجد لها شكراً فى الرخاء، ولا صبرًا على البلاء. ولو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يحكم أمر نفسه، لترك الأمر بالخير، والنهى عن المنكر ولكن محادثة الإخوان حياة للقلوب وجلاء للنفوس وتذكير من النسيان - ثم قال : واعلموا أن الدنيا سرورها أحزان، وإقبالها إدبار، وآخر حياتها الموت.. فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله، ومنتظر غداً لايبلغه، ولو تنظرون إلى الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره».

(٢) رءوف شلبى : **دراسة فى مفهوم وحدة الدين**، سلطنة عمان، الندوة العلمية، (إصدارات مجلة الأزهر)، ١٩٨٨، ص ٧٤.

﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥] ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى:٢].

وأما وحدة الموضوع، فتتمثل فى مضمون الرسالة، التى جاء بها، وكونها تحمل دعوة التوحيد والهداية والاستقامة والطاعة ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠].

وأما وحدة التسمية؛ فالدين عند الله هو الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

* **المبدأ الثامن : العالمية أساس مكين لهذه الحضارة** : وقد استلهمت هذه العالمية أسسها وركائزها من الشريعة الإسلامية وحياة الرسول الكريم وأصحابه؛ فقد جمع هذا الدين بين القوميات المختلفة فى قالب واحد، فهذا سلمان الفارسى، وهذا صهيب الرومى، وهذا النجاشى، وهذا بحيرا الراهب، وهذا عبدالله بن سلام اليهودى. وهذه رسائل الرسول الكريم ﷺ لكسرى فارس، وقيصر الروم، ومقوقس مصر وغيرهم وهذه الأمصار - غير العربية - تفتح بكلمة الحق. وهذا تأكيد لهذه العالمية؛ التى تتأكد بدخول الكثيرين فى الإسلام يومًا بعد يوم، نافضين عن أنفسهم غبار الضلال؛ ممتدحين القيم الأصيلة الفريدة؛ التى يدعو إليها، والتى تكسبه خلودًا وثبوتاً واستمرارية، والتى وضعت فى إطار إنسانى متكامل.

وبوسعك أن تصحبنى إلى هرقل - عظيم الروم - ففى حديثه مع وفد التجارة العربية بزعامة أبى سفيان بن حرب، وما وجهه إليهم من أسئلة نلمس خلوصه إلى إدراك لتفرد هذا الدين، فقد خلص إلى أن أتباع الرسولﷺ من الضعفاء، وأنهم يزيدون ولايرتدون عنه، وأن رسول الله غير

متهم بغدر أو خيانة، وأنه لا يكذب، ويأمر بعبادة الله وعدم الشرك، وترك ما يعبده آباؤهم، وبالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

وما يعنينا هنا أنه ـ أى هرقل ـ توصل إلى استنتاجات منطقية بنبوة هذا النبى، وسمو دعوته، وأن رسالته عامة، وليست للعرب وحدهم، وهذا ما دعاه إلى القول [. . فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه حباً وتقديراً. .][1].

وإذا عُدنا من بلاد الروم، بعدما أنصتنا لهرقل، نجد الرسول الكريم يحارب كل عصبية وقبلية، ويؤاخى بين المهاجرين والأنصار؛ تأكيداً لمنطق العالمية فى القرآن الكريم ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾[الأعراف:١٥٨] ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ [إبراهيم: ١].

ونؤكد أن العالمية تتمثل فى صلاحيته للتطبيق فى كل أنحاء الأرض، دون بلد أو شعب أو أمم لها عاداتها وتقاليدها.

* **المبدأ التاسع :** الإنسانية، حيث رفع الإسلام من شأن الإنسان ـ على نحوما أشرنا ـ ورفع من كرامته ومعنوياته، ومنحه حرية الفكر والرأى. وحمله مسئولية فردية تجاه نفسه وغيره وشعور الفرد بالمسئولية يدفعه للعمل والإنتاج والعطاء.

والإنسان فى الشريعة جسم له مطالبه، وروح لها إشراقاتها، وشخصية لها قوامها واستقلالها. وهى لبنة فى بناء المجتمع المسلم، بما لها من حقوق، وما عليها من واجبات. وتتحقق سعادة الإنسان المسلم بالتوازن الطبيعى بين الجسم والروح معاً وفق ما بنيت عليه أحكام الشريعة الإسلامية.

---

(١) يمكن للقارئ الكريم الرجوع إلى نص ما جاء من حوار بين هرقل وأبى سفيان فى كتب السير وكتب الصحاح وشروحها، ومنها فتح البارى ج١، ص ٣٥ ـ ٤١

* **المبدأ العاشر** : يقرر الإسلام حقيقة مهمة فى مجال التعبد والفهم، **وهى أنه لا وساطة فى الإسلام** وأن معايير المفاضلة فى الدنيا لا تكسب أحداً ميزة عن سواه؛ وأن ليس لرجل الدين أية سيطرة روحية، وليس فى الإسلام توسل بأحد إلا الله سبحانه ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾[البقرة:١٨٦] . ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**﴾ [الإسراء:٥٧] . ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر:٦٠] .

وبهذا المبدأ قضى الإسلام على كل محاولات التوسط والدجل؛ التى كان يمارسها القساوسة، إيهاماً للناس بقدرتهم على إدخالهم الجنة، أو بيع قراريط لهم منها، وإعطائهم صك الغفران والتى مارسها قديماً بعض الدجالين[١] .

وعلى هذا النحو حرمت الشريعة الذبح لغير الله، والنذر لغير الله، ونهت عن التبرك بشجرة أو حجر، وعن الاستعاذة بغير الله، والاستغاثة بسواه، ودعاء غيره، ونهى كذلك عن إتيان الكاهن والتحذير من الطيرة والكهانة. والأدلة على ذلك لا تحصى، وهى تتواتر وتعضد بعضها مؤكدة النهى عن كل مظاهر التوسل والاستعانة بغير الله تعالى.

* **المبدأ الحادى عشر** : قيام حضارة الإسلام على **الإعلاء من شأن العقل،** واعتباره أكرم ما خلق الله، وأفضل ما يكتسبه المرء، وهو رشد يميز بين الهداية والضلال، وروية وبصيرة، وهو محور التكليف فى الشريعة، وضابط الوازع الأخلاقى. وقد حرمت الشريعة كل ما يذهب العقل، كما حاربت الخرافات والأساطير التى ليس لها واقع عقلى.

---

(١) لم يخل العصر الحديث من مثل هذه الدعاوى فى المجتمعات الإسلامية، لكن المفزع حقاً أن يتزعمها مثقفون، يسيطرون على عقول الناس، وما الدكتور بريقع -فى الآونة الأخيرة بالأسكندرية- عن الأذهان ببعيد!!.

« وبالعقلية العلمية كانت علوم المسلمين هى أساس الحضارات فى العصر الأول، وأخذت الحركة العلمية تتدرج فى أطوار مختلفة، حتى فتح المسلمون نافذة واسعة؛ أطلوا منها على حضارات العالم، وعرفوا المنهج الاستقرائى حق المعرفة، وانتقلوا من المعلوم إلى المجهول» [1].

ووفق المنهج الإسلامى فى العناية بالعقل وإقداره وحمايته، فقد دعا إلى تحرير العقل من الجهل الذى يجعل النفوس مُعرضة للزيف والبدع والخرافات، كما حرره من التبعية ، والحجر العقلى، وجعل البرهان أساس الإيمان الصحيح، وبين أن كل اعتقاد أو عمل لايقوم على دلائل وبراهين فهو مردود. وحذر من إتباع الهوى والانقياد الأعمى للأهواء والمغريات ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [**القصص**:٥٠].

* **المبدأ الثانى عشر : التعادل بين الفرد والمجتمع مبدأ مهم فى الإسلام،** وله تأثيره على استقامة حركة العلاقات والتوازن داخل المجتمع فى إطار الفهم الإسلامى الصحيح، فبالنسبة للفرد قرر الإسلام حرمة دمه وماله وعرضه، وقرر له حرية الرأى والفكر والتملك والعقيدة «وفى المقابل فرض عليه واجبات نحو المجتمع، منها أن يمارس حقوقه السابقة فى إطار مصلحة المجتمع، وبما لايتعارض مع حقوق المجتمع. وفرض عليه واجب حماية المجتمع، والدفاع عنه. فحريات الأفراد مقيدة برعاية أخلاقيات المجتمع[2]. والآداب الاجتماعية التى حث عليها الإسلام كالمصافحة وعيادة المرضى ومواساة المصاب، وصلة الأرحام، وإكرام الضيف .. إلخ. لا جانبها الفردى الذى يعمق الشعور الجماعى؛ الذى يتأكد بصور متعددة فى المحبة والإخاء والإيثار والتعاون على الخير، وتوحيد الكلمة، وجمع الصفوف وعدم التنازع والحقد والأنانية.. وهى كلها تلاقٍ للواجبات الفردية والجماعية والتوازن بينهما.

(١) أحمد عبدالرحيم السايح: العقلية العلمية فى الحضارة الإسلامية، الكويت، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٢١٦، ذو الحجة ١٤٠٢هـ، ص ١١٢.

(٢) محمد إبراهيم الخطيب : التعاون بين الفرد والمجتمع، القاهرة، مجلة منبر الإسلام، العدد ٦، السنة ٥١، جمادى الآخرة ١٤١٣، ص ص ٩٥، ٩٦

ومبدأ التعادل له مردوده على العلاقات السوية بين الأفراد داخل المجتمع، وصون حقوق الأفراد بما يحفظ للمجتمع تماسكه وقوته، وبما تحمى به الآداب للمجتمع، وتقوى العلاقات والصلات بين أفراده فى إطار سلوك اجتماعى سوى.

* **المبدأ الثالث عشر : الثواب والعقاب**، والجزاء والردع، والتدعيم والعقوبات هى تصور لفسلفة الإثابة للمحسنين، والعقاب للمخطئين فى الفكر الإسلامى القويم فالاعتداء على حرمة المجتمع هو هدم لكيان الأمة، ومقومات المجتمع، لذا عدت اعتداءات وجرائم جماعية وليست فردية. ولذا وضعت الشريعة حدوداً لجرائم العرض (الزنا)، وجرائم المال (السرقة)، وجرائم النفس (القتل) وهى كلها جرائم تمس حرمات المجتمع المسلم.

وقد نهانا القرآن عن إتيان الفواحش بكل صورها ﴿**وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**﴾ [**الأنعام**: ١٥١]. ونهى عن اتباع الشيطان ﴿**وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [**البقرة**: ١٦٨].

وفى كل جريمة مما تقدم يحدد القرآن الكريم وسائل العقاب والردع بالجلد (الزنا)، وقطع اليد (للسرقة)، والقتل (القصاص) بنفس الترتيب السابق - وهو جزاء يحفظ صورة الالتزام والاستجابة والردع لكل فئات المجتمع. وتأكيد لسلامة الإيمان وسلامة المجتمع.

ولايقف الأمر عند النهى عن الجرائم التى لها جانب عقابى (حد) بل نجد نهياً عن جرائم أخرى مثل أكل مال اليتيم، وعقوق الوالدين، وبخس الميزان، والغدر، والخيانة وهى جرائم فردية وجماعية كذلك.

بيد أن هناك جريمة فردية عظيمة؛ لها تأثيرها السيئ على الفرد والمجتمع وهى الشرك بالله تعالى (جريمة العقيدة) فهى الضلال البعيد، والإثم العظيم، والسقوط الحقيقى، الذى لا يستوجب المغفرة من الله تعالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ [**النساء**: ٤٨].

وحرص الإسلام على إقرار عقوبات للجرائم هو حماية للمعتدى من نفسه أولاً، وردعاً لغيره ثانياً، وحماية لكل المجتمع من السقوط والتدهور ثالثاً، وحماية لحرماته وقوامه رابعاً. واستقامة المجتمع وسلامته يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بوجود الوازع الدينى لدى أفراده؛ الذى يحول بينهم وبين الوقوع فى المنكر، ومقاربة الفواحش.

وتتسم الشريعة الإسلامية فى هذا الصدد بمواكبة النفس البشرية، التى لاتسلم من غلبة الشيطان عليها، والتى تأمر صاحبها بالسوء أحياناً، ومثل هذه النفوس تحتاج إلى ما يصدها ويزجرها ويخيفها بدل أن ينفلت زمامها، وتكون وبالاً على صاحبها وعلى غيره [1].

وكان أحد مصادر الثراء فى الحضارة الإسلامية أن أقامت توازناً بين العقاب والثواب فى ضوء فهم رشيد للنفس البشرية.

وبعد أن عرضنا للمبادئ السابقة، التى بنيت عليها حضارة الإسلام فإننا نقرر أن خلوصنا لتلك المبادئ إنما هو اجتهاد منا، ولايعنى ذلك عدم وجود مبادئ أخرى. إلا أن المبادئ السابقة - عندما نعيد التأمل فيها - نجد أنها متصلة ببناء المجتمع وكيانه مثل ربانيته - ربانية المجتمع - كمظهر لتمثل أفراده للإسلام، وإبراز هوية هذا المجتمع؛ الذى يتجه فيه الأفراد صوب السماء بعقيدة صافية، تدحض ماعداها من الخرافات والأباطيل والشوائب.

كما أنها وصف للدين، الذى قامت فى ضوئه الحضارة، فكونه ثابتًا وكاملاً يعنى تمام الرسالة وكمال الدين ووجوب التسليم والانقياد، وهذا

---

(١) المتأمل لجوانب الثواب والعقاب فى بعض الحضارات الحديثة، يجد أنها عُنيت بالثواب دون العقاب فكان لذلك مردوده السلبى على سلوك الأفراد، وفى بعض الحضارات القديمة نجد العكس، حيث التركيز على العقاب كمحك لاستقامة الأفراد. وأنت ترى أن ثمة خللاً فى الناحيتين، وأن القرآن عندما قرر أن النفوس منها الفاجر والتقى، ومنها الخبيث والطيب فإن كل واحدة تحتاج لنمط مختلف من التعامل.

يعطى الحضارة الإسلامية الثبوت والجلال. وكونه به قوة ذاتية كامنة فى روحانياته وتشريعاته فهذا يعنى سعة الانتشار، وكثرة القاعدة، وزيادة الداخلين إلى رحابة، الراغبين فى نوره، القاصدين لأبواب الخير فيه، الموقنين أنه لا رشد إلا به ولا استقامة بسواه، ولا صلاح للبشرية إلا بتعاليمه.

ونظرته للدنيا ليس على أنها حياة مباحة، وأنها ليست بباقية ، وأنها ممر لحياة أخرى أفضل يقذف فى قلوب المسلمين شوقًا لهذه الحياة الآخرة، دون أن ينسوا نصيبهم من الدنيا. إلا أن شهواتهم ورغباتهم ونزواتهم قد قُننت ورشدت بإيمان بأن مافات المرء فى هذه الحياة سيدركه يوم القيامة عند الله تعالى. وهذا يكسب الحضارة الإسلامية نقاءً وصفاءً وترشيدًا لسلوك المؤمنين، وتهذيبًا لشهواتهم، وحدًا لأهوائهم.

والعالمية والوحدة والإنسانية والتعادلية مبادئ قويمة ، لها إطارها الفلسفى المعرفى ثم إطارها التطبيقى السلوكى المتمثل فى كسر الإسلام لدوائر القومية والمحلية والعروج لمراتب العالمية باعتباره دينًا موجهًا لكل العالمين، وباعتبار مضامينه الحضارية والمعرفية ليست قاصرة على زمان أو مكان أو جنس. والمتمثل فى وحدة موضوعه ووحدة مصدره ووحدة التسمية بما يعنى انضواء الجميع فى بوتقة إسلامية واحدة، تكون فيها التسمية والمصدر ثابتاً . وهذا أمر ينبغى أن يكون له صداه فى حركة العالم الإسلامى ووحدته، وترابط عناصره، واتحاد رؤيته ومفاهيمه، وانصهاره بروح هذه الوحدة، ومفهوم الأمة الواحدة والمتمثل فى تكريم الإنسان بمظاهر عدة، وإعطائه حرية فى مجالات عدة، بما يتفق وقيم المجتمع وأخلاقياته. وهذا نرصده من خلاله إقدار هذا الدين للتفاعل بين الفرد والمجتمع ووضع ضوابط لقيم وأخلاقيات فردية وجماعية، لها تأثيرها على علاقة أفراده فهى حضارة متوازنة، مقدر للأفراد حقوقهم وواجباتهم فيها، ومُقَدرٌ للمجتمع أواصر تلاحمه وترابطه واستقامته.

والإعلاء من شأن العقل هو تأكيد للجانب الفكرى فى هذه الحضارة، وإشارة لضرورة اليقظة والانتباه وسلامة العقل والبعد عن كل مايخرجه عن رشده.. وبذا فإن دعوة القرآن الكريم للتفقه والتفكر والتدبر والتبصر والاعتبار كانت موجهة للمسلمين فى تفاعلاتهم الثقافية مع الحضارة الأخرى، ومن هنا نقرر أن الحضارة الإسلامية رغم أنها حضارة عطاء إلا أنها لا ترفض ماعداها من ثقافات،ولا تضع نفسها فى إطار مغلق، لا ينفذ إليه شئ، خوفًا على ما بداخله. ولكنها تستجيب وتتحدى فى ذات الوقت.

ومبدأ عدم الوساطة فى جانب العبادات والروحانيات يؤكد لك عنصر البهاء والتوحد فى حضارة هذا الدين، واستقام أسسه. فتنصيب بعض الناس لأنفسهم أو تنصيب الناس لهم كسلالم ووسائط لله تعالى أمر يجافى صفاء العقيدة، وينافى أصول التوحيد، وينقص من إيمان فاعليه إن لم يدخلهم فى دائرة الشرك. وعندما يلجأ الناس لمثل ذلك فهو نكوص لحياة الجهل والضلال وعود للقرابين والزلفى.

ومبدأ الالتزام كسلوك وتطبيق هو بيان لهوية منهج هذه الحضارة، التى لا تعترف بالكلام الأجوف ولا بالدعاوى والشعارات التى ليس لها نصيب فى أرض الواقع، ولكنها تؤكد على أن القول بلا عمل هو مقت عند الله، وأن الداعى إلى الخير ينبغى أن يكون أول فاعل له، وأن من الكذب أن يخالف عمل الإنسان قوله، وأن من الجهل والضلال أن يدعو الإنسان الناس لبر ثم ينسى هو نفسه. لذلك فإن حضارة الإسلام هى حضارة تطبيق واستجابة والتزام.

وقيام هذه الحضارة على إقدار الثواب والعقاب، وجعل حدود شرعية للجرائم، والنهى عن اقتراف الآثام. هو تجسيد لعناصر القوة والتحصين للمجتمع فى هذه الحضارة.فعندما تترك الأمور بلا وازع ولا مُرشد ولازاجر ولاعقاب هو نوع من الفوضى والهمجية وحياة الغابة. وبذا لا نتوقع للأفراد

إنتاجًا وإنجازًا، ولا للمجتمع تقدمًا ونموًا ولذا حرصت الشريعة على كبح جماح قوى الشر فى الإنسان، ومقاومة الشرود النفسى لديه. ووضع خطوط النفوس المتقابلة أمام تشريعات حادة، لاتقبل التخفيف أو التنازلات أو التوسط.

ومن خلال المعالجة المتقدمة نؤكد أن الحضارة الإسلامية حضارة أصالة وإنسانية وواقعية وشمول وعالمية والتزام وسلوك واستجابة وأن منهجها الإسلامى اتسم بالفطرية والكمال والثبات والصدق والواقعية.

ثامنًا : مسلمات فى حضارة هذا الدين :

جمع هذا الدين تراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فرسول الله ﷺ هو مظهر الوراثة الكاملة لكل الأنبياء والرسل ، والوحى الذى أنزله الله تعالى على رسوله فيه تصديق لما نزل به من قبل ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ﴾ [المائدة: ٤٨].

وفى مجال دراسة حضارة هذا الدين نرصد عدة مسلمات رئيسة، يجب أن تكون بمثابة قناعات وثوابت لدى المتعامل معها، ولدى كل مسلم، ولدى كل متأمل ودارس لها على النحو التالى : -

- الإسلام معيار **لايسع غيره،** ولا يقبل أن ينافسه غيره على النفس البشرية، وعلى الحياة البشرية فهو يعنى استسلام الفرد والجماعة والإنسانية لله تعالى : فلا معنى لأن نكون مسلمين ويُعطل الإسلام فى مجريات حياتنا، أو أن يبقى جزء من الإسلام معطلاً.

- الإسلام هو الصيغة الوحيدة للعقلية **العلمية الشاملة،** فقد أطلق للتفكير عقاله، وللتجريب مداه. وكل مايصل إليه الفكر السليم أو التجريب الصحيح معتمد إسلاميًا.

- الإسلام هو الصيغة الوحيدة **لتفجير طاقات الإنسان كلها** فى إطارها الصحيح، فالطاقة العقلية تُفجر فى التأمل والتجريب، والطاقة النفسية تفجر

فى أطرها الأخلاقية، والطاقة القلبية لها مداها فى عالم القلوب وفتوحاتها وملكوتها، وكذلك الطاقة الروحية، والطاقة الجسدية.

ومن ثم فالمسلم تنفجر طاقاته كلها، ويفجر طاقات الكون كلها بتوازن كامل يحقق للكون سلاما.

ـ الإسلام وحده الذى يعطى للإنسان **وضوح الرؤية والبصيرة**، بينما يطمس الكفر على القلب، ويرى الحق خطأ والخطأ صواباً، وكذلك المنافق، فهما يمشيان فى الظلام ويظنونه نوراً.

ـ الإسلام هو الصيغة الوحيدة للحق **الخالص فى هذا العالم**، والإنسان مكلف من الله تعالى بأنواع التكاليف، وما من شئ له علاقة فى هداية الإنسان وتبصيره إلا ذكرته النصوص النقلية.

ـ الإسلام وهو **الصيغة الوحيدة للعدل** فى الحكم أو المعاملة أو التوزيع، فالعدل صيغة للحكم فى الإسلام، وفى النظام الاقتصادى، وفى النظام الاجتماعى والعلاقات بين الأفراد.

ـ الإسلام هو **الصيغة الوحيدة للسلام الإنسانى**، والبعد عن القلق النفسى، والاضطراب، والحيرة القاتلة. وتقديم تفصيلات لسلام الإنسان مع نفسه ومع غيره، وسلام الأسرة والمجتمع، والسلام بين الشعوب.

ـ الإسلام هو التعبير **الصحيح والأصح للشورى كنظام للحكم وللحياة** وللأفراد، والشورية الإسلامية هى المظهر الوحيد السليم لأى ممارسة ديمقراطية خالصة.

ـ الإسلام هو الصيغة العليا الوحيدة **للحرية الإنسانية** بشتى صورها، حرية الرأى والفكر والعقيدة والتملك وفق ما أشرنا إليه[1].

ونخلص من رصدنا للمسلمات السابقة إلى أن دينًا بهذه الكيفية لابد أن

(1) سعيد حوى : من أجل خطوة إلى الأمام، القاهرة ، مكتبة وهبة، ١٩٧٩، ص ص ٤٠ -٥٢.

تكون له حضارته المتميزة، ويقدم النموذج الأعلى للإنسانية العليا، وسبل تقدمها وتكامل حركتها ضمن المسار الصحيح، حيث إن التقدم فيها يسير مترافقًا بعضه مع بعض، فالتقدم فى الماديات يرافقه تقدم فى السلوكيات. وأن الصيغة الكاملة للتصورات والسلوكيات والعقائد والتشريعات لا توجد إلا حيث يوجد الإسلام. وأن هدى الأنبياء كله جسد فى إرث هذا الدين، وأن البشرية لن تحط رحالها فى أمرها كله حتى تكون على بصيرة وعلم إلا باتباعها هدى الأنبياء؛ بعيداً عن دعاوى العلمية والعقلية[١].

وإذا كنا قد قدمنا مسلمات خاصة بحضارة هذا الدين، فإننا فى المقابل نقدم مسلمات أخرى فى مجال عواقب تركه وعدم الأخذ به والانسياق إلى ما سواه على النحو التالى : -

ـ الشعور بالخواء الروحى[٢]، والتعرض لغضب الله وعقابه، جزاء طبيعى لمخالفة تعاليمه حيث تنتشر الفاحشة، ويعم الفسوق، ويظهر الفساد، ويبتليهم الله ـ بلاء شر ـ بالأمراض مصداقًا لقوله ﷺ «ولم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم» [رواه ابن ماجة فى كتاب الفتن ــ ج٢ ص ١٣٣٣].

ــ تزيين الشيطان لهم سوء أعمالهم، وضلال سعيهم فى الحياة الدنيا ،

---

(١) من يقرأ هذا الكلام يحسب أن الواقع يناقضه، عندما يرى الحضارة الغربية وقد تفوقت وتقدمت دون أن تستند إلى شئ مما ذكرناه. ونحن نؤكد أن هذا التفوق ليس دليلاً على كمال حكمتها ورشدها ورجاحتها وسلامة منهجها، إذ أنه يعتمد على منطق الغاب، وإهدار القيم الأخلاقية، والانبهار بالقشور، وعبادة المادة، والشهوات العارمة. وأن هذا التقدم يخفى خلفه كوراث قيمية وأخلاقية لا حصر لها. وأن الإسلام يواكب التقدم ويساير التطور، ويسمو بالمرء، ويكسبه عزيمة وإرادة. وأننا نتفق مع الدكتور حسن الشرقاوى فى مؤلفه (نحو منهج علمى إسلامى) فى نعته للحضارة الغربية بأنها حضارة مادية عوراء! ترى الحقيقة من جانب واحد، ولا تعترف إلا بما تراه وتحسه وتجرب.

(٢) لعل من مظاهر هذا الخواء فى الحضارات الحديثة عدم وجود مكان للحياة الآخرة فى نظرتها وصياغتها الأخلاقية، وقطع وشائج الصلة بما وراء الدنيا، ولا مكان للالتزامات القيمية والإنسانية فى برامج حياتها، وطبيعى أن يحدث ذلك خواءً روحيًا لدى الأفراد.

وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [**الكهف** :١٠٣-١٠٤] .

– فقدان الأمن والأمان، وتفشى الجريمة والفوضى الخلقية والتفسخ الجنسى والقلق والاضطراب ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[**طه** :١٢٤] .

– اتساع عدوى الأمراض الروحية والجسدية أحد ثمار الحضارات والفلسفات المادية التى تقوم على أساس مجرد من القيم والمثل العليا .

– تفكك الكيان النفسى، والثنائية بين الفرد والمجتمع وتغليب الحاجات والطاقات، وتفجيرها فى المعصية .

إلى غير ذلك من مظاهر غضب الله تعالى، والضلال والشقاء[1] على نحو ما فصل القرآن الكريم فى إشاراته المتكررة لعاقبة المعرضين عن الحق، وراغبى الهداية فى غير منهج الله تعالى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ [**الطلاق** :٨-١١] .

ورصدنا المتقدم للمسلمات ـ الإيجابية ثم السلبية ـ لحضارة هذا الدين، ونهجه الفكرى والتطبيقى وبيان أن الضلال والزيف فى ترك نور الله تعالى، والتعلق بأهواء وضلالات بشرية، يأخذنا للإجابة عن سؤال ـ أجده مهماً فى نهاية تناولنا لقضية الحضارة – **وهو : ماواجبنا نحو حضارتنا!** .

---

(١) نحن لا نأخذ موقف التجنى والعداء من الحضارة الأوربية الحديثة، ولكننا نرصد ظواهر التردى، وأخطاء لها، تحدث عنها أبناؤها أنفسهم، وأنى الآن أذكر حقائق مرة، شاهدة على جرائم الغرب وخصوصاً تجاه الإسلام مما يشير إلى الاشمئزاز والخزى والحزن لدينا . .

تاسعاً : واجب المسلمين نحو حضارتهم:

ثمة قناعة ينبغى أن تستقر فى داخلنا، وتكون باعثاً لنا فى فهم أيدلوجية هذه الأمة، وهى ضرورة **الثقة فى ذاتنا، وأننا أمة ذات حضارة،** وذات رسالة خالدة لإسعاد الإنسان فى كل مكان، وأنه بفضل القناعة الإيمانية، والقدرات الكامنة فى هذا الدين، تستطيع الأمة الصمود مستلهمة رسالتها الخالدة، مدافعة عن موقعها، متطلعة لاستعادة توازنها. وأن المسلمين بامتلاكهم المنهج الربانى يصبحون أكثر عطاء وقدرة من جميع أصحاب المناهج البشرية. ولديهم من منهجهم ما يحقق لهم السيادة، متى استمسكوا به، وصمدوا فى الدفاع عنه، وحمايته.

وثمة ما نؤكد عليه، امتداداً للقناعات السابقة، وهو أنه بات واضحاً -على ألسنة وأقلام عدد كبير من كتاب الغرب ـ مدى حاجة البشرية إلى الإسلام «كمنقذ لها من الأزمة الحضارية التى تمر بها من جراء خضوعها للحضارة الغربية المادية الإباحية، التى تسير إلى الأفول، والتى عجزت كل أيدلوجياتها عن تحقيق الهدف الحقيقى للحضارات والأمم، وهو سكينة النفس، وطمأنينة القلب، والعطاء المادى والروحى الجامع المحقق للإنسان إنسانيته، وهو مالا يوجد إلا فى الإسلام وحده [١].

ولذا نجد أنه من العبث أن نبحث عن النهضة والتقدم فى غير ديننا، لأنه من أخطر ما يواجه أمة هو أن تنهزم فى فكرها، ومنهج حياتها أمام الحضارت الأخرى[٢].

---

(١) أنور الجندى : تأصيل الانتماء وترويج المتاهات، جدة، مجلة المنهل، العدد ٤٩٥، ذو القعدة ١٤١٢هـ ، ص١٤.

(٢) فى هذا الصدد يستوقفنا الشاعر محمد إقبال، راصداً خطورة هذا الانهزام الفكرى ـ الداخلى المعنوى ـ قائلاً «اعلموا أيها السادة أن من ثار على شخصيته وكرامته وفقد الثقة بنفسه مات، ومُحى من الوجود ومن فر من معسكره، وانحاز إلى صفوف الأعداء، وتطفل على مائدتهم عوقب بالهوان والشقاء إلا أنه لم يجن عدو على عدو مثل ماجنيتم أنتم -أى العرب والمسلمون- على أنفسكم، ولم يسىء أحد إلى أمته إساءتكم إلى أمتكم»

وهنا نجد أنفسنا أمام السؤال المتقدم وهو : **ماواجبنا نحو حضارتنا!**

١ - واجبنا أن نتعرف على **حضارتنا الإسلامية، وعلى خصائصها، ومقوماتها الذاتية،** ومتطلبات نهضتها، «بحيث نكون على بينة من الفرق بين ماهو مفيد لها، وما هو مضر بها، ويتم ذلك بعد الوعى الإيمانى؛ نستعرض فيه وقائع الأمم، وحياة الشعوب، وتجارب الدول، ونطلع منه على نماذج مفيدة للفرد والجماعة، تبين سنة الله سبحانه فى نمو الحضارات وانحدارها»[(١)].

٢ - علينا الإيمان **بفاعلية هذه الحضارة ومصدرها**، وأنها باقية أصيلة مستمرة باستمرار الإسلام الذى تم بناؤه، وتكاملت أركانه ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [**المائدة**: ٣] ويواكب ذلك الثقة المطلقة فيما قدمه القرآن الكريم من صياغة للحياة، وفيما قدمته حياة الرسول ﷺ من نموذج قرآنى تطبيقى فريد.

٣ - الوعى **بالذات المسلمة، وعدم الانبهار بالمظاهر المادية**، والتحول من الاستهلاك لتقنيات الغرب، إلى الإنتاج والعطاء ، أى إلى أمة منتجة فاعلة، تنطلق فيها طاقات الشباب المسلم، وتتكون الرؤية الذاتية فى الحكم مايؤخذ ومايرد، ورصد مواطن القوة والضعف فى الحضارات الأخرى وفق هذه الرؤية، التى لاترفض المدنية، وإنما تقبلها وقد تُحدث فيها تغييرات بما يتناسب مع حضارة الأمة المنبثقة عن عقيدتها[(٢)].

٤ - واجبنا أن نعنى **بثقافة هذه الأمة**، ولبنة حضارتها المعرفية، فكلما ازداد

(١) جميل عبدالله المصرى : فى الحضارة الإسلامية، جدة، مجلة المنهلة، العدد ٤٩٥، ص ٤٨.
(٢) مثال ذلك تجده فى فنون البناء والزخارف والفنون التى تعكس جانباً عقائدياً، ومثلها لايستورد كما هو، فلابد أن يطبع بالبصمة الحضارية العقائدية للأمة.

المسلم معرفة ازداد علماً وتبصراً بأفضل السبل إلى تحقيق المزيد من أسباب الأمن والتقدم والاستقرار.

٥ ـ واجبنا أن ندرك أن سبب **التأخر الذى عرض لهذه الأمة إنما كان لانصراف المسلمين** عن إسلامهم، عن حضارتهم. فعندما انحرفوا عن منهج الله استلب الله منهم أمانة العمارة والتمكين فى الأرض، واستودعها لدى غيرهم، ليس لأنهم أفضل أو أهل لذلك ولكنه تسليط من الله تعالى على الذين خانوا الأمانة، ونبذوا العهد، من أجل أن ينبههم ويعيدهم إلى الاستقامة والرشد.

٦ ـ واجبنا **مراجعة الذات، «والعثور على روحنا المتميزة** فى حضارتنا وسط هذا الخضم من الصراع الحضارى الذى نواجهه اليوم. وفى هذه الدعوة كثير من الفائدة من أجل توعية الصحوة المباركة التى يشهدها العالم الإسلامى إلى نحو ما هو أصيل ونبيل فى صميم حضارتنا. فبتجدد الإيمان ببناء حضارة مصدر فكرها الإسلام بالابتعاد عن البدع؛ يعود المسلم إلى دوره العالمى فى التبليغ والشهادة»[1].

٧ ـ واجبنا **الاستقلال الحضارى فى مجالات الثقافة والسياسة والآداب والتربية**، تأكيداً لأصالة ديننا وحضارتنا. والحذر من العقائد والسياسات المستغربة المستوردة؛ التى تهدف إلى القضاء على الشخصية الحضارية الإسلامية بدعوى وحدة الحضارات، وتشارك الأفكار والثقافات، ودعوى الإنسانية الواحدة والمركب الواحد!.

وأحسب أن القارى الكريم يخالنا قد بنيناً قصوراً من رمال فى الواجبات السبعة السابقة أوأننا حلقنا بأجنحة الخيال فإذا الواقع بخلاف ذلك، أو أننا قدمنا مثاليات قلّ أن تجد مَنْ يتمثلها إلا فى التصورات والرؤى.

---

(١) جميل عبدالله المصرى : المرجع السابق، ص ٥٠.

وأجدنى مختلفاً معك فيما يمكن أن تكون قد خلصت إليه، أو ربما يقذف فى روعك بشئ من ذلك ـ فالواجبات السابقة ليست مثاليات مفرطة فى الخيال، ولكنها رصد أمين فى توصيف حضارتنا، وبيان دورنا تجاهها. من خلال مراحل ـ يمكن استنباطها منها ـ تبدأ بالتعرف على أسسها ومقوماتها والوعى بها، وبالحضارات الأخرى[1]، ويتزامن مع ذلك إيمان بتميز هذه الحضارة وقوتها وفاعليتها والوعى بالذات المسلمة، والانتقال من الاستهلاك إلى الإنتاج، وتوجيه العناية للإرث الثقافى لهذه الأمة.

ـ وهذه المرحلة هى مرحلة تعرف ويقين ووعى وحركة وعلم وتبصر، وقبول ورفض.

ـ ثم تأتى مرحلة أخرى لدراسة أعمق لأسباب تخلفنا، وتركنا للريادة والسيادة.

ـ ثم تأتى مرحلة أخيرة نراجع فيها ذاتنا، ونرصد مجالات استقلالنا، وكيفية التعامل مع الحضارات الأخرى. وهذه المرحلة هى انطلاق لمرحلة أرحب، نعتز فيها بهذه الحضارة، ونسعى للإضافة والتجديد والإبداع.

تعقيب وتعليق:

ناقشنا فى هذا الفصل (مضامين الحضارة الإسلامية)، عدة قضايا، تثار فى قضية الحضارة، وقد رأينا أن نقدم ملخصاً له؛ تيسيراً للقارئ، وعوناً له على التقاط الخطوط العريضة للفصل.

---

(١) دراسة الحضارة الأخرى المقصود به هنا، التعرف على الجانب الخير فيها، ورصد ما يمكن الإفادة منها. فضلاً عن نوع آخر من الدراسة، يستهدف تجنب نواحى الشر فيها، وذلك فى المجالات الإنسانية والمعنوية، اتساقاً مع الفلسفة الصحابية فى ذلك التى نرصدها فى قول حذيفة رضى الله عنه «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركنى».. إلى غير ذلك من المأثورات التى تعضد ذلك.

ففى المبحث الأول : تناولنا قضية الحضارة، وأبرزنا أنها من أهم قضايا العصر، وعرفنا بالحضارة وجوانبها وعناصر ثبوتها وخلودها وكيفية تحقيق التوازن بين جانبيها المادى والمعنوى، ثم عرفنا بالحضارة الإسلامية ومرتكزات القوة فيها، وفاعلية الإنسان المسلم فى صنعها والحفاظ عليها. وكان لزاماً أن نفرق بين الإسلام كدين، وبين الحضارة الإسلامية كمضمون وناتج، وخلصنا من ذلك إلى تحديد دقيق لمصطلح (الحضارة الإسلامية) وإلى بيان للجانب العقائدى الربانى فى هذه الحضارة، ومعنى رابطة العقيدة ووحدتها.

وفى المبحث الثانى عرضنا لدور المسلمين فى صنع الحضارة، وأن الإسلام أرسى أسساً لحضارة راقية، انطلق بها المسلمون حاملين أنوارها ومشاعلها لكل أرجاء العالم. وبينا كيف أقبل الغرب على امتلاك رصيد حضارتنا من العلوم الطبيعية وعلوم التمدن المدنى فى مراحل تاريخية سابقة، ورغم ذلك فإنهم تحفظوا على أخذ الجانب الإنسانى والقيمى فى حضارتنا، حيث رفضوا أبرز خصائص الإسلامية وطابعها الدينى.

أما المبحث الثالث فقد حللنا فيه تطور الحضارة الإسلامية، وتفاعلها مع الحضارات الأخرى، وموقفنا من تلك الحضارات، إما بالرفض المطلق أو التبعية والذوبان أو التوسط بين ذلك. وهذه المواقف الثلاثة لها منطلقاتها ودوافعها مما عرضنا له بالتفصيل، وخلصنا منه إلى أن المسلمين لا يقبلون تغريب الحضارة وأن الاستعمار لم يستطع أن يذيب هذه الحضارة رغم ظواهر الطمس.

وفى المبحث الرابع قدمنا بعض مأثورات عن السلف تعكس جانب فهمهم لحضارتهم ورسالتهم، واستيعابهم لمضامين البناء والتواصل وعوامل الدفع والتقدم فى حضارتهم، ومن ذلك بعض عبارات لربعى بن عامر ووصف رسل المقوقس للمسلمين ، والفاروق عمر، وأبى عبيدة بن الجراح.. إلى غير ذلك مما توقفنا معه ورصدنا الروح الإنسانية والفهم الرشيد وتمثل القيم الإسلامية فى كل ذلك.

وأما المبحث الخامس فقد تناولنا فيه عدة ركائز أساسية للحضارة الإسلامية، وذلك فى الربانية، والإخاء، والشمول، والمنهجية العلمية والتطبيق، مع بسط القول فى (التطبيق) وصداه فى الحضارة الإسلامية، وعناصر التلاقى بين الإيمان والتطبيق. وخشية أعداء الإسلام أن تتحول علاقة المسلمين بدينهم إلى التزام وتطبيق وعمل وسلوك ومنهج.

وفى المبحث السادس عرضنا لخصائص الحضارة الإسلامية، التى بنيت على التوحيد، والتوازن، والوسطية وفريضة الجهاد، ونصر الله تعالى. ثم رصد خصائص أخرى مثل الشمول، والخلود، وموافقة الفطرة ورفع الحرج والتيسير.

أما المبحث السابع فقد بينا فيه طبيعة هذه الحضارة، وفصلنا القول عن مبادئها وأسسها والتى رصدناها - اجتهاداً - فى ثلاثة عشر مبدأً، ابتدأ من التوجه فيها لله تعالى وصفاء العقيدة، وبيان نظرتها للدنيا وللآخرة، وروح الالتزام فيها، وربانية هذا المجتمع، وقيام دينه على ثبات وكمال، ونبوعه من قوة ذاتية كامنة فيه. ومروراً بالوحدة كعنوان رئيسى لحضارة هذا الدين، وبالعالمية كأساس لها وبالإنسانية كمبدأ عظيم فى توازنها ورسوخها. وانتهاءً بإقرار عدم الوساطة فى الإسلام، والإعلاء من شأن العقل، والتعادل بين الفرد والمجتمع، ووضع ضوابط للثواب والعقاب ومواجهة الجريمة. ثم عقبنا على هذه المبادئ، ورصدنا الجانب التطبيقى لكل واحد منها.

وفى المبحث الثامن تناولنا مسلمات رئيسة فى حضارة هذا الدين، منها أنه معيار لايسع غيره، وأنه يقدم صيغة فريدة للعقلية العلمية الشاملة، ولتفجير طاقات الإنسان وللعدل والشورى وللحرية الإنسانية وللحق الخالص، وعناصر التميز فى كل ذلك. ثم قدمنا مسلمات مقابلة أخرى فى مجال عواقب تركه والتخلى عنه وعدم الأخذ به.

وفى المبحث التاسع والأخير خلصنا إلى الإجابة عن سؤال جوهرى : ماواجبنا نحو حضارتنا فذكرنا أن قناعات ينبغى أن تكون مُحركة لنا بأننا

أصحاب رسالة، وأننا أمة ذات حضارة. وأن المسلمين بامتلاكهم لمنهج ربانى لديهم ما يحقق لهم السيادة والتفوق. أما الواجبات فقد حصرناها فى ضرورة التعرف على أسسها ومقوماتها، والإيمان بفاعليتها ومصدرها، والوعى بالذات المسلمة وعدم الانبهار بالمظاهر المادية، والعناية بالجانب الثقافى والمعرفى فيها. ومراجعة الذات، والبحث عن أسس الاستقلال الحضارى.

وبعد أن ناقشنا قضية الحضارة الإسلامية، من حيث المضامين والأسس والركائز والخصائص والمبادئ والمقومات والمسلمات، وعناصر التطور والقوة والعطاء فيها .

فإننا سنعرض لعناصر البعث فى هذه الحضارة وذلك من خـــلال المنظور القيمى والأخلاقى لها فى الفصل التالى.

الفصل الثانى

المنظور القيمى والأخلاقى فى الإسلام كأحد مقومات البعث

أولاً : الجانب الأخلاقى ومضامينه فى الإسلام

ثانياً : تصنيف مفصل للمنظومة الأخلاقية فى الإسلام

القسم الأول : أخلاق أساسية فى البناء الاجتماعى والعلائقى للمجتمع المسلم.

القسم الثانى : أخلاق فرعية حميدة، يجب على المسلم اتباعها والعمل بها.

القسم الثالث : أخلاق ذميمة، ينبغى اجتنابها والبعد عنها.

ثالثاً : دراسة تحليلية لقضية العمل فى الإسلام من منظور البناء والبعث.

رابعاً : الجانب القيمى والاجتماعى للمال فى الإسلام.

المنظور القيمى والأخلاقى فى الإسلام

أولاً : الجانب الأخلاقى ومضامينه فى الإسلام :

الأخلاق ركيزة أساسية فى بناء المجتمع المسلم وصلاحه، وهى عنصر فعال فى تقويم شئون الحياة وبالطبع ليس ثمة تقدم فى أى مجال يفوق الرقى الأخلاقى والقيمى فى أى مجتمع، ولذا لا يُغنى أى تقدم فى مجالات الحياة المختلفة عن سمو أخلاقى متواكب مع ذلك. ولعل أحد أسباب الأزمة الأخلاقية التى يمر بها العالم أنْ جُعلت الأخلاق فى ذيل اهتمامات بعض الأمم.

وإذا كانت العقائد هى الركن الأسمى لجوهر الإسلام **فإن الأخلاق هى الركن التطبيقى لها**، مع عدم إغفال ركن العبادات والمعاملات، وهما لايخلوان من جانب قيمى وأخلاقى عظيم.

ولأن الإسلام يقوم أساساً على **الأخلاق الفاضلة الكريمة**، فقد عُد الثناء على أخلاقيات الرسول الكريم ﷺ أحد مسببات ودواعى تفضيله وتميزه **﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾**[القلم:٤] **﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾**[آل عمران: ١٥٩] ، وقال عن نفسه ﷺ : **« إنما بعثت لأتمم** مكارم الأخلاق»[١] وقال أيضاً : «مامن شئ أثقل فى ميزان العبد يوم القيامة من خلق حسن وإن الله ليبغض الفاحش البذىء»[٢] وقال: «البرُ حسن الخلق، والإثم ماحاك فى صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس»[٣].

ويستفاد من أحاديث أخرى أن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وأن من أحب الناس وأقربهم للرسول ﷺ أحسنهم خلقاً، وأن حسن الخلق من أفضل الخلق، ومن أكثر ما يُدخل الجنة، وإن العبد ليبلغ بحسن الخلق أشرف المنازل وأعظم الدرجات فى الآخرة.

---

(١) رواه مالك وأحمد وغيرهما بسند صحيح.

(٢) رواه الترمذى فى الجامع عن أبى الدرداء وقال : حديث حسن صحيح.

(٣) رواه مسلم عن النواس بن سمعان.

ولذا جاء الأمر بمخالقة الناس بالخلق الحسن، واعتباره أحد سمات كمال الإيمان، وأحد مسببات العلو فى الجنة، والفوز برضوان الله تعالى، وجعلها معياراً للمفاضلة بين الناس يوم القيامة.

وحرص الإسلام على إبراز **دلائل حسن الخلق** من حياء وصلاح وصدق وبر وصبر وشكر وحلم ورفق وعفة وصلة رحم واجتناب المحارم وكف الأذى والعدل والكرم والتواضع والتوكل والرحمة، وتجنب الصفات الرذيلة، كالظلم والحقد والحسد والبخل والرياء والعجز والغش(مما سنفصله فى تناول تالٍ).

وليس خافياً أن لحسن الخلق علامات، وهى كلها مرتبطة بالإيمان، فحسن الخلق من الإيمان بل هو الإيمان، وسوء الخلق من النفاق بل هو النفاق. وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين فى كتابه وهى بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق[١].

والمتأمل فى العبادات فى الإسلام يجد أنها ليست طقوساً مبهمة، وليس تكليفاً بلا معنى ولكنها تدريب للمسلم أن يحيا حياة أخلاقية صحيحة، وأن يظل متمسكاً بهذه الأخلاق، ومحافظاً عليها، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتبعد عن الرذائل، وتطهير من سوء القول وسوء العمل[٢].

---

(١) يُرجع فى ذلك لكتب الأخلاقيات الإسلامية، ومنها مؤلفات الإمام أبى حامد الغزالى، وبخاصة ملحض الإحياء فى (تهذيب موعظة المؤمنين للقاسمى حيث أفاض القول فى فضيلة حسن الخلق، ومذمة سوء الخلق وماقاله السلف فى ذلك، وبيان السبب الذى به يُنال حسن الخلق على الجملة وبيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق، والطريق الذى يعرف الإنسان به عيوب نفسه، وبيان تمييز علامات حسن الخلق، وثمرة كل ذلك فى سلوك المسلم وطرق التربية والسلوك ورياضة الأبناء خُلقياً وتأديبياً.

(٢) ثمة أحاديث كثيرة ، تعضد ذلك ومنها حديث البراز عن ابن عباس رضى الله عنهما عن الله عز وجل فى الحديث القدسى «إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى، ولم يستطل على خلقى، ولم يبت مصراً على معصيتى، وقطع النهار فى ذكرى، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ورحم المصاب».

والشئ نفسه فى الزكاة، التى فُرضت للتطهير والتزكية، وتنظيف النفس، وتوطيد العلاقات بين الأفراد، والتسامى بالمجتمع إلى مستوى أنبل وأعظم.

والصوم كذلك ليس حرماناً مؤقتاً ولكنه خطوة إلى حرمان النفس من شهواتها ونزواتها، فغايته التقوى، والبعد عن اللغو والرفث وترك قول الزور، فضلاً عن التزام خُلقى للصائم.

والحج ليس رحلة مجردة عن المعانى الخلقية، ولكنه ترك للرفث والفسوق والجدال، وتدريب على فعل الخير والإكثار من الطاعات والتزود بالتقوى.

ونخلص مما تقدم إلى أن العبارات مُوصِلةٌ إلى تربية خلقية، والتزام قويم، وتدريب على الطاعة والاستقامة، وتأكيد لأواصر العلاقة بين الدين والخُلق.

فالصلاة والصيام والزكاة والحج وغير ذلك من الطاعات هى مدارج للكمال، وروافد التطهر وتزكية للقلب، ونقاء للروح، وتقوية الصلة بالله تعالى.

ونرصد خطاً منهجياً فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية يصل بين **الإيمان والأخلاق**، فالحياء والإيمان قرناء، والإحسان إلى الجار من الإيمان[1]، وغير ذلك من الفضائل المرتبطة بالإيمان فالإيمان لا يكتمل ولا يكون حقيقة إلا بحسن الخلق، وحسن المعاملة مع الناس. فالإيمان والصلاح والأخلاق عناصر متلازمة متماسكة، والإيمان الحقيقى تبرز إفرازاته فى كلمة طيبة، وعطاء حسن، وإحسان إلى الناس . . الخ.

(١) نجد صدى ذلك فى قول الرسول الكريم ﷺ «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت» رواه البخارى. وقوله «والله لايؤمن، والله لايؤمن، والله لايؤمن. قيل من يارسول الله؟ قال : الذى لايأمن جاره بوائقه» رواه البخارى. وأنت ترى أن الإيمان قاسم مشترك فيهما.

وليس عجباً أن الرذائل تبعد المرء عن الدين الصحيح، وهى تأكيد لضعف إيمان صاحبها وفساد عمله. ومن هنا نرى العلاقة الوثيقة بين خُلق النفاق وبين هذه الأخلاقيات السيئة، والقبائح التى إن فعلها المرء أضحى منافقاً مثل الكذب فى الحديث، وخُلف الوعد، وخون الأمانة، وغدر العهد، وصلاته وزكاته وصومه وحجه لا يسقط عنه هذا النفاق السلوكى.

وعندما يُكثر المرء من المعاصى وإتيان المنكر فهذا تأكيد لضعف إيمان العاصى؛ الذى يُدمن المعصية ويألفها، ويغتر بالدنيا، وتضعف إرادة الخير عنده.. فيطبع الله على قلبه، ويدخل تحت لعنة رسول الله ﷺ، وتعمى البصيرة، ويمرض القلب، وتمحق البركة، وتُزال النعم، وتُنسى العبد نفسه، وتوجب القطيعة بين العبد والرب[1].

وبرؤية شمولية للأخلاق الإسلامية نجد أن الإسلام جاء لينقل البشرية خطوات فسيحة إلى حياة مشرقة بالفضائل والآداب، واعتبر المراحل المؤدية لهذا الهدف النبيل من صميم رسالته، وعدّ الإخلال بهذه الوسائل خروجاً عليه، وابتعاداً عنه.

«فليست الأخلاق من مواد الترف؛ التى يمكن الاستغناء عنها، بل هى أصول الحياة التى يرتضيها الدين. وقد أحصى الإسلام الفضائل، وحث أتباعه على التمسك بها واحدة واحدة. ولو جمعنا أقوال صاحب الرسالة ﷺ فى التحلى بالأخلاق الزكية لخرجنا بسفر لايعرف مثله، لعظيم من أئمة الإصلاح[2] ولوجدنا سيلاً متدفقاً من القيم العظيمة، وتواصلاً حقيقياً بين الناس وخالقهم، وبين الناس والناس.

(١) فى كتابه **(الداء والدواء)** رصد ابن قيم الجوزية رحمه الله ـ أضرار الذنوب والمعاصى، وأثر ذلك على العاصى، ومايلحق به من عقاب فى الدنيا والآخرة. وربط العلاقة بين الذنوب والإيمان، وبين سوء الخلق وضعف اليقين.

(٢) محمد الغزالى : خلق المسلم، القاهرة، دار الدعوة، ١٩٩٠، ص ١٧.

ولوجدنا أن من بين معايير المفاضلة بين المسلمين حسن خلقهم، وكرم طبيعتهم.

ومن شأن الحفاظ على الأخلاق فى أمة أن يضمن لها بقاءها وازدهار حضارتها، واستدامة منعتها، ودوام ملكها. وأن زوال الأمم وكيانها يتأتى من بعدها عن منهج الله ومقارفة الآثام[١]. وتستمد الأمة مكانتها وسموها بتمثلها للصفات العالية، والأخلاق الكريمة وبنقصان الفضائل فى أمة ينقص قدرها، ويتبدى انهزامها الخلقى.

وتفقد الشخصية الإسلامية بعض قوامها، وكثيراً من جمالها، وتناسق سلوكها عندما تفقد بعض أخلاقها. وعندما يقع التفريط فى البناء الخُلقى للأمة يهتز بناؤها وميزانها. ولذا فإن إحياء الأخلاق الإسلامية هو عودة لحياة السلف ونهج الصحابة.

فبهذه الأخلاق فتح المسلمون البلدان، متسلحين بحسن الخلق، رحماء وأمناء على النفوس والأرواح والأموال؛ بعيدين عن الظلم والنهب والسلب، محافظين على العدالة والتسامح والعدل والعفو والحلم وسعة الصدر. فضربوا المثل الطيب للبلاد التى فتحوها؛ فأقبلوا على الإسلام دون إكراه أو إجبار على ذلك[٢].

---

(١) يؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة؛ فالأمم السابقة كان سوء خلقها وإتيانها المنكر ومخالفتها لأمر الله سبباً لهلاكها ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾[الأعراف: ١٦٦]. ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾[الذاريات: ٤٤]. ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾[الطلاق: ٨]..

(٢) شهد بذلك مؤرخو الغرب وكُتابه، ومنهم (السيرتوماس أرنولد) فى كتابه (الدعوة الى الإسلام) حيث ذكر أن المسلمين أقاموا دولة العدل وانصفوا المظلومين من المسيحيين فى البلاد المفتوحة، لذا اعتنق كثير من المسيحيين الإسلام بدافع من أنفسهم، وبمحض إرادتهم، وذلك لإعجابهم بالدين الإسلامى ولسماحته ومنطقيته ودعوته للأخلاق الحميدة، ومسالمته لأصحاب الديانات الأخرى إلى غير ذلك مما ذكر، مستشهداً لذلك بوقائع محددة تؤكدها ما اقتبسناه.

ونقرر هنا أن الإسلام فى **تأصيله لقواعد الأخلاق**، وفى عنايته بالبناء القيمى للمجتمع؛ ينطلق من مسلمات أساسية فى ذلك؛ منها أن صلاح المجتمع المسلم مرتبط بالتزام أفراده بهذه الأخلاقيات، وأن جزءاً كبيراً من مضامين الريادة لهذه الأمة مرتبط بذلك. ولننظر لقوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [**آل عمران**: ١١٠]، فخيريتها مرتبطة بأحد هذه الأخلاقيات المميزة لهذه الأمة، فعندما تؤدى شرط الله ـ فى هذه الأمة - استحقت هذا الفضل والسبق. وأن الشريعة انفردت عن غيرها بتقديم تفصيل واف لكل خُلق إسلامى، ولتطبيقاته، مما لا نجد له نظيراً فى الشرائع الأخرى، بل وفى تراث الأمم وسجل مؤلفاتها[١].

ورغم عناية الإسلام بالأخلاق، ودعوة الأمة لذلك؛ إلا أن ثمة انفصاماً واضحاً فى سلوك المسلم، حيث يخالف سلوكنا ما أمرنا به الإسلام. وتجد ذلك فى المعاملات والسلوكيات، التى لاتعبر عن التزام صحيح بالجانب الأخلاقى. وتجد كذلك عنايةً بجانب منها، وتفريط فى الآخر.

فالمسلم قد يؤدى فرائض دينه ولكنه لا يجد غضاضه فى أكل الربا أو الغش فى التجارة أو شرب الخمر أو اقتراف معصية أو عدم تقديم العون لأخيه المسلم. مما يحدث انبعاجاً وعدم توازن فى البناء القيمى والخلقى فى المجتمع المسلم.

وعندما تتدخل الأهواء فى تطبيق هذه القيم، وعندما تخضع للتبديل والتغيير فإن ثمة مفاسد ومضار تنتج عن ذلك، منها «إشاعة الفوضى، وفقدان الأنظمة، واضطراب الأحوال، وتسلط القوى، وظلم الضعيف، وإثارة القلاقل، وعدم الطمأنينة، وانعدام الأمن» [٢].

---

(١) أفرد علماء المسلمين مؤلفات للأخلاق وتطبيقاتها، وجعلوا لمباحث الأخلاق علماً مستقلاً له دراساته، لذا حفلت المكتبة الإسلامية بقسم عظيم لكتب (الآداب الشرعية أوالأخلاق) ودراسة العلاقة بين التشريعات الإسلامية والأخلاق.

(٢) وهبه الزحيلى : القيم الإسلامية واتباع الهوى، الكويت، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٢٣٢، فبراير ١٩٨٤، ص ١٣ ومابعدها.

وفى المقابل نجد أن الالتزام بهذه القيم والبعد عن الأهواء، هو سبب لتوفير السعادة والراحة، وتحقيق للأمن والأمان، وحفاظ على الكرامة، وحماية مصلحة الإنسان.

ولن تقوم نهضة حقيقة لهذه الأمة إلا بالتزام دقيق وتطبيق صحيح لقيم الإسلام الخالدة، التى اتسمت بسمو غايتها، ووسطيتها واعتدالها، ورعاية مصلحة الفرد والمجتمع وتحقيق الخير العام للإنسان. واتسمت كذلك بتجاوزها حدود المحلية إلى كونها قيماً كبرى واجبة فى كل زمان ومكان. وكونها قيماً عامة لكل الناس دون مجتمع أو جنس . ثم أنها خالدة، ومستمدة من شريعة خالدة، ذلك الخلود القائم على المبادئ الكلية والقواعد الشاملة، والضوابط المرنة. كما أنها منسجمة مع الفطرة الصحيحة وأصالة الإنسان السوى، ونقاء جوهره ومادته.

ومنطلقنا فى معالجة قضية الأخلاق فى الإسلام التأكيد على أن المضامين القيمية والأخلاقية عندما افتقدها المسلمون فى حياتهم، وعندما غيبوا بعضها، وأخذوا ببعضها كان ذلك أحد أسباب تخلفهم. ونعتقد اعتقاد دين أن عودة المسلمين إلى نبعها الصافى وإلى الفهم الصحيح لتطبيقاتها يمثل بداية بعث حقيقى لهم.

ونجدنا فى حاجة لرصد بعض الأخلاقيات الإسلامية الأساسية؛ التى تمثل محاور لهذا البعث، والتى سنخلص منها إلى التطبيقات الصحيحة لها، وأثر ذلك فى حياة المسلمين، وهذا ماسنعرض له فيما يلى:

ثانياً: تصنيف مُفصل للمنظومة الأخلاقية فى الإسلام:

أشرنا فيما تقدم إلى النسق الخلقى فى الإسلام، والدعوة إلى حسن الخلق بعامة كصفة للمسلم. وامتداداً لذلك سنُفصل الحديث عند كل خلق إسلامى، ينبغى أن يتصف به المسلم، ويكون خليقة له.

وباستلهامنا لروح النصوص الدينية نخلص إلى تصور للأخلاق الأساسية فى الإسلام، متمثلاً فى أقسام ثلاثة وهى :

القسم الأول : أخلاق أساسية فى البناء الاجتماعى والعلائق للمجتمع المسلم.

القسم الثانى : أخلاق فرعية حميدة، يجب على المسلم اتباعها والعمل بها.

القسم الثالث : أخلاق ذميمة، ينبغى اجتنابها والبعد عنها.

وسنتناول كل قسم منها بالشرح والتفصيل فيما يلى :

القسم الأول : أخلاق أساسية فى البناء الاجتماعى والعلائقى للمجتمع المسلم:

ثمة أخلاقيات إسلامية موجهة نحو المجتمع، والتقريب بين أفراده، وصهرهم فى إطار إسلامى؛ يحكم حياته؛ ويكون سلوكاً لهم. ورغم أنه من الصعب أن نفصل الأخلاق الفردية لكل مسلم عن الأخلاق الجماعية، إلا أن ما نقصده هنا هو الأخلاق ذات الجانب الاجتماعى، أى التى يؤديها المسلم ويمتد أثرها النفعى والمعنوى إلى غيره. وانْ أخذ بها فى مجتمع ما فإنه يكون قد تخلق بالأخلاقيات الإسلامية، ويكون أدخل فى دائرة المجتمع القرآنى النبوى، الذى يجعل من الإسلام حركته وعلاقته وسبيله.

ويمكن لنا أن نُجمل هذه الأخلاقيات، مفصلين القول عنها فيما يلى :ـ

١ ـ **التحاب فى الله تعالى :** تتحقق المحبة فى الله عندما تكون خالية من الغرض، وإنما تكون بالتواصى بالحق والصبر والتعاون على الخير والذكر والدعوة والعلم[1] ويكتمل إيمان العبد عندما يحب لله ويبغض لله، ويجد العبد حلاوة الإيمان عندما لايحب المرء إلا لله تعالى، ويستظل العبد بظل الله يوم القيامة بمحبته لأخيه فى الله تعالى. والمتحابون فى جلال الله يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، ويكونون على منابر من نور، ولذا وجبت محبته تعالى للمتحابين فيه والمتزاورين والمتبازلين فيه.

---

(١) يؤكد ذلك قوله تعالى عن موسى -عليه السلام - عندما دعى الله تعالى أن يجعل له هارون وزيراً، مبيناً الهدف من ذلك ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ [طه: ٣٣، ٣٤] . وقوله تعالى عن المؤمنين ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر :٣] .

وثمّ وسائل تحقق التحاب فى الله مثل التزاور فى الله تعالى، وإفشاء السلام، والتصادق فى الله، والتودد فى الله تعالى، والتواصى بالخير للمسلمين، والتعاون على تقوى الله وطاعته، والنصح والتذكير لله تعالى. وعندما يصل المسلم لمنزلة المتحابين فى الله فإنه يدخل فى دائرة قوله ﷺ «إن من عباد الله أناساً ماهم بأنبياء ولاشهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله؛ فقالوا: يارسول الله تخبرنا من هم؟! قال : هم قوم تحابوا بروح الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها. فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لايخافون إذا خاف الناس، ولايحزنون إذا حزن الناس. وقرأ ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢][١].

وهم كذلك عن يمين الرحمن ـ وكلتا يديه يمين ـ يوم القيامة وقال عنه الرسول الكريم ﷺ «جماع من نوازع القبائل؛ يجتمعون على ذكر الله؛ فينتقون أطايب الكلام كما ينتقى آكل التمر أطايبه»[٢] وتأكيداً للمعانى السابقة، وإعلاءً لشأن التحاب فى الله، وتلاقى المسلمين على هدف واحد، وللتقريب بينهم فإننا نرصد جانباً مهماً فى أحاديث الرسول ﷺ «يشير لذلك، منها قوله: «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه[٣] أى ليقل له : أنى أحبك فى الله، فيقول له أخوه: أحبك الله الذى أحببتنى له. ومنها قوله ﷺ «أن رجلاً زار أخاً له فى قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته ملكاً «إلى قوله «إن الله قد أحبك كما أحببته فيه»[٤].

والذى نؤكد عليه أنه بالتحاب فى الله تعالى، بتحقيق معانيه السابقة، فإن المجتمع المسلم تتآزر علاقاته وروابطه وفق منهج الله تعالى، ويتحقق مفهوم

---

(١) رواه أبو داود عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ ورواه النسائى وابن حبان عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) رواه مسلم فى كتاب الإمارة عن أبى بكر رضى الله عنه.
(٣) رواه أبوداود والترمذى عن المقدام رضى الله عنه.
(٤) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

الجسد الواحد، وتتجسد مشاعره فى اتجاه واحد وتنصب روافد أخوته فى معين التواصى بالخير، والتواصل فى حب الله، والتلاقى على طاعته.

٢ ـ **الإيثار :** يقول الله تعالى مادحاً الأنصار بالمدينة ،الذين يؤثرون غيرهم من المهاجرين على أنفسهم ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩]

فالإيثار سمة للمسلم؛ فمتى رأى محلاً للإيثار آثر غيره على نفسه، وفضله عليها، فقد يجوع ليشبع غيره، ويعطش ليروى سواه، بل قد يموت فى سبيل حياة الآخرين[١] انطلاقاً من معانى الكمال، وحب الفضيلة، والجميل، مما يكتسبه المسلم، وتتشبع به روحه.

وعندما يفعل المسلم ذلك فإنه يتأسى بأخلاق الرسول الكريم وصحابته، الذين طبقوا هذا الخُلق العظيم، واستمدوا ذلك من ينابيع الحكمة، وخاضوا فى أنوار الهدى، فالمسلم عندما يحيا لله تعالى ويصل نفسه بالسماء، فإن الدنيا عندئذ ستصغر فى عينيه، فطبيعى أن يحب الخير لغيره ويؤثر غيره من المسلمين على نفسه، لأنه سيجد عند الله ما هو أعظم من ذلك وأبقى وأفضل.

وأنت تجد السمو والعظمة فى حث الإسلام على عطاء المسلم لغيره، فإيمانه الحقيقى لايتأتى عندما يبات شبعاناً وجاره جائع، ولايتحقق كذلك إلا عندما يحب لأخيه ما يحبه لنفسه.

---

(١) فى الأدبيات الإسلامية نماذج عدة لذلك، منها فداء على بن أبى طالب رضى الله عنه للرسول الكريمﷺ فى حادث الهجرة، عندما نام على فراش الرسول ﷺ ضاربا أروع المثل فى الإيثار والتضحية. وفى موقعة اليرموك نشاهد مشهداً مؤثراً لثلاثة من المجاهدين، يؤثر كل منهم الآخر على نفسه فى شَربة ماء، ويموت الثلاثة [الشهداء الأبرار] مقدمين أعلى مثال فى الإيثار وتفضيل الغير على النفس. وقدم الصحابة أمثلة فريدة لذلك، ونتذكر هذا الصحابى الجليل الذى آثر ضيفه على نفسه وأهله، وأوهم ضيفه أنه يأكل معه بعد أن أطفأ السراج وقد عجب الله من صنيعه كما أخبره رسول الله ﷺ بذلك.

وفى المجتمع المسلم ينتهج الأفراد نهج صحابة رسول الله ﷺ، مؤثرين غيرهم من المسلمين على أنفسهم، متغلبين على شُح النفوس، وموقنين بعظم الأجر والثواب عند الله تعالى. وتجد صدى ذلك فى علاقة المسلم بأخيه، حيث روح الإيثار والحب والرغبة فى الخير، مما يقوى أواصر القربى والقوة فى المجتمع، ومما يبرز هويته الروحية وسمو الوازع الدينى فيه، وقوة الخير فيه، وعظمة هذا المجتمع عندما يتشرب أفراده هذا الخلق العظيم، ويكون سلوكاً لهم، وجزءاً من تكوينهم القيمى.

٣ ـ **الإخاء** : تستمر الأخوة فى الله إذا كانت على تقوى وهداية ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾ [**الزخرف**:٦٧]. ومسايرة لفطرة الله تعالى، الذى خلقنا شعوباً وقبائل، وجعلنا أمماً، وجب التقارب لا التباعد، والتعارف لا التنافر، والترابط لا التفكك، والتآخى لا التعادى.

وفى المجتمع المسلم حيث يجتمع الكل على عقيدة واحدة؛ فالتعارف يكون إعزازاً وتجديداً بين الخلق، والأخوة الخالصة تكون مؤلفة بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، وتجعلهم وحدة راسخة البناء «وهذه الأخوة هى روح الإيمان الحى، ولباب المشاعر الرقيقة التى يكنها المسلم لإخوانه، حتى إنه ليحيا بهم ويحيا لهم، فكأنهم أغصان انبثقت من درجة واحدة أو روح واحد حل فى أجسام متعددة»[١].

ويقدم الإسلام آداباً شاملة من شأنها تقوية الإخوة الإسلامية مثل عدم ظلم المسلم لأخيه المسلم، وعدم احتقاره، ونصرته، وحرمة دمه وعرضه وماله، والتبسم فى وجهه، وتأدية حقوقه عليه مثل أن يعوده إذا مرض، وأن يجيبه إذا دعاه، وأن يشهده إذا مات، وأن يرد عليه السلام، وأن يشمته إذا عطس، وأن

---

(١) محمد الغزالى، خلق المسلم، مرجع سابق، ص ١٧٤.

ينصح له. وأن يكون أليفاً لإخوانه، مألوفاً لديهم، ليناً ولطيفاً وسهلاً، وألا يخدعهم أو يمازح معهم بغير الحق، وألا يخلف معهم الموعد، وألا يخونهم، وألا يكذب عليهم، وألا يتعالى عليهم ويجسد الرسول الكريم ﷺ الصفات الذميمة، التى تحول دون الأخوة الصحيحة، فيقول «لاتقاطعوا ولاتدابروا، ولاتباغضوا، ولاتحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»[١] ويجسد كذلك واجبات المسلم نحو أخيه، فيقول «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه. من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة»[٢].

والإقرار بحقوق المسلم والقيام بها تحقيق للمشاركة فى الخير والشر، ومحبة النفع للمسلم، والاجتهاد فى عونه، وتقديم المساعدة، التى يحتاج إليها المجتمع لإرساء أركانه، وصيانة بنيانه، الذى لايكون قوياً إلا بذلك. فبفعل أخوة الدين يكون المسلم ظهيراً وسنداً لإخوانه، وناصراً لهم، وراشداً لمن ضل، ومُذكراً لمن غفل، وآخذاً له حقه إذا ظُلم، وغارساً للطمأنينة فى قلبه[٣].

وفى المجتمع المسلم تقوى أواصر الأخوة، ويلتقى الجميع على شعائر الإسلام، ويقوم إخاء العقيدة الذى أقام به الرسول دولته ـ مقام إخاء النسب، حيث تعلو رابطة العقيدة، وترتفع فوق إخاء النفع والدنيا، وتسمو عن كل نفع، وتستمد قوتها من مفهوم الجسد الواحد.

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد وأبوداود عن أنس رضى الله عنه.

(٢) رواه البخارى ومسلم عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما.

(٣) فى كل تعاليم الإسلام تجد هذه الروح، التى ترعى الإخاء، وتنبذ العصبيات والشقاق، وتحافظ على نفسية مؤمنة هادئة، لاتتعرض لقلق أو إيذاء من مسلم آخر.. وتجد ذلك واضحاً فى قول الرسول الكريمﷺ لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً» وقوله «من نظر إلى مسلم نظرة يخيفه فيها بغير حق أخافه الله يوم القيامة» وقوله «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهى، وإن كان أخاه لأبيه وأمه».

٤ ـ **التسامح :** لايشك أحد فى أن التسامح سمة لازمت الإسلام منذ نزل الوحى وحتى الآن، فقد تأكد لكل ذى عقل أن الإسلام دين يدعو للتسامح، وأكدت ممارسات الرسول ﷺ ذلك ، كما تنطق صور التاريخ الإسلامى بأن المسلمين تميزوا بسماحتهم، وارتفاع رصيدهم فى العفو والصفح والرفق.

والتسامح ــ فى تصورنا ــ خلق متعدد الاتجاهات، حيث لا يقتصر تسامح الفرد على نفسه كخُلق الصبر مثلاً ولكنه يمتد للآخرين، وينتقل من إطار الفردية إلى الجماعية، ومن هنا كان التسامح من الأخلاقيات المميزة للمجتمع المسلم فى داخل بنائه، وفى علاقته بغيره من المجتمعات الأخرى (ما لم يكن فى ذلك إسقاط لحق مقرر للمجتمع المسلم).

والمتأمل للقرآن الكريم يجد الدعوة للعفو والصفح ﴿**فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**﴾ [البقرة: ١٠٩]. ﴿**وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [**التغابن**: ١٤]. . إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تحث على ذلك [(١)] والشئ نفسه فى أدب النبوة؛ حيث تلمس ذلك فى صفح الرسول عن قومه بعد فتح مكة، وفى عفوه عن الأعراب الغلاظ، وفى تسامحه مع كبير المنافقين عبدالله بن أبى بن سلول.

وتأكدت سماحة المسلمين فى فتوحاتهم الإسلامية، وفى معاملة غير المسلمين، والإحسان فى معاملتهم، والتسامح مع الأرقاء، ومع أسرى الحروب، مما لا نجد له نظيراً فى الديانات الأخرى.

والذى نخلص إليه ـ تطبيقياً ــ أنه بتسامح المسلمين فإنهم يقدمون صورة صحيحة لدينهم، وهذا يفتح باباً عظيماً للدخول فى الإسلام. وأن الالتزام بهذا

---

(١) لمزيد من الشرح يشار إلى بحث منشور للمؤلف تناول (التسامح فى الإسلام . . وأثره فى حياة الأمة) ١٤١١هـ وعرض فيه لمعنى المصطلح فى القرآن الكريم، وتطبيقاته فى الأدب النبوى الشريف، وفى معاملة غير المسلمين، ومع الأرقاء، ومن الحروب الخ ثم ناقش فاعلية التسامح فى حياة الأمة الإسلامية.

الخُلق هو بُعد عن دوائر الشقاق والخلاف، والسمو بالأفراد فوق التوافه، وتجاوز الصغائر، وهو اقتراب من تطبيق روح الإسلام فى حياتنا وعلاقاتنا.

٥ ـ **رد المعروف:** حثاً على الخير، وتعزيزاً لمن يصنع معروفاً أن يُكثر من فعله، فإن ديننا يأمرنا ليس بعمل المعروف فقط، بل أن نُحسن إلى من فعل ذلك، وأن نُرد له ذلك بأية وسيلة متاحة وفى ذلك جاء قوله ﷺ «من سأل بالله فأعطوه، ومن استعاذ بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه؛ فإن لم تجدوا ماتكافئونه فادعوا له، حتى تروا أنكم قد كافأتموه»[١].

وذلك لأن المكافأة على المعروف من المروءة التى يحبها الله ورسوله، «ولايهمل المكافأة على المعروف إلا اللئام من الناس، وبعض اللئام يكافئ على الإحسان بالإساءة؛ بخلاف أهل التقوى والإيمان فإنهم يدفعون السيئة بالحسنة، طاعة لله ومحبة لما يحبه ويرضاه»[٢].

وتدرجاً فى رد الجميل، وتيسراً على الناس، نُدب إلى الدعاء فى حق من لم يجد المكافأة العينية مكافأةً للمعروف؛ فيدعو له على حسب معروفه، وبما يتناسب مع ما قدم.

وما المجتمع المسلم يزداد الخير وينمو عندما يبقى حياً ويقظاً ومستمراً، وعندما لاينساه أهله، وساعة أن يرد الجميل بالإحسان، فإن هذا يُرضى من فعله، ويجعله أكثر عطاءً وعوناً، وهذه سمة تميز المجتمع المسلم، الذى يتواصل أفراده برد المعروف لصانعيه.

---

(١) رواه أبوداود والنسائى عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما.

(٢) عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ : فتح المجيد (شرح كتاب التوحيد)، تحقيق محمد حامد الفقى، لاهور، أنصار السنة المحمدية، ب.ت.ص ٤٥٨.

٦ـ **قضاء حاجة المسلم :** اختص الله تعالى بعض عباده بقضاء حوائج المسلمين، وهؤلاء فى منزلة عظيمة، تعدل الجهاد فى سبيل الله؛ وهذا ما تؤكده أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ «إن لله خلقاً اختصهم بقضاء حوائج الناس؛ يفزع الناس إليهم فى حوائجهم أولئك الآمنون من عذاب الله»، وقوله: «ان لله خلقاً خلقهم لقضاء حوائج الناس، آلى على نفسه ألا يعذبهم بالنار، فإذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور»، وقوله ﷺ «لأن أمشى فى قضاء حاجة أخى أحب إلى من أن أعتكف فى مسجدى هذا».

والذين يقومون بحوائج المسلمين هم أنفع الناس وأحبهم لله تعالى، وذلك لما لهم من فضل وسبق، ولذلك كان الله تعالى فى عونهم، وييسر لهم، ويقضى عنهم ماداموا يقومون بذلك، فإن لم يفعلوا أو ملوا ذلك فإن الله يختص غيرهم بذلك. قال ﷺ «إن لله عند أقوام نعماً يقرها عندهم ماداموا فى حوائج الناس ما لم يملوا، فإذا ملوا نقلها إلى غيرهم».

وفى المجتمع المسلم لا يدخر الأفراد وسعاً فى عون إخوانهم، ومد العون لهم، تحقيقاً للإخوة الإسلامية وإجراءً للخير على أيديهم، وإقراراً بفضل الله عليهم،وطلباً للخيرية والجزاء، وأداء حق ما اختصهم الله به، وما ميزهم على غيرهم.

٧ ـ **الاتحاد :** يتجه الخطاب الإلهى للجماعة بالأوامر والنواهى، مثل قوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ** ﴾ [**الحج**: ٧٦، ٧٧]. وتأكيد مفهوم الأمة الواحدة ﴿**وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾ [**المؤمنون**: ٥٢]، يتحقق بعدم تصديع الدين، والتفرق، والاختلاف. ولذا ينهانا الله عن ذلك ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[**آل عمران**:١٠٥]

فتوحيد الصفوف مطلب إسلامى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[الصف: ٤]. وائتلاف القلوب والمشاعر واتحاد الغايات واجتماع الكلمة أمور أساسية فى تدعيم وحدة الأمة، ودوام دولتها، وبقائها.

وأنت تجد فى كل العبادات الإسلامية تحقيق لذلك؛ ففى صلاة الجماعة يتأكد ذلك، وفى الحج يتلاقى أجناس المسلمين، بل نجد تحذير الرسول الكريم ﷺ من الفرقة والاعتزال؛ فالله تعالى مع الجماعة، والشيطان يستأثر بالفذ الفرد، النائى عن الجماعة، والخارج على جماعة المسلمين يموت ميتة جاهلية كما جاء فى الحديث «من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة الجاهلية» وقوله «من خرج على أمتى يضرب برها وفاجرها، ولايتحاشى من مؤمنها، ولا يفى بعهد ذى عهدها، فليس منى ولست منه» وقوله: «ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق هذه الأمة وهى جميع، فاضربوه بالسيف كائنا من كان».

فالإسلام يجمع الناس حوله، وإذا لم توحدهم عبادة الرحمن مزقتهم الأهواء ومتاع الدنيا، ولذا يكره الإسلام للمسلم أن ينحصر فى نطاق نفسه، وأن ينعزل وينأى بمصلحته عن مصلحة الجماعة.

وثمة حكم وراء ذلك منها أنه فى ظل الوحدة والاتحاد قد يتغلب الأفراد على أخطائهم، وعلى بعض طبائعهم السيئة التى تموت وتنزوى فى ركب الجماعة.

ونخلص مما تقدم إلى حرص الإسلام على حفظ كيان الأمة وسلامتها، وهو لذلك يدعو الأفراد إلى التكاتف على إخراج الأمة من الشقاق، وإدخالهم تحت يد الله تعالى ، التى هى مع الجماعة، ويحارب بالشقاق والتنافر، اللذان يهددان الأمة بالانهيار.

٨ ـ **الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر** : وهو خُلق إسلامى عظيم، ابتعث الله من أجله النبيين أجمعين، وجعله أمراً واجباً على هذه الأمة

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٤] وجعله سمة للخيرية فيها، فقال : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[آل عمران:١١٠]. وجعله صفة للمؤمنين ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[التوبة:٧١]. وذم الله اليهود لتركهم النهى عن المنكر ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[المائدة: ٧٩]. وبذا استحقوا لعنة الله. ونجا الله أقواماً لنهيهم عن المنكر ﴿ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ﴾[الأعراف: ١٦٥].

ولأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر له شأن كبير فى صلاح المجتمع، فقد أبانت السنة عن مراتبه وأنه يكون باليد واللسان والقلب، وأنه إذا لم يؤخذ به فإن الله لن يستجيب لدعائنا، بل ويوشك أن يبعث علينا عقابا كما حدث لبنى إسرائيل، وعدته كذلك أفضل الجهاد، وحذرت من الأمر بالمعروف ومخالفته ، والنهى عن المنكر ثم إتيانه، وهو أكبر المقت عند الله تعالى.

وفى المجتمع المسلم تكون النصيحة لله تعالى، والتوجيه أمر ضرورى لكل مسلم، وكذلك التذكير بالكلمة الطيبة، وإذا فعل كل فرد ما يحلو له لتحول المجتمع إلى غابة، وسيلحق الضر بالآخرين، كما جاء فى حديث السفينة «فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»[(١)].

ولايتحقق صلاح المجتمع عندما لا يتواصى أفراده بالخير، وعندما يرون المنكر ولايغيرونه ويسكتون عنه، وعندما يؤمر بالمنكر ويُنهى عن المعروف، وعندئذ يضيع الحق بين أهله، ويصير المنكر معروفاً، والمعروف منكراً، وعندما يهمل النصح والإرشاد يكثر الفساد، وينتشر الضلال، ويضعف العمل

---

(١) رواه البخارى عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما ــ وهو حديث طويل.

بالدين ويسترسل الناس فى اتباع الهوى والشهوات، ويعتاد المنكر ويصبح مألوفاً، بل قد يراه البعض معروفاً.

٩ ـ **صلة الرحم :** صلة الرحم مفتاح الوصول إلى رضوان الله، إذ أن من أسباب انقطاع العبد عن الله قطعه للأرحام ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**﴾[**محمد**:٢٢]. لأن الله خلق الرحم، وجعل اسمها من اسمه، وتعهد سبحانه بأن يصل من وصلها، ويقطع من قطعها، ويقول ﷺ «لايدخل الجنة قاطع رحم»[١].

وتكون صلة الرحم بالهبة والهدية والزيارة والسلام، والصدقة، ومداومة الصلة ووصلها عندما تقطع، وقد ذهب رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله إن لى قرابة، أصلهم ويقطعوننى وأحسن إليهم ويسيئون إلىّ، وأحلم عنهم، ويجهلون على» قال : «لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملل، ولن يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»[٢].

ورغم أن الإسلام يأمر بالتراحم العام، وجعله من دلائل الإيمان «لن تؤمنوا حتى تراحموا» «من لا يرحم لا يرحم» وأمر برحمة المسلمين؛ إلا أن حقوق الأقارب. وأصحاب صلات الدم أجدر بالعطف والعطاء والصلة ووجب على المسلم مواساتهم وعونهم والبر بهم والإحسان إليهم، وفى ذلك مضاعفة للأجر والثواب .

ونجد أحاديث عدة تؤكد معان عظيمة فى هذا الصدد، منها أن صلة الرحم توسع فى الرزق، وتطيل فى العمر، وأن الله يعجل لقاطع الرحم العقوبة فى الدنيا، وأن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم، وأنها محبة فى الأهل، ويدفع الله بها المكروه وميتة السوء ، ويعمر الله بها الديار.

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما عن جبير بن مطعم رضى الله عنه.

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

وإذ يؤكد الإسلام على ضرورة صلة الرحم فهذا حرص على تدعيم العلاقات بين المسلمين، وخاصة بين ذوى القربى وأصحاب الحقوق، فهم أولى بالرعاية والإحسان، أكان ذلك براً بالوالدين والإحسان إليهما، أو وصلاً بالأقارب، وعطاءً لهم. وهذا لاينُقص من شأن الرحمة لكل المسلمين ووصلهم، ولكنه تقديم للأهم، وبدايةً بذوى الحقوق أولاً ثم تكون الرحمة العامة، التى تحقق التراحم والتحاب والتواصل والتقارب بين أبناء المجتمع المسلم.

ولذا تكون آثار الرحمة العامة بادية فى إغاثة الملهوف، ومساعدة الضعيف، وإطعام الجائع، وكسوة العارى، ومداواة المريض، ومواساة الحزين، والرفق بالحيوان، وهى كلها آثار اجتماعية عظيمة، لا تكون إلا فى مجتمع مسلم متراحم.

١٠ ـ حق الجار :يقرر الإسلام حقوقاً للجار، وآدابا فى معاملته واجبة على المتجاورين معه ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾[النساء:٣٦]. ونجد ربطاً وثيقاً بين الإحسان إلى الجار والإيمان، «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»(١) «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره» (٢) «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»(٣).

ونجد كذلك تأكيداً على ضرورة أن تكون عبادة المسلم متمشية مع الإحسان إلى جاره، وأنه مهما ارتقى فى طاعته لله وأفرط فى حق جاره أو آذاه فإن طاعته ليست بواقية له من عذاب الله، «قال رجل : يارسول الله . . إن فلانة تُذكر من كثرة صلاتها وصدقتها وصيامها. غير أنها تؤذى جيرانها

---

(١) رواه مسلم عن أبى شريح الخُزاعى رضى الله عنه.
(٢) رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٣) رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عمر رضى الله عنهما.

بلسانها قال (هى فى النار) قال : يارسول الله : إن فلانة تُذكر من قلة صيامها وصلاتها، وأنها تصدق الأثوار من الأقط ولا تؤذى بلسانها جيرانها قال «هى فى الجنة»(١).

وتتفاوت حقوق الجيران بمقدار قربهم من جارهم وحسب وضعهم ودينهم، فالجار ذو الرحم له حقوق ثلاثة (حقوق الجوار والإسلام والرحم) والجار المسلم له حقان (حق الجوار والإسلام) وأما الذى له حق واحد فالجار المشرك.

وحرصاً من الإسلام على توسيع دائرة الجوار والتعاطف. فقد جعل النبىﷺ أربعين داراً جاراً، مما يزيد من واجبات المسلم نحو كل مَنْ جاوروه وإنْ بعدوا. كما أكد واجبات أخرى بجوار الإحسان إليه مثل نصرته إذا استنصر، وعونه إذا طلب، وعيادته، وتهنئته، وتعزيته، وإلانة الكلام معه، والتلطف معه ومع أولاده، والنصح له وإرشاده، وعدم التطلع إلى عوراته، والصفح عن زلاته، وعدم مضايقته فى البناء، وعدم تقذير بيته، وإسداء المعروف والخير إليه، والإهداء إليه من الطعام، واحترامه واستشارته.

وهذه كلها آداب اجتماعية؛ من شأنها صلاح المجتمع، وبث الود والراحة والطمأنينة بين أفراده فى إطار شرع حكيم؛ يحفظ الحقوق، ويرسى الواجبات، ويقرر المسئوليات الاجتماعية.

١١ ـ حق أهل الكتاب : يحث الإسلام على دعوتهم بالحسنى ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ** ﴾[العنكبوت:٤٦] . وحث النبى الكريم ﷺ على التسامح معهم، والرفق بهم «من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس أنا حجيجه يوم القيامة».

(١) رواه أحمد والبراز عن أبى هريرة رضى الله عنه.

والمعاهدون منهم لهم حقوقهم المصونة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[**المائدة**:١] . وليس خافياً أن الإسلام أقر للمسلم حق الزواج من الكتابية، وأحل لنا طعامهم ،وجعل كمال الإيمان مرتبطاً بالإيمان بالشرائع السابقة، على نحو ما أوضح القرآن الكريم.

ولذا فقد أظهر النبى ﷺ وأصحابه وقواد المسلمين سماحة حقيقية فيما عقدوا من صلح مع البلاد التى فتحوها؛ رغم أن المنتصر كان من شأنه أن يستبد ويملى شروطاً بدافع الغرور والانتقام ولكن المسلمين كانوا فى معاهداتهم كراماً؛ فأقروا أصحاب البلاد على عقائدهم وشعائرهم الدينية وأوصوا برعايتهم، والمحافظة عليهم وعلى أموالهم.

وأقر الإسلام الوفاء بعقد الذمة معهم، وعدم إكراههم على اتباع دينهم أو إجبارهم على اتباع الإسلام، وكذلك الإحسان إليهم فى المعاملة، وعدم التعالى عليهم وإذلالهم، وحسن التقاضى معهم وإجزال العطاء لهم، ومراعاة السن والحاجة كما حدث لعمر الفاروق مع اليهودى الضرير.

وفى عهد النبوة كان اليهود فى المدينة أمة مع المؤمنين، لهم دينهم وشريعتهم، وعلى مدى التاريخ الإسلامى أخذ الكتابيون حقوقاً لم يحصلوا عليها من قبل. وليس ثمة مشكلة بين المسلمين وأهل الكتاب لكن الخلاف الحقيقى بين الإسلام والعلمانين، ممن يرفضون الدين، أو يجعلونه هامشياً، ويتعلقون بالعقل والمدنية، وينزعون إلى الهوى والضلالة باسم التحرر وإعمال العقل والحرية الشخصية.

وبعد أن عرضنا للقسم الأول **(أخلاق أساسية فى البناء الاجتماعى والعلائقى للمجتمع المسلم)** فإننا نؤكد أن الصفات التى رصدناها تمتد لتشمل مساحات واسعة فى المجتمع؛ من تحاب فى الله، وإيثار للآخرين على النفس، والتآخى فى الله، والتسامح مع المسلمين وغيرهم، ورد المعروف

ومكافأة صانعيه، واتحاد الكلمة المسلمة والصفوف، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وصلة الرحم، وأداء حق الجار، والإقرار بحق أهل الكتاب. وهى كُلها أن عُمل بها تمثل بنيات أساسية ودعامات قوية فى بناء المجتمع.

ولسنا نزعم أن الأخلاقيات التى رصدناها هنا هى كل الأخلاق الأساسية، فثمة أخلاق اجتماعية أخرى لم نتناولها مثل التعاون على البر والتقوى، وأداء حقوق كل المسلمين المقررة والعطف على اليتامى والمساكين، وأداء الصدقات، والمودة والإصلاح بين الناس وبر الوالدين، والكلمة الطيبة، وأداء الأمانات والوفاء بالعهد، وستر عورات المسلمين، وإكرام الضيف..الخ ولم نغفلها إقلالاً من شأنها، أو تقديما للأهم ـ مما عرضنا له ـ أو تغليباً لغيرها عليها، وإنما ذكرنا الأخلاقيات السابقة كمختارات للجانب الاجتماعى والعلائقى فى الأخلاقيات الإسلامية، لأن منطلقنا فى ذلك أن الإسلام به من المضامين الأخلاقية ما يسمو بالمجتمع، وما يقيم البناء الصلب له، وما يحفظ للأفراد حقوقهم وما يقرر واجبات على المسلم نحو إخوانه، وما جعل البناء الفوقى للمجتمع معبراً عن صفاء النفوس واستقامتها، وعن نقاء القلوب وطهارتها. أما البناء التحتى المتمثل فى الأخلاق ذات الجانب الفردى - لحد ما- فهذا ما سنعرض له فيما يلى :

القسم الثانى : أخلاق حميدة، يجب على المسلم اتباعها، والعمل بها:

لا تنفصم الأخلاقيات ذات الجانب الفردى، والتى سنتناولها هنا عن الأخلاقيات ذات الجانب الجماعى أو ذات الأثر الاجتماعى مما عرضنا له.. وما أسميناه بالبناء الفوقى للمجتمع المسلم من أخلاقيات اجتماعية له ينفصم كذلك عن البناء التحتى له، مما ينتج من الأخلاق الفردية الحميدة. فكلاهما يلتقيان فى نقطة واحدة، بل وينبعان قبلاً ــ من رافد واحد هو حُسن الخلق.

ونقرر هنا أنه ليس بوسعنا أن نغفل الأثر الطيب لكل خلق إسلامى فى نفوس الناس، ويمكن أن نشاهد الأثر المحس لكل خلق حميد فى سلوكيات المسلم، مما يجعله صورة جيدة للإسلام، ومما يجعل صاحبه قرآنياً، ونورانياً.

والأخلاقيات التى سنعرض لها رغم مايبدو من فرديتها واقتصارها على التزام صاحبها وطاعته واستجابته إلا أن جانبها التأثيرى عظيم، وهى ناطقة بامتثال الأفراد لله تعالى، ومعبرة عن صورة صادقة للمجتمع المسلم؛ الذى يستمد قوام خُلقه وسلوكه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله وسيرة الصحابة والتابعين.

ويمكن تناول هذه الأخلاقيات فيما يلى : ــ

١ـ الصدق : يلتزم المسلم بالصدق ظاهراً وباطناً فى أقواله وأفعاله، **فالصدق من متممات الإيمان ومكملات الإسلام،** إذ أمر الله به، وأثنى على المتصفين به ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾[**التوبة**:١١٩]. ﴿**وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ**﴾[**الأحزاب**:٣٥]. وهو طريق الجنة؛ قال رسول الله ﷺ «إن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»[١].

وللصدق ثمرات طيبة؛ يجدها الصادقون فى طمأنينة النفس، وراحة الضمير، والبركة وزيادة الخير «فإن صدقا وبينا بُورك لهما فى بيعهما»[٢] وبلوغ منزلة الشهادة «من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»[٣] وهو المنجى يوم القيامة ﴿**هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ**﴾[**المائدة**:١١٩].

ويبرز صدق المسلم فى حديثه؛ بتجنبه الكذب؛ الذى هو إحدى آيات النفاق. وفى صدق المعاملة، وفى صدق العزم، وفى صدق الوعد، وصدق

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه.
(٢) رواه الشيخان وغيرهما عن حكيم بن خزام رضى الله عنه (جزء من حديث طويل).
(٣) رواه مسلم عن سهل بن حنيف رضى الله عنه.

الحال. والأهم من ذلك الصدق مع الله تعالى ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[الأحزاب:٢٣]. ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾[الأحزاب:٢٤].

ومن سمات خُلق المسلم أن يبتعد عن الكذب، لأنه رذيلة وإثم ومرض ونفاق وافتراء، ولذا لا يكون المؤمن كذاباً، ولا يتحقق إيمان العبد إلا بترك الكذب، أكان كذباً فى التجارة أو الشهادة أو المدح أو المزاح أو الكذب على الله أو على رسوله «من كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»(١) أو على المسلم «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً، هو لك مصدق، وأنت له كاذب»(٢) أو على النفس «أفرى الفرى أن يُرى الرجل عينيه ما لم تريا»(٣).

وتجد صدىً صدق المسلم فى المجتمع المسلم؛ الذى لا تكون فيه وعود كاذبة، أو إخلاف للوعد، أو إهدار للكلمة، ولذا عندما تصدق الأعمال والأقوال، ويُبتعد عن الفجور، والتخبط والادعاء والافتراء؛ فإن المجتمع يرتقى إلى قمة الخير والبر والصلاح ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[البقرة:١٧٧].

٢ ـ الإخلاص : من الركائز المهمة فى حياتنا الإيمانية **اتجاه الأعمال إلى الله تعالى وإحسان النية، وإخلاص العمل** ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[البينة:٥]. والتأكيد على إطلاع الله تعالى على القلوب ومراقبة أعمالنا وصدورنا، ومعرفة ما خفى منها وما ظهر ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٢٩]. وعلى أن المحور الرئيسى فى العبادات وكل الأعمال **ما تكنه من نية، تُصير كل الأعمال وتحرك كل الجوارح،** وتمثل ميزاناً دقيقاً لأعمالنا «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ مانوى..»(٤).

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) رواه البخارى عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما..

(٤) رواه الشيخان عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه (وهو صدر حديث طويل عظيم).

ومن مُحركات الأعمال لدى المسلم شعوره بالمراقبة، وهذا يجعله مخلصاً مع الله تعالى «إن الله لاينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[١] ولذا يحاسب الله تعالى الناس على قدر إخلاصهم وحسن توجههم، ذلكم لأن الأخلاص سر بين العبد وربه. والله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك، لذا فإشراك المسلم لأحد مع الله فى نيه أعماله هو رياء مذموم ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء: ١٤٢]. . وابتغاء المسلم للأجر والثواب من غير الله تعالى يقربه إلى عمل أهل النار «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة»[٢] بل إن مثل هذه الأعمال تجعل المرء من أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، وعدّه رسول الله ﷺ شركاً خفياً، حيث يريد الإنسان بعمله الدنيا، ويريد استحسان الناس لفعله « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح الدجال! قالوا : بلى يارسول الله . قال : الشرك الخفى، يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل»[٣].

وثم أمور نلح عليها بشأن إخلاص المسلم، أبرزها أن صلاح النية وإخلاص الفؤاد لله، يرتفعان بالأعمال الدنيوية لمنزلة العبادة المتقبلة، وأن خبث الطوية وفساد النية؛ يهبطان بالطاعات لمنزلة المعاصى، ولا ينال المرء منها إلا التعب والفشل[٤].

كما أن الإخلاص هو خليقة المسلم، وهو الشرارة الموقظة لعمله، وهو فضيلة تنقى الأعمال من الرياء، وتتغلب على حب الدنيا والأثرة، وحب

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) رواه مسلم عن أبو داود بسند صحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) رواه أحمد عن أبى سعيد رضى الله عنه ــ مرفوعاً.

(٤) فى رسالة قيمة للإمام أحمد بن تيمية عن (العبودية فى الإسلام) بسط القول عن العلاقة بين الإخلاص والعبادة، وبين الرياء والعبادة، ويوصى بالرجوع إليها لمزيد من التفصيلات .

الثناء، والرغبة فى التفاخر والعلو، وتجعل الأعمال مجردة عن الهوى والزيغ والأغراض والشهوات.

٣ ـ الحياء.. الحياء خُلق للمسلم، **فهو من الإيمان** «والحياء شعبة من الإيمان»[١] ولا ينفصم الحياء عن الإيمان، فهما قرناء، وكلاهما داع للخير صارف للشر، وكلاهما يمنع صاحبه من التقصير فى شكر المنعم، والتفريط فى حق الله، وارتكاب المعاصى، ولذا فإن الحياء خير كله، ولا يأتى إلا بالخير.

وحياء المسلم يمنعه من البذاءة، وفحش القول والفعل وجفاء الكلام والغلظة والجفاء، وهى كلها صفات أهل النار، وهذا ما يستفاد من قولهﷺ «الحياء من الإيمان، والإيمان فى الجنة، والبذاء من الجفاء والجفاء فى النار»[٢] والحياء يتمثل فى أداء حقه « مَن حفظ الرأس وما وعى ، والبطن وماحوى، وذكر الموت والبلى ، وترك زينة الحياة الدنيا فقد استحيا من الله حق الحياء»[٣].

ويكون حياء المسلم من الله تعالى بعدم معصيته، أو التقصير فى طاعته، «لأن الله تعالى أحق أن يستحيا منه من الناس»[٤] ويكون حياؤه من الناس بألا يقصر فى أداء واجب لهم، وألا ينكر معروفاً، وألا يغلظ فى القول وبذئ الكلام، وألا يكشف لهم عورة، «وقد كان رسول الله أشد حياء من العذراء فى خدرها»[٥] ونؤكد هنا أن حياء المسلم غيرمانع له من قول حق، أو دفع ظلم، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر. وعندما ينزع الحياء من المسلم

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه (وهو عجز حديث طويل).
(٢) رواه أحمد بسند صحيح.
(٣) رواه الترمذى عن عبدالله بن مسعود ورواه الطبرانى عن عائشة رضى الله عنها.
(٤) رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٥) راوه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه.

تنزع منه الرحمة، ويهبط لمدراج الرذيلة؛ ويبتعد عن الخلق المميز لهذا الدين؛ وهو الحياء . كما أنه بفقده الحياء لا يبالى بشئ، وتتغلب أهواؤه ونفسه وأثرته الجامحة، ولا يخجل من الظهور برذيلة أمام الناس، ولا يخجل من نفسه، التى غُمست فى الشر.

إن الحياء هو الدين كله، وهو ملاك الخير، وعنصر النبل فى كل عمل، وهو مانع للمسلم من أن يصنع ما يشاء ، وهو ضابط لأعماله وأقواله وزيه وسلوكه ومظهره.

وليس الحياء صفة ذاتية للمسلم فقط؛ وإنما المجتمع المسلم حيىٌ كذلك تُستر فيه العورات، وتؤدى فيه الحقوق، ويحافظ فيه على المشاعر، ويستحيا فيه من المعصية وفحش القول. ويتميز أفراده بحيائهم من الله تعالى، ومن الناس ، وخجلهم من أنفسهم.

٤ ـ **الصبر:** الصبر خلق للمسلم، يحبس فيه نفسه على ما تكره، ويتحمل فيه المكروه بالرضا والقول وقد أثنى الله تعالى على الصابرين ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة: ١٥٥] . ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠] . وقال ﴿**وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾[الشورى: ٤٣] . وقال ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة: ١٥٣] .

فالمسلم يصبر على طاعة الله تعالى ، ويحبسها عن معصيته، وليس للجزع مقام فى نفسه ، ولا للسخط محل فى سلوكه وردود أفعاله، ويكون كذلك بالصبر على الضراء، فأمر المؤمن كله خير «إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» (١).

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

هو موقن أن الله تعالى مدخره له عنده الخير الكثير والجزاء العميم، يقول ﷺ «ما يصب المسلم من نصب ولا وصب ولاهم ولاحزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»(١).

وأن الله يبتليه ، اختباراً له ، فعِظم الجزاء مع عظيم البلاء، وإذا أحب الله قوماً ابتلاهم. وهذا الابتلاء هو تطهير للمسلم وعافية له؛ يقول ﷺ «مايزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وماعليه خطيئة»(٢).

ومُرشد المسلم وقدوته هو رسول الله ﷺ؛ الذى صبر على إذاء قومه، ورغم ذلك كان يرد السيئة بالحسنة ولا ينتقم لذاته. وفى حياة صحابته رضوان الله عليهم صور ناطقة وأمثلة حية على صبرهم وتحملهم، واحتسابهم الأجر عند الله، وعدم الشكوى والسُخط. وكان يقينهم أنهم بذلك يؤسسون دولة، ويضعون البنيان، وأنهم بذلك يستحقون السبق والفضل، كما حدث للسابقين الصابرين من بنى إسرائيل ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾[**السجدة**: ٢٤].

وصور الصبر لدى المسلم كثيرة؛ فهو يصبر على الفقر وضيق العيش، انتظاراً لنعيم مقيم فى الجنة. ويصبر على المرض والبلاء؛ تكفيراً لذنوبه، ورضاء بقضاء الله. ويصبر على مجاهدة نفسه والانتصار عليها؛ مهما فتنتهم الدنيا وغرتهم بزخارفها. ويصبر على فقد الأهل والولد؛ لأن الله تعالى يعوضه خيراً عن ذلك فى الدنيا والآخرة. كما قال ﷺ عن ربه تعالى «ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفيه (حبيبه) من الدنيا احتسبه إلا الجنة»(٣).

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما.
(٢) رواه الترمذى بسند صحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٣) رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه.

ويتسم المجتمع المسلم بيقينه بقدر الله تعالى، وعدم السخط، مستعيناً بالطاعات، ومنتظراً ما أعده الله للصابرين من جزيل الأجر، وعظيم المنزلة. وبيقينه بأن حكم الله نافذ، أصبر أم جزع، غير أنه مع الصبر يكون الأجر، ومع الجزع يكون الوزر.

٥ ـ **التوكل** : التوكل جزء من عقيدة المؤمن، وهو خُلق له ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[**المائدة**:٢٣] ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾[**إبراهيم**:١١]. ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾[**الطلاق**:٣]. وليس التوكل قولاً بلا مضمون، ولكنه عمل واعتقاد وأخذ بالأسباب، وتفويض أمر النتائج إلى الله تعالى، والإيمان بالمشيئة ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾[**الإنسان**:٣٠].

وأخذ المسلم بالتوكل الحقيقى قولاً وعملاً وحركة وهو فتح لأبواب الخير والرزق «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[١] وهو سبيل لرضوان الله والفوز بجنته «يدخل الجنة أقوام افئدتهم مثل أفئدة الطير» أى المتوكلون[٢] ومن الذين يدخلون الجنة بغير حساب المتوكلون «هم الذين لا يرقون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»[٣].

ولذا ينافى توكل المسلم تعليق التمائم أو الودع أو القلائد ، لأن هذا أدخل إلى الشرك، لأن مَنْ تعلق بشئ وُكّل إليه، وهو ليس بنافع له؛ لذا أنكر رسول الله ﷺ ذلك، وتلا قوله تعالى ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾[**يوسف**:١٠٦]. وأقرضره لفاعله (لاتزيدك إلا وهنا).

---

(١) رواه الترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهما.

وينافيه كذلك التبرك بحجر أو بشجر، والذبح لغير الله، والنذر لغير الله، والاستعاذة بغير الله، والاستغاثة بغير الله، والتوسل بولى إلى الله، لأن هذه الأعمال عُدت من الشرك.

وفى المجتمع المسلم يُؤخذ بالأسباب، وتُترك النتائج لله تعالى. وفيه كذلك يبتعد الأفراد عن مغيبات العقول، وعن الاستعانة بغير الله. ويتأدب فيه الأفراد مع الله، ويوجهون كل أعمالهم إليه سبحانه، متوكلين على خالقهم؛ الحى الذى لا يموت ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ**﴾[**الفرقان**:٥٨] غير مستعينين بتمائم وقلائد، وغير معتمدين على عقولهم وحدها، ومُقدمين لمشيئة الله تعالى على كل ما عداها ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾[**يس**:٨٢].

٦ ـ **المجاهدة:** مجاهدة المسلم لنفسه، وبذله الجهد فى الطاعات هو تحقيق للهداية الحقة ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[**العنكبوت**:٦٩]. وتكون المجاهدة مقيدة بالشرع الحكيم وصولاً إلى نقاء القلب والسريرة، والاستعانة فى سبيل ذلك بالطاعات مثل قيام الليل وذكر الله تعالى وقراءة القرآن والتدبر فيه. وابتعاداً بالنفس عن إلف الراحة والكسل والشهوة والمتعة لأن (الجنة حُفت بالمكاره وحفت النار بالشهوات)[١] (والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله)[٢].

وبذا فإن بذل الجهد يتغلب به المسلم على هوى نفسه، لتكون راحتها فى طاعة الله ورسوله (لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)[٣]. وهذا مانجده ــ أيضا ـ فى قوله تعالى ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾[**النازعات**:٤٠، ٤١].

---

(١) رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) رواه الترمذى عن فضاله بن عبيد رضى الله عنه.

(٣) ذكره النووى فى الأربعين النووية عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما.

والمسلم دائماً مشغول بالتكاليف وبفعل الخير، وبذا فإن نفسه متطهرة دائماً، فأداء العبادات مجاهـدة، والالتزام بالآداب الإسلاميـة مجاهـدة، والأخذ بالنوافل مجاهدة، والانتصار على النفس والشيطان مجاهدة، وابتعاد المسلم عن اللهو واللغو مجاهدة.

فالمجاهدة تصبح سلوكاً فى حياة المسلم عندما يتخلص من كيد الشيطان والنفس معاً .

وخالف النفس والشيطان واعصهما ❊ وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصماً ولا حكما ❊ فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

وفى القرآن العظيم تجد نداءات متكررة **بالمجاهدة** ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ**﴾[**المائدة**:٣٥]. ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ**﴾[**الحج**:٧٨]. ﴿**وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾[**العنكبوت**: ٦]. ونجد جزاء ذلك فى عظيم هداية الله وفضله ﴿**وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا** ﴾[**المزمل**:٢٠].

ومن معانى المجاهدة أن يغتنم المسلم نعم الله عليه مثل الصحة والفراغ والشباب والعمر اغتناماً عظيماً، وأن يتقرب إلى الله بكثير الطاعات، وأن يطيل القيام والسجود، ويديم شكر الله تعالى، ويكثر من الحمد والتسبيح، ويقر بفضل الله عليه فى كل حين[١].

وتلمس مجاهدة المجتمع المسلم فى قوة أفراده، بانتصارهم على أنفسهم وأهوائهم، وتوجيه هممهم لفعل الخيرات، والإكثار من الطاعات، ولذا فليس للهو ولا للغو ولا للعبث ولا للشهوات الكاسرة ولا للنزوات العارمة مقام ولا محل فيه؛ وإنما تجد الإقبال على مايقرب للجنة من أعمال، وابتعاد عن الشهوات والملذات والمعاصى التى تلقى بصاحبها فى الجحيم.

---

(١) وردت الألفاظ المتصلة بالمجاهدة فى القرآن الكريم فى ثلاث عشرة آية، تأكيداً لأهميتها وضرورة التزام المسلم بها؛ هذا بخلاف الألفاظ المتصلة بالجهاد التى وردت فى عشرين آية قرآنية.

٨ ـ **الإحسان : وهو خلق متعدد الاتجاهات،** ورغم ما يبدو أنه أقرب إلى أخلاق القسم الأول إلا أن وضعه هنا آت من كون الإحسان خلقاً فردياً؛ تلمس أثره فى العبادة والخشية (أن تعبد الله كأنك تراه) كما أن له جانباً اجتماعياً كذلك فى الإحسان إلى الآخرين كالوالدين والأقارب وكل المسلمين، والإحسان فى ذبح الحيوانات فالإحسان له جانبان : أولهما فى باب العبادات؛ باستكمالها وفق شروطها وأركانها وسننها وآدابها. وثانيهما فى المعاملات، بإيصال الخير والبر لأهله، وكف الأذى عن الإنسان والحيوان.

وتجد نداءً من الله تعالى بتمثل ذلك فى قوله ﴿**وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[البقرة: ١٩٥]. وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾ [النحل:٩٠]. و﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾[البقرة: ٨٣].

ويتأتى الإحسان بشعور المسلم بالمراقبة، وأن الله تعالى مطلع عليه، وناظر إليه، ويراه فى كل حالاته وهذا يجعله ساعياً إلى إحسان العمل، وتأديته بالصورة المطلوبة، مستشعراً وجود الله ومراقبته يقول الله تعالى ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾[آل عمران: ١٧٢]. ﴿**وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾[النساء: ١٢٨]. ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ**﴾ [النحل: ٣٠]. ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾[النحل:١٢٨]. ﴿**وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [يوسف:٥٦]. ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت:٦٩]. ﴿**آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ**﴾ [الذاريات:١٦]. ﴿**وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**﴾ [النجم: ٣١].

ويتمثل إحسان المجتمع المسلم؛ فى عدم انفصام عقيدته الإيمانية عن سلوكيات أفراده ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ١١٢]. وفى إتقان أفراده لعملهم، واستشعارهم مراقبة الله لهم فضلاً عن المظاهر الاجتماعية الأخرى للإحسان.

٨ ـ **التواضع :** وهو خلق إسلامى، يرتفع بصاحبه، **دون مذلة أو مهانة،** يقول الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [**الشعراء**:٢١٥]. ووصف المؤمنين بقوله ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [**المائدة**:٥٤]. ونهى المؤمنين عن التعالى: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ [**الاسراء**:٣٧]. وامتدح المتواضعين ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [**القصص**: ٨٣].

ولأن التكبر والتعالى صفتان زميمتان، فقد حُرمت الجنة على المتكبرين، وحصب جهنم هم المتكبرون «ألا أخبركم بأهل النار، كل عتل جواظ مستكبر»(١) «لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر»(٢).

ولأن التواضع سمة المؤمن؛ فقد تعهد الله برفعة أهله «وماتواضع أحد لله إلا رفعه الله» (٣) ودعا إلى التخلق به، والأمر باتباعه «إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على ولا يبغى أحد على أحد»(٤).

ويبرز تواضع المسلم وخفض جناحه مع المؤمنين فى تلطفه فى المعاملة، وعدم تقدمه على أمثاله أو من يعلوه، وفى جلوسه إلى الفقراء والمساكين، وإجابة دعوة ذوى الحاجة، وألا يرى نفسه خيراً من غيره، ويسلم مبتدئاً على مَنْ يستقبله، ويلبس فى غير مخيلة.

وفى المجتمع المسلم يُتأسى برسول الله ﷺ الذى كان فى مهنة أهله، ويسلم على الصبيان، وينهى أصحابه عن تعظيمه، وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويأكل مع الخادم، ويحلب الشاة، ويعقل البعير وبذا لا يتعالى أحد على إخوانه، لأن التكبر خُلق أهل النار.

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما عن حارثة بن وهب رضى الله عنه.
(٢) رواه مسلم عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه.
(٣) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٤) رواه مسلم عن عياض بن حمار رضى الله عنه.

وفى المجتمع المسلم ـــ أيضاً ـــ تجد ذلة المؤمنين بعضهم للآخر، برحمة بعضهم لبعض، وعدم التفاخر بالأنساب . أو المال أو الجاه أو الولد، وفى التلاقى بوجه طلق بشوش، وبالكلام الطيب، وفى تفريج كربتهم، وإجابة ملهوفهم، والرفق بهم، والقيام بحقوقهم، وعدم ضرهم أو المكر بهم، وعدم الشماتة بهم، مما يمثل صفاتٍ حقة لمجتمع؛ يتواضع فيه أفراده، ولايبغى فيه أحد على أحد.

٩ ـ الأمانة : مفهوم الأمانة فى الإسلام أوسع من أن يقتصر على حفظ الودائع، **ولكنه يمتد لمعان عظيمة؛** جماعها شعور المرء بتبعته فى كل أمر يوكل إليه، وإدراكه بالمسئولية أمام الله، والقيام بواجبات ذلك ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾ [الأحزاب:٧٢]. كما يشمل الأمانة فى أداء العبادات، وفى الحديث، وفى الودائع، وفى الحُكم ، وفى عدم الخيانة لكل ما تقدم.

والأمانة هى خلق المسلم، وأحد دلائل الإيمان «لا إيمان لمن لا أمانة له. ولا دين لمن لاعهد له»[(١)] كما أنها تبعة عظيمة «يا أباذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة-وإنها يوم القيامة خزى وندامة؛ إلا من أخذها بحقها، وأدّى الذى عليه فيها»[(٢)].

ولعظم الأمانة فإنها أول ما تُرفع إلى الله، وعندما تضيع الأمانة فإن ذلك دلالة على اقتراب الساعة (إذا ضُيعت الأمانة فانتظر الساعة. فقال له: وكيف إضاعتها! قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)[(٣)] وتقتضى الأمانة اصطفاء أحسن الناس قياماً للأعمال، وأن يحرص المرء على أداء واجبه كاملاً فى العمل؛ الذى يناط به. وخيانة هذه الأمانة إثمٌ عظيم؛ تعرض

---

(١) رواه أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٢) رواه مسلم عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه.

(٣) رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه.

صاحبها لغضب الله، وتعرض الوطن للأذى ومن الأمانة ألا يستغل الرجل منصبه فى منفعة له، أو لقرابته. ومن معانيها كذلك حفظ حقوق المجالس والأسرار، وحفظ الأسرار الزوجية، فنشرها من أعظم خيانة الأمانة.

وفى المجتمع **المسلم تؤدى الأمانة إلى رعاية الحقوق، والعصمة عن الدنايا،** وهى الضمير اليقظ فى قلوب الرجال وبذا فإن حمل الأمانة ـ بكل معانيها ــ لا يقوم به إلا الرجال الأشداء، وهى قوام العمل فى المجتمع المسلم بل وقوام العبادات والمعاملات (الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة)[١].

وعندما تضيع الأمانة تجد الخيانة سبيلها فى تردى المجتمعات، وانحلال الشخصيات، وتدمير الكرامة، وهز الثقة، والإنذار بالفشل والخسارة، وموت الضمير، وفقدان المسئولية.

١٠ - **الاعتدال : وهو خلق إسلامى عظيم، ينتظم كل شئون المسلم، ويمثل سمة له فى حياته،** بالتوسط فى كل الأمور؛ بلا إفراط أو تفريط وهما مذمومان، ويجافيان الوسطية والاعتدال.

واعتدال المسلم فى عبادته يتأتى من عدم الغلو والتنطع، ومن عدم الإهمال والتفريط. فقد ذم رسول الله ﷺ التشدد . (هلك المتنطعون)[٢] وقال للثلاثة الذين تقالوا عبادته «أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»[٣] وأوضح طبيعة هذا الدين «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»[٤].

---

(١) رواه أحمد عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه.
(٢) رواه مسلم عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه.
(٣) رواه الشيخان وغيرهما عن أنس بن مالك رضى الله عنه.
(٤) رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه.

وقد كان رسول الله مقتصداً فى صلاته وفى خطبته، وأخبر أن أحب العمل إلى الله أدومه وإنْ قل، وأرشد معاذاً إلى عدم إطالة الصلاة بالناس؛ تقديراً لظروفهم؛ بل وعدّ ذلك فتنة (أفتانٌ أنت يامعاذ!).

ومن معانى الاعتدل كذلك التوسط فى أمور المعاش، بلا إسراف ولاتقتير ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**﴾[**الفرقان**: ٦٧]. والتوسط فى اللباس بلا فخر ومباهاة ولا لبس الخشن والممزق. والتوسط فى السلوكيات وفى أمور الاقتداء والاهتداء.

ومن معانيه كذلك عدم تجاوز حدود الله تعالى بعد تعديلها؛ بالتقصير فى أدائها، أو تجاوزها والغلو فيها. أى الاستقامة الحقة، والتى أشار إليها قوله تعالى ﴿**وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا**﴾ [**الجن**:١٦].

وقد كان الإفراط والتفريط هما دأب الأمم السابقة؛ ولذا فإن المجتمع المسلم يُقدر عظمة هذا الدين ويسره وضرورة الاعتدال فى العمل والعبادة والمعاش، وعدم الغلو، لأن هذا الدين متين، والإنسان الذى يحمل نفسه ما لا تطيق لا أرضا قطع، ولا ظهراً أبقى. والإسلام يحبب إلينا عبادة الله تعالى ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾[**البقرة**: ١٨٥].

وترى اعتدالية المجتمع المسلم فى توسط أفراده واعتدالهم وعدم تشددهم، كما تراه كذلك فى عدلهم مع أنفسهم، وعدلهم فى اعتقادهم، وفى أقوالهم، وفى شئون حياتهم[1].

١١ـ **العفاف**: المسلم لايكون **عبد بطنه أو نفسه؛ ليس همه الأكل والشهوات،** ورص الموائد بما طاب من الطعام؛ لأن التشبع والامتلاء شرٌ،

(١) العدل خلق إسلامى يندرج ضمن الاعتدال، وإن كانت معانى العدل تأخذ دلالة فردية واجتماعية واسعة وقد أوضحنا الفروق بين العدل والاعتدال فى مؤلف منشور هو (العدل فى القرآن الكريم ــ دراسة لغوية تفسيرية ـ إحصائية).

يحول بين المسلم والإقبال على الطاعات، لأن شر وعاء يملؤه المرء إنما هو بطنه. والمؤمن ـ كما جاء فى الحديث ـ يشرب من إناء واحد، والكافر يشرب فى سبعة أمعاء.

ولأن المسلم صاحب نفس كبيرة، فإن همه عظيمة، ليست مرتبطة بفنون اللهو والملذات، ولكن يقين المسلم أنه مسئول عن النعيم وعن الاستمتاع بالطيبات يوم القيامة ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾[**التكاثر**:٨] . ورغم ذلك فإن الشريعة تقر حق المسلم فى التنعم وفق شروط الطاعة ﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [**المائدة** : ٩٣] .

كما تقر مطالب البدن ورغباته بما لا يدخل فى نطاق المعصية ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [**المائدة**: ٨٧]

وعفاف المسلم عن الشهوات المادية ليس معناه الزهد والترهب، ولكنه التزام وغنى للنفس وترشيد لها؛ ذلك لأن الإسراف فيها فيه ضر واقع بالمسلم؛ مادة وروحاً.

ويكون العفاف كذلك بعدم الإلحاح فى السؤال والطلب «لاتزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس فى وجهه مُزعة لحم»[1] ويكون فى أخذ ما ليس للمرء من حقوق، ويكون بإعفاف الأهل وأداء مطالبهم الشرعية.

وفى المجتمع المسلم تجد صور العفاف فى التوازن فى تحقيق مطالب الجسد، وفى عفة الوجه واللسان وفى التعفف عن المحارم، والتعفف عن الزواج لغير القادرين؛ حتى يغنيهم الله من فضله، والاستعانة على ذلك بالصيام.

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما.

وبعد أن عرضنا للقسم الثانى **(أخلاق حميدة، يجب على المسلم اتباعها)** فإننا نؤكد أن الصفات التى تناولناها منصبة على المسلم أساساً، ورغم ذلك لها مردودها الاجتماعى. وهى أخلاق تُميز المسلم بصدقه، وإخلاصه، وحيائه، وصبره، وتوكله، ومجاهدته، وإحسانه، وتواضعه، وأمانته، واعتداله، **وهى كلها فضائل ومحامد عظيمة.**

والأخلاق التى رصدناها فيما **تقدم ليست هى كل أخلاق هذا القسم،** إذ هناك أخلاقيات أخرى لم نذكرها، وهى متجهة إلى المسلم؛ مثل : حفظ السر، والمبادرة إلى الخيرات، ومحاسبة النفس، وسلامة الصدر، والتفكر فى عظيم مخلوقات الله، والزهد، والورع، وذكر الموت، والمراقبة، والخوف، والرجاء، والوقار، والسكينة، والرضا، والخشية، والسخاء والكرم، وطلاقة الوجه، والهداية، وتعظيم الله، والتوبة ، والشكر. . إلخ، ولم نُفصل القول فى هذه الأخلاقيات؛ لأننا معنيون بتقديم نماذج خلقية فى كل قسم، مؤكدين -هنا- أن اتصاف المسلم بهذه الأخلاقيات الحميدة هو سمو للنفس والروح، وهو تأكيد على قرآنية المسلم وانقياده والتزامه، وهو إبراز لقوة البناء التحتى للأخلاقيات الفردية الحميدة.

وثم جانب آخر للأخلاقيات، وهو الأخلاق المذمومة المنهى عنها، والتى بالابتعاد عنها؛ يتكامل البناء التحتى للمجتمع المسلم، وهذا ما نفصله فيما يلى.

القسم الثالث : أخلاق ذميمة، ينبغى اجتنابها:-

نشير بداية إلى أن كل خلق حميد ــ فى القسم الثانى ــ له طرف آخر مذموم فالصدق مقابله الكذب وهو مذموم، والإخلاص مقابله الرياء، والحياء مقابله البذاءه، والصبر مقابله الجزع، والتواضع مقابله التكبر، والأمانة مقابلها الخيانة، والاعتدال مقابله الإفراط والتفريط، وهكذا. .

كما أن كل خلق مذموم ـ مما سنعرض له ــ له مقابله المحمود؛ فالظلم نقيضه العدل. . وهكذا. والمسلم فى الحالتين باتباعه للخلق الحسن متجنب لمقابله المذموم.

والأخلاق الذميمة نؤكد فيها على الجانب الفردى لعلم المسلم، وهذا لايقلل من جانبها الاجتماعى، وكينونتها الجماعية، والدالة على صلاح المجتمع؛ ليس بالتخلق بالجميل من الخلق فقط، وإنما بتجنب الرذيل والمذموم منها كذلك.

والأخلاق التى سنتناولها هنا؛ ليست هى مقابل (نقيض) كل خلق حميد سابق، ولكننا نعرض لأخلاق مذمومة لاصلة لها بما تقدم؛ فتناولنا للخلق الحميد وتأكيدنا عليه هو دعوة إلى تجنب الخلق المذموم بداهة.

ويمكن تفصيل أخلاقيات هذا القسم فيما يلى(*).

١ ـ **الظلم: ينأى المسلم عن الظلم،** فلا يظلم ولا يُظلم، ولا يصدر عنه ظلم بأية صورة من صور الظلم؛ فلا يظلم ربه بالكفر أو بالشرك ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [**لقمان**:١٣]. ولايظلم نفسه، بتلويثها بالمعاصى ﴿**وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [**النحل**: ٣٣]. وظلم العبد غيره، بأن يقتطع حقاً لامرئ مسلم، أو أن يستبيح دمه أو ماله أو عرضه ﴿**وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا**﴾ [**الفرقان**: ١٩]. وطاعة الشيطان ظلم، والتكذيب بآيات الله ظلم، والحكم بغير ما أنزل الله ظلم، وكتمان الحق ظلم، وتجاوز الحدود ظلم، والغفلة عن الله ظلم، وهمز المسلم ولمزه والسخرية ظلم، ومطل الغنى ظلم؛ وأكل أموال اليتامى ظلم.. إلخ.

وهذه الصور للظلم يبغضها الله تعالى؛ لأنه سبحانه حرم الظلم على

(*) لعله من عناية السلف بالتأكيد على تجنيب المسلم هذه الأخلاقيات الذميمة أن أفردوا مؤلفات لها، وذلك مثل (كتاب الكبائر) للإمام الذهبى، و(كتاب الكبائر) للشيخ محمد بن عبدالوهاب.. وغيرهما. نوصى القارئ الكريم بقراءة مثل هذه الكتب، التى تمثل زواجر هادفة فاعلة للنفس المسلمة، وزاجرة كذلك للعصاة والمنحرفين، وقائدة للراغبين فى سلوك طريق الله والحق والصواب.

نفسه، وجعله بين العباد محرماً، وجعله ظُلمة يوم القيامة (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة)[1] (من كانت عنده مظلمة لأخيه: من عرضه أو من شئ فليتحلله منه اليوم قبل أن يكون دينار ولادرهم)[2] (من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة)[3] (من ظلم قيد شبر من الأرض يطوقه من سبع أرضين يوم القيامة)[4].

ولذا فإن الله تعالى يغضب للظلم وينتقم من أهله ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[**هود**:١٠٢] ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [**الشعراء**: ٢٢٧]. وقال ﷺ «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»[5].

ونجد تحذيرات بأن نتجنب الظلم، ونتقى دعوة المظلوم، التى تُرفع إلى الله تعالى فيقول لها (وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين)[6] كما أن رسول الله يكون خصيم الظالم يوم القيامة وحجيجه.

كما نجد تحذيرات أخرى بألا نخالط الظالمين أو نعاونهم ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [**هود**:١١٣] ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [**الصافات**:٢٢]. أى وأشباههم وأمثالهم وأتباعهم.

ولكل ما تقدم فإن المسلم يبتعد عن الظلم بكل صوره، وذلك لطبيعته العادلة السوية، ووقاية لنفسه من عواقب الظلم فى الدنيا والآخرة.

والمجتمع المسلم ـ بتنفيذه لتعاليم الله ـ لا يُظلم فيه أحد، ولا تضيع فيه الحقوق، ويؤخذ فيه على يد الظالمين، ويُنتصر فيه للمظلومين، ولا يقع فيه الظلم بإحدى صوره السابقة.

---

(١) رواه مسلم عن جابر بن عبدالله رضى الله عنه.

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) رواه مسلم عن أياس بن ثعلبة الحارثى رضى الله عنه.

(٤) رواه البخارى ومسلم عن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما.

(٥) رواه البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

(٦) رواه أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه.

٢ ـ **شهادة الزور: للكلمة مسئوليتها وخطورتها لدى المسلم،** وهو مسئول عن كل ما يتلفظ به ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. ومخالفة كلام المسلم لما شاهد وعاين هو زور محقق نهى الله المؤمنين أن يتسموا به ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]. وجعل عباد الرحمن بعيدين عن ذلك ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢].

ودين المسلم كما يحتم ألا يكتم الشهادة ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]. فإنه يفرض عليه الصدق فى شهادته؛ لأنه إن فعل ذلك أدخل نفسه فى دائرة الكبائر «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: قلنا: بلى يارسول الله. قال الإشراك بالله، وعقوق الوالدين. وكان متكئاً فجلس فقال: ألا وقول الزور فمازال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»[١] «عدلت شهادة الزور الشرك بالله تعالى مرتين»[٢] كما أن شهادته للزور معصية، تستوجب عقاب الله يوم القيامة «لن تزول قدما شاهد الزور يوم القيامة حتى تجب له النار»[٣].

وأنت ترى أن شاهد الزور ارتكب عدة معاص، أبرزها: الكذب، والافتراء، وأوقع الظلم على من شهد عليه، وظلم من شهد له بأن أعطاه ما ليس له، فتجب له النار «من قضيت له من مال أخيه بغير حق فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار»[٤] وهى كلها آثام وكبائر وقبائح.

والمسلم يوقن بوقوعه فى المعصية عندما يقول الزور؛ ولذا فإن مخافته من الله، وإقداره لعقابه، وخطورة كلمته تحول بينه وبين هذه الكبيرة.

وفى المجتمع المسلم ينأى الأفراد بأنفسهم عن الزور من الكلام والمشاهدة؛ وبعدهم عن الكذب والافتراء والظلم هو تحقيق لمعانى الإيمان والاستجابة والهداية ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى بكرة رضى الله عنه.
(٢) رواه أبو داود والترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه.
(٣) رواه ابن ماجة والحاكم عن ابن عمر رضى الله عنهما.
(٤) رواه الشيخان وغيرهما عن أم سلمة رضى الله عنهما.

٣ ـ الغضب : وصف الله تعالى عباده المتقين بقوله ﴿والكاظمين الغيظ﴾ أى الذين : يمسكون غضبهم، ويضبطون أنفسهم فى كل حال ابتغاء وجه الله تعالى. ذلكم لأن المرء عندما يغضب فإنه قد يُخطئ، وقد يستخدم القبيح من الألفاظ، وقد يضيع حقوقاً، وقد يسئ لنفسه وللآخرين. ولذلك جمعت وصية رسول الله ﷺ للصحابى بقول (لا تغضب)[١] وعدّ رسول الله ﷺ ضبط المسلم لنفسه من أفضل الأعمال (ماتجرع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها، ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى)[٢] وعد ـ كذلك ـ كظم الغيظ من مقاييس القوة والصلابة (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب)[٣].

ولأن كظم الغيظ فيه تغلبٌ على النفس، ونقلةٌ من فضيلة (الكظم) إلى رذيلة (الغضب) فقد رفع الله تعالى من شأن فاعليه، ووعدهم بجزيل الثواب والأجر (من كظم غيظاً، وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق؛ حتى يخيره من أى حور العين شاء)[٤].

وقد أوضحت الأحاديث النبوية سُبل كظم الغيظ، وقدمت معينات للتغلب على الغضب؛ منها الوضوء (إن الغضب من الشيطان وان الشيطان خلق من النار، إنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ)[٥] ومنها تغيير وضع الجسم (إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس؛ فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع)[٦] ومنها الاستعاذة (إنى لأعرف كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)[٧].

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٣) رواه أحمد عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما.
(٤) رواه أبو داود والترمذى عن معاذ بن أنس رضى الله عنه.
(٥) رواه أو داود عن أبى وائل رضى الله عنه.
(٦) رواه أبو داود عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه.
(٧) رواه أبو داود والترمذى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه.

والمسلم قوى النفس والعزيمة والإرادة، وهو بذلك متغلب على نفسه، موجه لها، لايتعجل فى ردود أفعاله، وإنما يكظم غيظه، ابتغاء الأجر والثوب.

وفى المجتمع المسلم لاينفعل الأفراد لتوافه الأمور، ولا تأخذهم عواصف النفس الهوجاء، ولا تطيح بهم الشياطين؛ ولا تجد مُدخلاً لنفوسهم، ولا تصيرهم كلمات عابرة. وبذا تنضبط انفعالاتهم وأفعالهم، ويتغلبون على شياطينهم، مستعنين بإيمانهم وقوة نفوسهم وترفعهم عن الصغائر والموبقات.

٤ ـ **الحسد : المسلم محب الخير لغيره ،** بل يؤثر الآخرين على نفسه. وبذا فإنه لا يحسد أحداً، ويبغض هذا الخلق ويمقته؛ لأنه اعتراض على قسمة الله وفضله ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ من فَضْلِه**﴾[النساء:٥٤]. ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾[الزخرف:٣٢].

وصورتا الحسد مذمومتان، أكان ذلك بتمنى زوال النعمة عن الغير، وحصوله له، أو كان بتمنى زوالها ولو لم تحصل له. والمسلم لا يحسد ولكنه يغتبط، متمنياً تحصيل نعمة خيرية (لاحسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضى بها ويعلمها)(١). والحسد هنا الغِبطة، وهو أن يتمنى مثله، وهذا محمود بل ومرغوب.

وقد أمرنا الله تعالى بالاستعاذة من الحسد والحاسدين، ذماً لفعلهم ﴿**وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**﴾ [الفلق:٥]. وجعل مرده إلى النفس الخبيثة ﴿**حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم**﴾[البقرة: ١٠٩].

---

(١) رواه الشيخان عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه.

ونهى رسول الله ﷺ عن الحسد (ولا تحاسدوا)(١) وجعله سبباً لإذهاب الحسنات ولذا جاء التحذير منه، بما فيه الردع والزجر (إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب)(٢).

والمسلم يرتقى بنفسه، وإن غالبه خاطر بشرى بشئ من ذلك، فإنه يقاومه بنفسه الكريمة، وبعزيمته، ومقاومته لنزعاتها، وبراحتها فى الطاعة، لأنه لا راحة لحسود.

وفى المجتمع المسلم تجد الاغتباط والغبطة وتمنى النعمة دون أن يرتبط ذلك بالنظر لما عند الغير. وقناعة الأفراد ورضاؤهم بما أعطاهم الله، وبما رزقهم يجعلهم أكثر راحةً وقناعةً بما وهبهم الله سبحانه. وبذا فليس ثمة تعلق بما أعطاه الله لغيرهم. وبذا ينافى إيمانهم أن يتحاسدوا ففيه ألم للقلب ومساءته، وفيه العداوة والبغضاء، وخبث للنفس وشحها.

٥ ـ العجب(*) : وهو خلق مذموم فى كتاب الله، وسببٌ للهلاك ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾[التوبة: ٣٥]. وفيه تباه بالنفس فى غير محله ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾[النجم:٣٢]. وفيه استعظام للعمل، يُحبطه ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ﴾[البقرة: ٢٦٤].

والمسلم لا يتسم بالعجب ولا بالغرور، لأن ذلك من معوقات الكمال، ومن أعظم المهالك، فقد تنقلب النعمة إلى نقمة، والعز إلى ذل، والقوة إلى ضعف. فقد أعجب إبليس بنفسه، فحلت عليه اللعنة، وأعجب قوم عاد

---

(١) جزء من حديث جامع، رواه الشيخان وغيرهما عن أنس رضى الله عنه.

(٢) رواه أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(*) فى الأدبيات العربية ـ التراثية ـ نصوص غايةٌ فى الروعة والبيان فى ذم العُجب، واعتباره داء ومنها ما ذكره ابن حزم الأندلسى فى كتابه (طوق الحمامة) عن مصادر عجب الإنسان بنفسه، فحللهما ونقدها وأبان وجه الفساد فيها. (وفى الرجوع إلى النص الأصلى كثير فائدة للقارئ المسلم إن شاء الله تعالى).

بقوتهم فأذاقهم الله عذاب الخزى، وأعجب أصحاب رسول الله ﷺ بكثرتهم فأصيبوا بهزيمة مريرة.

وصوره العُجب كلها مذمومة، اغتراراً بالعلم وبكثرة المعارف، وهذا يدفع صاحبه على عدم الاستزادة من العلم، واحتقار غيره. وإعجاباً بوفرة المال وكثرة العرض؛ ممايدفع صاحبه للتعالى على الخلق. وعجباً بالقوة والسلطان. وعجباً بالعبادة وكثرة الطاعات، وهذا يُحبط العلم ويزهقه.

ولأن آفات العجب كثيرة **فقد عُدّ من المهلكات** (إعجاب المرء بنفسه)؛ لأنه هلاك لصاحبه؛ إذ ينسيه ذنوبه، ولايجتهد فى إزالتها. كما أنه يأمن مكر الله، ويحمد نفسه ويزكيها، ولايسمع لناصح ولا واعظ.

والمسلم لا يعجب بنفسه لأنه إن أعجب ببدنه أو بقوته أو بفطنته أو بنسبه أو بكثرة عدده أو بماله أو برأيه فهذه كلها إلى زوال، وهو يوقن أن إعجابه بشئ مما تقدم سبب لهلاكه، وهو مقرٌ بفضل الله عليه فى كل شئ، وينسب الفضل لخالقه ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١]

وفى المجتمع المسلم يحول علم الأفراد دون عُجبهم، لأن العُجب دلالة على الجهل، وتعبير عن قصر النظر، لأن النعم قد تتحول إلى نقم. وقد يحبط الله العمل لعجب أصحابه به .. فبدلا أن يُعجب بالنعم عليه أن يؤدى شكرها وحق الله فيها.

ويقين المسلم بأن ما أعطاه الله من نعم قد يسلبها منه ـ لوشاء سبحانه ـ وأن طاعته لله مهما كثرت لا تساوى شيئاً مما أنعم الله به، وأن مالديه من نعم إنما هو من فضل الله وعطائه. هذا اليقين ينأى بأفراد المجتمع المسلم عن العجب والاغترار والتباهى والتفاخر والتعالى.

٦ ـ البخل : وهو خلق قبيح مذموم ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾[الليل :٨-١١] .

فالشح غلبة للنفس ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [**التغابن**:١٦]. وهو شر ووبال ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [**التوبة**: ٣٤]. ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾[**آل عمران**: ١٨٠].

وأفادت الأحاديث النبوية أن البخل مهلكة (اتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)[١] وأن العطاء والكرم خيرٌ لصاحبه (إنك إن تبذل الفضل خيرٌ لك وإن تمسكه شرلك)[٢] وهو وقاية من النار «اتقوا النار ولو بشق تمرة»[٣].

والمسلم لا يكون بخيلاً، لأن البخل قسوة للقلب، وسوء للخلق، وطمع زائد، وحرص مقيت، ومنع للحق، وتفريط فى حق المحتاجين، واغترار بالمال وفرح به، وإمساك للفضل عن أهله «اللهم أعط ممسكاً تلفاً» [٤].

ونقرر أن الإسلام يقوم على البذل والعطاء، ويحبب النفس السخية، واليد الندية. ويحث على المسارعة إلى وجوه البر، وفعل الخير، وإسداء العون، وصنع المعروف، والمال عون فى كل ما تقدم، ولذا فإن نجاح المسلم فى إزالة عوائق البخل وشح النفس، التى تعترض طريق الخير هو فضيلة كاملة، وهو سمو استحق تكفير الذنوب ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [**البقرة**:٢٧١]. وهو مضاعفة للمال ﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[**التغابن**: ١٧]. وإطفاء لغضب الرب سبحانه ، وإبطال لكيد الشيطان ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [**البقرة**: ٢٦٨].

---

(١) رواه مسلم عن جابر رضى الله عنه.
(٢) رواه مسلم عن صدى بن عجلان رضى الله عنه.
(٣) رواه الشيخان عن عدى بن حاتم رضى الله عنه.
(٤) رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه.

والمسلم بعيد عن البخل، لأنه يعلم أن المال أمانة عنده، وليس له منه إلا ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأقنى (أبقى)، وما سوى ذلك سيرثه غيره ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦]، ورغم دعوة الشريعة بصون الذرية من الفقر، ومنعهم من العيلة؛ لكن ذلك لا ينبغى أن يتم على حساب دين المسلم وخلقه؛ لأنه من الحماقة أن يُضحى بنفسه وبرضوان الله، ليدخر لغيره من بعده.

كما أن البخل بالحقوق وكنزها للأولاد لا يمحو فقراً، ولا يضمر غنى، ولا يقبل من صاحبه عذراً يوم القيامة.

وفى المجتمع المسلم ترى آثار البذل والكرم والسخاء فى مساعدة الفقراء والبؤساء وفى تجاوز شح النفس، وبذل المال، وإعطاء القرض الحسن، الذى يخلفه الله بالخير على فاعليه ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وقناعة أفراده بأن حطام الدنيا سوف يدعونه لوارث السموات والأرض، وأنهم سيدخلون قبورهم بلا مال ولاجاه، وأنهم سيلقون ربهم عراة، هذه القناعة تجعل التشبث بالمال والتفانى فيه عبث محقق.

٧ ـ الفساد: وهو خلق يستوجب غضب الله ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]. ونهى الله تعالى عن الفساد ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:٦٠]. ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦] ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧].

وحذر عباده من الفساد، لخطورة عاقبته ﴿انظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٠٣]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١]. وأوضح جزاءهم فى الدنيا ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا

أن يُقَتَّلوا﴾ [المائدة: ٣٣]. وفى الآخرة لا نصيب لهم فى الجنة ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا ﴾[القصص: ٨٣].

وأعظم أنواع الفساد الكفر والصد عن سبيل الله، والبعد عن سبيل الله، والانحراف عن الصراط المستقيم ﴿ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾[الشعراء: ١٥١، ١٥٢].

وهناك فساد الباطن، بإدعاء الصلاح، وذلك بمخادعة أنفسهم ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢]. وفسادهم راجع لاتباع أهوائهم بدون هدى من الله ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

ومن الفساد إفساد ذات البين بين المسلمين، بالوشاية والسعاية والنميمة، ومن الإفساد إيذاء المسلمين وترويعهم ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[الأحزاب:٥٨]. وسبهم والغدر بهم وتحقيرهم.

وهناك فساد مادى، بإيقاع الظلم بالمسلمين، أو سرقة أموالهم، أو نهبها، أو الإهمال فيها. ويكون كذلك بقطع الطريق وإخافة السبيل وترويع المار.

والمسلم لايفسد فساداً ظاهراً أو باطناً، لأن الإصلاح هو خلقه وديدنه ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ﴾ [ص:٢٨]. وبذا فإنه يتجنب كل صور الفساد السابقة، ولا يخالط أهلها ﴿وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢]. ويقينه بسوء عاقبة المفسدين، وبفطرته السوية، وباستقامته مبتعد عن الفساد والإفساد، الذى استوجب عقاب الله لفرعون ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٩١]. ولقوم ثمود ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفجر: ١١، ١٢].

وفى المجتمع المسلم يُبتعد عن الفساد - بصوره السابقة- استجابة لنداء الحق ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾، ورغبة فى محبة الله ﴿اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، وبعداً عن سوء العاقبة . ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

ومقتضيات الإسلام يتسق معها عدم الفساد فى الأرض، لمنافاة ذلك لواجبات الاستخلاف فى الأرض، ومنافاة ذلك لطبيعة المسلم، الذى سلم المسلمون من لسانه ويده فلا يفسد لسانه بين الناس، ولا تفسد يداه فى الأرض.

٨ ـ **الحقد : فساد القلب داء ومرض، فالقلب الأسود يفسد الأعمال ويحبطها.** ولذا فإن المسلم مخموم القلب وهو (التقى النقى، لا إثم فيه ولابغى ، ولاغل ولاحسد)[١] لأنه عندما يتسرب الحقد إلى قلبه،وعندما تنمو الضغائن فى داخله فإن الإيمان يتسرب كذلك من هذا القلب. وكلما تمكنت الأحقاد من القلب زاده ذلك قسوة وجفاء وعناداً وبعداً عن الله تعالى.

وفى الأحاديث النبوية نجد توجيهات عظيمة، من شأنها إبعاد المسلم عن الحقد والغل (لاتقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا)[٢] (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال)[٣] ودلت أن ذلك من عمل الشيطان (إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب، ولكنه لم ييأس من التحريش بهم)[٤] ودلت أن ذلك من شر الأعمال (. . أفلا أنبئكم بشر من ذلك! قالوا: بلى إن شئت يارسول الله قال : من يبغض الناس ويبغضونه)[٥].

---

(١) رواه ابن ماجه عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما.
(٢) رواه البخارى عن أنس رضى الله عنه.
(٣) رواه الشيخان عن أبى أيوب رضى الله عنه.
(٤) رواه مسلم عن جابر رضى الله عنه.
(٥) رواه الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنه (وهو جزء من حديث طويل عظيم).

وقد أوضح القرآن سمات التباعض والحقد لدى الكفار بقوله ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾[**آل عمران**:١١٨]. ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [**غافر**:٥٦]. وفى المقابل جعل من سمات التفاضل فى الجنة نقاء صدور أهلها ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ [**الأعراف**: ٤٣]. ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [**الحجر**: ٤٧]. وجعل من سمات المؤمنين شفاء صدورهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [**التوبة**:١٤]. ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [**التغابن**:١١].

والمسلم لا ينبغى له أن يحقد، فسلامة الصدر تفرض عليه تمنى الخير للناس، كما أنه يأسى لآلام العباد، ويرجو لهم العافية، أما الانشغال بكشف الستور، وإبداء العورات، وسرد الفضائح، فهذا لا يقوم به مسلم حق، فالإسلام شرع آداباً لحفظ المودات، وإتقاء الفرقة، وتحريم الغيبة والنميمة وكلها تقى المسلم من أمراض القلوب[1].

ولا يجتمع فى قلب مسلم سوء الظن، وتتبع العورات، واللمز، وبغض عباد الله والرغبة فى إذلالهم فالله تعالى مطلع على صدور العباد، وهذا يجعل المسلم فى منأى عن الحق والغل ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [**المائدة**: ٧]. ﴿أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [**العنكبوت**:١٠].

كما لايجتمع فى قلبه الشحناء والحسد والضغانة، فهو لا يبات حاقداً على أحد ولا ضاغناً على مسلم، لأن هذا يناقض الإيمان الصحيح، لأن

(١) عنى السلف بأمراض القلوب وأقسامها وعلاجها، ونوصى القارئ الكريم بمطالعة أمثال هذه المؤلفات، لأن فيها رصداً لخفايا القلوب وأسرارها وحياتها وصحتها. ومن ذلك مؤلف ابن قيم الجوزية (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان) ففى الجزء الأول منه فصل القول عن أقسام القلوب وعلامات مرضها ودوائها وزكاتها وطهارتها وعلاجها.. إلخ.

حقده هو فساد ليقينه الكامل بأنه لن ينال من الدنيا إلا ما قدره الله له، وأن غله وحقده يورثان عليه الفاقة وسوء الظن والانشغال بالآخرين، وهذا ضعف فى اليقين، وسوء تقدير، وجهل بواجبات اليقين ومستلزماته.

٩ ـ الغش : المسلم ينصح لإخوانه، ويحبهم، وبذا فليس له أن يغش أحداً؛ لأن ذلك قبح لا يكون للمسلم، فطهارة نفسه المكتسبة من إيمانه وعمله الصالح تنافى هذا الخلق الذميم، الذى هو نشر محض وقد نهانا الله عن ذلك ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا**﴾ [**الأحزاب**: ٥٨]. ﴿**وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ**﴾[**فاطر**:٤٣]. وفى الأحاديث النبوية تعضيد لذلك (من غشنا فليس منا)[١] ونهى عن خديعة المسلم (من بايعت فقل لاخلابة)[٢] والخلابة أى الخديعة.

ومن صور الغش ـ وكلها قبيحة ـ تزيين المسلم لأخيه القبيح أو الفاسد ليقع فيه، وأن يريه ظاهر الشئ؛ الطيب الصالح، ويخفى عليه باطنه الخبيث الفاسد، وأن يغشه فى مشاعره بأن يظهر له خلاف ما يضمره، وأن يعمد إلى فساد ماله عليه، أو زوجه، أو ولده، أو صديقه بالوقيعة والنميمة، وأن يعاهد على حفظ نفس أو مال أو كتمان سر ثم يخونه ويغدر»[٣].

وهناك غش آخر ذميم؛ بأن يغش الإمام رعيته، ويظلمهم، ولا يقوم بمسئوليته. وهذا عمل يستوجب عذاب الله تعالى يوم القيامة (أيما راع غش رعيته فهو فى النار)[٤]

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٣) أبو بكر الجزائرى: منهاج المسلم، القاهرة، دار عمر بن الخطاب، ب ت. ص ١٦٤.
(٤) رواه الطبرانى عن أنس رضى الله عنه.

(من استرعاه الله رعية ثم لم يحطها بنصحه يموت يوم يموت وهو غاش رعيته إلا حرم الله عليه الجنة)[١] (من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره)[٢].

والمسلم يبتعد عن كل صور الغش السابقة؛ لأنها من عمل المنافقين وضعفاء اليقين، فأنى لمسلم أن يخدع أخاه وهو جزء منه! وأنى له أن يغش والله تعالى مطلع عليه، وأنى له أن يقبح نفسه بعد أن طهره الله بالإيمان، وبعد أن صفت نفسه، وشرح الله صدره للإسلام.

١٠ ـ الجدل : المسلم لا يجادل بل يدلى بحجته، ولا يقول إلا بعلم وحق، ولا يسفه رأى الآخرين، ولايسعى للتغلب عليهم بالباطل، ولا يدفعه الجدال إلى رفض حجة الآخرين إذا كانت حقاً، وإذا وجد أن منطق الباطل مستمر لدى غيره، وكرهوا قبول الحق الذى بينه، فعليه السكوت. وهو كذلك لا يتصدى للجدال فى شئ لا يعلمه بل يحيله إلى مَنْ يعلمه. وإن خاصم لا يخاصم إلا بحق، ولاتدفعه الخصومة إلى عداء الآخرين، بل يحتفظ بمودته، يبقى هيناً ليناً (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخَصِم)[٣] الخصم أى المجادل.

والإسلام لايرفض الجدال بالحق، ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل:١٢٥]. ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦]. ولكنه يرفض الخصوم واللجاج بغير الحق ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾

---

(١) رواه البخارى عن معقل بن يسار رضى الله عنه.

(٢) رواه أبو داود والترمذى عن عمرو بن مرة رضى الله عنه.

(٣) رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها.

[الكهف:٥٦] و﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج:٨]. ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ [غافر:٣٥] ﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ [الشورى:٣٥].

ونجد أحاديث عديدة، تنهى عن الجدل، وتعتبره إحدى صور الضلال (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)[1] (المراء فى القرآن كفر)[2] والمراء أى الجدال. (أخوف ما أخاف عليكم زلة عالم وجدال منافق فى القرآن)[3] (مَنْ ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض ـ ما حولها ـ ومن تركه وهو محق بُنى له فى وسطها، ومن حسن خلقه بنى له فى أعلاها)[4].

وفى الأدبيات الإسلامية تحذير من المراء ـ الجدل ـ قال بلال بن سعيد: إذا رأيت الرجل لجوجاً مماريا معجباً برأية فقد تمت خسارته. وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: إن الخصومة لها قحم أى مهلكة. وقال ابن عباس رضى الله عنهما لاتمار أخاك فإن المراء لا تفهم حكمته، ولا تؤمن غائلته.

وأنت ترى أن المجادلة المحظورة بالترفع بإظهار العلم، والتهجم على الغير، وتهييج الغضب، وإشعال الفتنة، وتوريث الخصومة، وكثرة الشجار والخلاف، وهذه كلها مُهلكات ورذائل.

ولذا فالمسلم لا يجادل بالباطل،ولا يلج فى الخصومة، ولايعاند فى الحق، ولايؤذى مُحدثه، ولا يظهر لدوداً وتسلطاً نحوه، فالحكمة هى ضالته، وإيصالها للآخرين لا يكون إلا بحق وقبول وضبط للسان بعيداً عن الخصومة، وتوغر الصدور، وتهييج الغضب، وإذهاب المروءة، قال بعضهم (مارأيت شيئاً أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أشغل للقلب من الجدال والخصومة).

(١) رواه الترمذى عن أبى أمامة رضى الله عنه.
(٢) رواه أبو داود وابن حبان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٣) رواه الطبرانى عن معاذ رضى الله عنه.
(٤) رواه الترمذى عن أبى أمامة رضى الله عنه.

١١ ـ **آفات اللسان : المسلم يعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة منه إلا بالنطق بالخير** (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)[١] (من يضمن لى ما بين لحييه ـ أى لسانه ــ وما بين رجليه ــ فرجه ـ أضمن له الجنة)[٢] (.. وهل يُكب الناس فى النار على مناخرهم إلا من حصائد ألسنتهم)[٣]. (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول : اتق الله فينا، فإنما نحن بك: إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا)[٤] وقال الرسول الكريم ﷺ لعقبة بن عامر عندما سأله عن النجاة (امسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك)[٥] (إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يُلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالاً يهوى بها فى جنهم)[٦].

وسبيل النجاة والهداية يكون بحفظ اللسان إلا عن كلام تبدو فيه المصلحة، فمعظم مصائب العباد ومعاصيهم تتحقق باللسان، ولذا رأينا فى الأحاديث السابقة أن الإيمان وحفظ اللسان قرينان وأن طريق السلامة والنجاة لايكون إلا بإمساك اللسان، وإن أعمال أعضاء الجسد كلها مرتبطة باللسان، وأن حفظ اللسان نجاة من عذاب الله تعالى يوم القيامة.

ويتأتى الإسلام الحق بتجنب آفات اللسان وهى كثيرة، ومنها الكلام فيما لا يعنى، وترك فضول الكلام، إلا بأمر بمعروف أو نهى عن منكر، والخوض فى الباطل، والمراء والخصومة، والتقعر فى الكلام، والثرثرة، والفحش والسب وبذاءة اللسان، واللعن، والمزاح بالباطل، وإفشاء السر، والوعد

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) رواه الشيخان عن سهل بن سعد رضى الله عنه.
(٣) رواه الترمذى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه.
(٤) رواه الترمذى عن أبى سعد رضى الله عنه.
(٥) رواه الترمذى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه.
(٦) رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه.

الكاذب، واليمين الغموس، والكذب فى القول، والغيبة، والنميمة، وكلام ذى الوجهين، والمدح بالباطل والغضب، وشهادة الزور، وقذف المحصنات، والحكم بالباطل، وسب المسلم . . إلخ.

وكل آفة مما تقدم تمثل ذنباً وإثماً، ويكفينا حصرها فقط، والتأكيد على أن اللسان هو مصدر كل هذه الآفات **ونجد فى التراث أقوالاً عظيمة فى ذلك،** تؤكد خطورة اللسان وضرورة الإمساك به . . فقد كان أبو بكر الصديق يضع حصاة فى فيه، ويمنع نفسه عن الكلام، ويشير إلى لسانه قائلاً : هذا الذى أوردنى الموارد. ويقول عبدالله بن مسعود: والله الذى لا إله إلا هو ما شئ أحوج إلىَ طول سجن من لسان. وقال الحسن: ما عقل دينه مَنْ لم يحفظ لسانه. قال النخعى : يهلك الناس فى فضول المال والكلام. وقال أيضاً: الإكثار من الكلام الذى لا حاجة إليه يوجب قساوة القلب. وقال عمر بن الخطاب، من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به. وقال سميط بن عجلان. يا ابن آدم إنك ما سكت فأنت سالم، فإذا تكلمت فخذ حذرك إما لك وإما عليك. وقال وهب ابن منبه، أجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت. وقال يونس بن عبيد. ما رأيت أحداً لسانه منه على بال إلا رأيت ذلك صالحاً فى سائر عمله. وقال يحى بن كثير: ما صلح منطق رجل إلا عرفت ذلك فى سائر عمله، ولا فسد منطق رجل قط إلا عرفت ذلك فى سائر عمله.

ولذا فلسان المسلم إما ذاكراً لله تعالى، وإما داعياً إلى الحق، وإما ناهياً عن منكر، وإما ناصحاً برشد، أو واعظاً بعلم، أو مبلغاً بأمانة، أو فاصلاً ومصلحاً بحق (أى بين الناس)، وعندئذ يكون كلامه ذكراً، وصمته فكراً وتدبراً.

وفى المجتمع المسلم يتجنب أفراده آفات اللسان المتقدمة، لأنها معصية وزور وباطل، وتجد مقابل ذلك فى ضبط النفس، وصون اللسان، والدعوة للحق، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر أى أداء اللسان لوظيفته وفق يقين

بأن كل لفظة يتلفظ بها يحاسب عليها المسلم﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١] ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء:٣٦]

وبعد أن رصدنا الأخلاق الذميمة السابقة ـ القسم الثالث ـفإننا نؤكد أن نجاة المسلم وسلامته واستقامته وهدايته لاتتأتى إلا بتجنبه إياها، بتجنب ظلم العباد، وشهادة الزور، والغضب، والحسد، والعجب، والبخل، والفساد، والحقد، والغش، والمراء، وتجنب آفات اللسان. وطبيعى أن يقوم المسلم بخلافها بأن يعدل، ويقول الحق، ويكظم غيظه، ويتواضع، ويسخو، ويصلح، ولا يغش،، ولا يحسد، ولا يمارى، ولا يكذب، ولا يغتاب ولا يخوض فى الأعراض.. الخ.. وهكذا تتكامل الدائرة الإيمانية ، ويتأكد الخلق الحسن لدى المسلم، إيجاباً وسلباً، أخذاً وتركاً ، عملاً وتجنباً.

ونشير كذلك إلى أن الأخلاق التى تناولناها فى هذا القسم ليست هى كل الأخلاق الذميمة، فهناك الخيانة، وسوء الظن، والغدر، والتجسس، والاختيال، واحتقار المسلمين، والإسراف، والرشوة، والاستطالة على الخلق، والتطير والكهانة، واللطم والنياحة، والاحتكار، والعجز والكسل وإظهار الشماتة، والمن .. الخ.. بيد أننا -اتساقاً مع القسمين السابقين- اخترنا نماذج من كل قســم، وفق رؤيتنا واجتهادنا، وليس تقديماً للأهم على المهم.

وهكذا عرضنا لإحدى عشرة صفة فى كل قسم، ركزنا فى القسم الأول على الأخلاق ذات الطابع الاجتماعى، وفى الثانى على الأخلاق الحسنة، التى تميل إلى الفردية شيئاً ما، أما القسم الثالث فقد ركزنا فيه على الأخلاق الذميمة. وبذا يكون مجموع ما تناولناه ثلاثة وثلاثين خلقاً إسلامياً (أساسياً

حميداً، وفردياً حميداً، وذميماً) بخـلاف ما أشـرنا إليه فى التعقيب على كل قسـم.

ولسنا فى حاجة إلى معاودة التأكيد على أن **النسق الأخلاقى فى الإسلام - بأقسامه الثلاثة** - لاتجد له نظيراً فى أى دين آخر، سماوى أو وضعى. وهو نسق قويم، مستمد من كتاب عظيم يهدى للتى هى أقوم، ومن أحاديث نبى كريم ﷺ صانه الله عن الضلالة والغواية. ولاصلاح للمجتمع المسلم إلا بالعودة إلى هذه الأخلاقيات، فهى أداة بناء وتقويم وهداية ورشاد، واستقامة حقة فى الدنيا، ونجاة من عذاب الآخرة، على نحو ما أوضحنا فى كل خلق.

وفى البناء القيمى والخلقى فى الإسلام نجد تفرداً آخر فى النظرة للعمل، وفى توسيع دائرة العبادة، ونجد أن هذا الأمر يحتاج منا إلى كثير تفصيل ، وهذا ما سنعرض له فيما يلى:-

ثالثاً: دراسة تحليلية لقضية العمل فى الإسلام، من منظور البناء والبعث:

لا تجد ديناً يحث على العمل، ويعلى من شأنه مثل الإسلام، فمفهوم العمل فى الإسلام لا يقتصر على الأعمال البدنية فقط كالزراعة والتجارة والصناعة، ولكنه يتضمن الأعمال القلبية[1] كالغضب والرضى والحسد والحقد وحب الخير للناس، والأعمال الفكرية مثل التأمل والتدبر والتفكر فى ملكوت السموات والأرض.

ويتسع هذا المفهوم ليشمل الأعمال الدينوية، أى التى يؤديها المسلم تكسباً ومعاشاً، طالما قُصد به وجه الله، وطالما تزامنت معه نية صادقة، فالإسلام

---

(١) الأعمال القلبية منها الحسن، ومنها السيئ (القبيح). ويدخل فى أعمال القلوب الهم بالعمل، ولعله من سعة رحمة الله أن نرى هذا الفضل العميم فيما رواه ابن عباس - رضى الله عنهما - عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال « إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك: فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة» [متفق عليه].

يعتبر النية هى معيار تقويم الأعمال، وميزان رشدها وصلاحها، فإذا كانت طيبة كان العمل طيباً، وإن كانت خبيثة كان العمل خبيثاً (وإنما لكل إمرئ ما نوى).

ومن هنا فإننا نؤكد أن الإسلام لا يفصل بين العمل والإيمان[1] ولا بين العمل والعبادة، فقيمة العمل تعلو بإيمان يغذيه ويحميه؛ فكل عمل لا يقوم على إيمان صادق فهو محبط الأجر، ويجعله الله هباءً منثوراً. **﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾** [**الفرقان**:٢٣]. **﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾**

[**الكهف**: ١٠٣، ١٠٤]

وليس ثمة فصل بين العمل والعبادة؛ فالمسلم لا تكتمل عبادته مهما أدى من صلاة أو صيام أو صدقات إذا كان يغش فى عمله، أو تأكل أموال الناس بالباطل، أو يهمل عملاً نافعاً للوطن. شعور المسلم بالمراقبة يجعله لا يفصل بين عبادته فى المسجد وبين عمله فى المصنع أو المتجر؛ فالله تعالى الذى يصلى له فى المسجد هو معه فى مصنعه. وينبغى أن تكون عبادته دافعة له لإتقان عمله وعون العبد فى إنجازها، ويقينه أنه مسئول أمام الله عما عهد إليه من حقوق وأعمال وأمانة تضاعف المسئولية عليه، ويشتد حسابه لنفسه.

ويجد المسلم نفسه فى عبادة دائمة؛ فعمله الدنيوى يبتغى به محبة الله ورضوانه، ففى تجارته ييسر على عباد الله، ولا يربح إلا حلالاً، وفى زراعته وصناعته يسهم فى بناء المجتمع المسلم، وفى تعليمه ـ متعلماً أو معلماً ـ يبتغى الحق والثواب، فالنية الصالحة تجعل العمل صالحاً مقبولاً عند الله تعالى يثاب عليه صاحبه.

---

(١) فى القرآن الكريم تجد مساواة بين العاملين والمجاهدين، فقد عذر اللهُ العمال ـ العاملين ـ الكادحين وأعفاهم من قيام الليل كالمجاهدين فى سبيله ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[المزمل: ٢٠].

ويقرر القرآن الكريم أن جزاء العمل ـ الصالح ـ هو الحياة ـ الطيبة ـ والسعادة في الدنيا والآخرة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧]. ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ [الرعد:٢٩] [١].

كما قرن القرآن الكريم بين العمل وبين الجهاد فى سبيل الله، قال الله تعالى: ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [المزمل:٢٠].

ويلفت القرآن إلى عنصر المراقبة فى كل أعمالنا، ووجوب الإخلاص فيها ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦١].

وتتجه الوصايا النبوية إلى إعلاء قيمة العمل -بشتى صوره- والتأكيد على أن السعى فى طلب الرزق عبادة؛ قد تتفوق على العبادات المعروفة إذا أحسن أداؤها (إن من الذنوب ما لا يكفره إلا السعى فى طلب الرزق)[٢] كما أنه وسيلة للمغفرة (من أمسى كالاً من عمل يده بات مغفوراً له)[٣] ونجد الربط بين العمل والجهاد فى سبيل الله فى قوله ﷺ «عندما خرج عليه رجل قوى البدن مفتول العضلات فقال بعض الصحابة: لو كان هذا فى سبيل الله. فقال : إن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على ولد صغار فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسها يعفها فهو فى سبيل الله»[٤] ونجد تكريم رسول الله للعمال «فقد جاء رجل ذات يوم فمد الرسول ﷺ يده ليسلم عليه، ولكن

---

(١) المتأمل لآيات الذكر الحكيم يجد ربطاً بين الإيمان والعمل فى أكثر من خمسة وستين موضعاً حيث يتقدم الإيمان على العمل فيها وبخاصة فى صيغتى (عَمِل) و(عَمِلوا) وذلك مثل ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ﴾ [الكهف:٨٨]. ومثل ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾[البقرة:٢٥].

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط، وأبو نعيم فى الحلية عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

(٤) رواه الطبرانى فى معاجمه الثلاثة من حديث كعب بن عجرة رضى الله عنه.

الرجل منع يده على السلام فسأله الرسول الكريم: لمَّ منعت يدك عن السلام فأجاب الرجل يارسول الله: يداى خشنتان وأخشى أن تؤذياك فسأله الرسول: وممّ؟ فأجاب الرجل: من أثر العمل يارسول الله، فإذا برسول الله يرفع كلتا يدى الرجل، ويقبلهما قائلاً: كفان يحبهما الله ورسوله»[١].

ونجد تفضيلاً نبوياً لأوجه الخير المتصلة بالعمل والنفقة، وخاصة ما يتجه من ثمار ذلك إلى ذوى القربى (إنك لن تنفق نفقة إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل فى فم امرأتك)[٢].

وسنتوقف مع أحاديث مشابهة لهذا الحديث بعد قليل.

وحرصاً من الإسلام على أداء أفضل للعمل، فقد ألزم الحكومات وولاة الأمر بمساعدة العمال، وتيسير حياة كريمة لهم، والأخذ بأيديهم للسُكنى المناسبة، وتزويجهم، وتسهيل نقلهم لعملهم. كما كفل لهم حق التأمين إذا حدث عجز عن العمل، أو تقاعد لسبب ما.

وفى أحاديث النبى الكريم ﷺ نجد الدعوة الفريدة بتواصل العمل والغرس حتى وإن قامت الساعة (إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها؛ فليغرسها فله بذلك أجر)[٣] ويؤكد الحديث حقيقة مهمة؛ وهى أنه ليس هناك طريق للآخرة اسمه العبادة، وطريق للدنيا اسمه العمل. وإنما هو طريق واحد للآخرة أوله فى الدنيا، وآخره فى الآخرة. وهو طريق لا يفترق فيه العمل عن العبادة، ولا العبادة عن العمل. فكلاهما شئ واحد، وكلاهما فى نظر الإسلام يسير جنباً إلى جنب فى طريق واحد، هو الطريق إلى العمل لله إلى آخر لحظات العمر، وإلى آخر خطوة من خطوات الحياة. وهذا تأكيد لقيمة العمل فى الإسلام، والحض عليه، وإعلاء قدره وإبرازه على أنه الطريق للآخرة؛ ولا طريق سواه.

---

(١) رواه الخطيب البغدادى من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٢) متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه.

(٣) رواه أنس بن مالك رضى الله عنه بإسناد حسن (الحديث ورد فى المُنتخب)

وتجد فى فلسفة القرآن الكريم فى الربط بين طريق الدنيا والآخرة ما يعد ثوابت فى الفكر الإسلامى ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[القصص:٧٧]. ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[الأعراف:٣٢].

وثمّ درس عظيم نخلص إليه من الحديث الشريف والآيتين؛ فالدين ليس عزلة عن الحياة، وإنما هو صميم الحياة، وفى النهج الإسلامى تسير حياتنا باسم الله : طعامنا وزواجنا وتعليمنا وعملنا. ولا فرق بين عمل للدينا وآخر للآخرة. المهم أن جلال العمل يحقق بتحقيق الصلة والاتصال بالله تعالى، وأن خدمة الآخرة لا يكون إلا بإصلاح الدينا، ولا وصول للآخرة إلا عن طريق تعمير الأرض وغرس الفسيلة[1].

وأنت ترى أن العمل فى الأرض لا ينبغى أن ينقطع لحظة واحدة، بسبب اليأس من النتيجة فقد بنى المسلمون وهم يؤمنون بدينهم ويعملون به أروع حضارات الأرض وأخلدها دون انحراف عن منهج الله.

وكان للزراعة نصيب كبير فى حضارة المسلمين، فالزراعة هى إخراج لخيرات الأرض، وإعداد لقوت الجماهير المسلمة، ولذا عدت ثواباً، وفريضة لا ينبغى التفريط فيها؛ فهى عمل عمرانى يكفل مصالح العباد، ويشبع العانى والمحتاج. ولذا رفع الإسلام من شأنها، كما رفع من شأن التجارة؛ خدمة لاقتصاد المسلمين، فالتاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء. مثل الزراعة والتجارة كل حرفة؛ يتكسب بها المسلم، ويقيم بها حياته؛ فأفضل الكسب عمل الرجل بيده وأفضل طعام يأكله المسلم إنما يكون من

---

(١) تعمير الأرض لا تحسبه عملاً دنيوياً؛ فهو عمل متصل بالتمكين فى الأرض، ويثاب عليه فاعله. وهذا العمل ينتقل صاحبه إلى قبره. ويظل ثوابه خالداً مستمراً جارياً. يقول ﷺ (سبع يجرى للعبد أجرهن وهو فى قبره بعد موته : من علم علماً، أو كرى نهراً، أو حفر بئراً، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجداً، أو ورث مصحفاً، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته) وهكذا فإن هذه الأعمال -بشقيها- قد نالت مثوبة وشرفاً وعظمة فى الجزاء.

عمل يده؛ اقتداء بالأنبياء الذين عملوا وجاهدوا ونقبوا فى الأرض، ولم يبخلوا بجهد مادى[1].

وعندما يضرب المسلم فى الأرض؛ كان مغيراً لقدميه وموجهاً لهما للعبادة (الصلاة)، أو موجهاً لهما فى أرجاء الحياة (العمل والكدح)؛ وكلاهما دين قويم، وصراط مستقيم، وكلاهما فى محراب الحياة الفاضلة.

وعندما ينفق المسلم، فليست صدقته هى العبادة فقط؛ فنفقته على نفسه وعلى أهله زكاة متقبلة (دينار أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك)[2].

وإنفاق المسلم على عمله إنما هو ثمرة كفاحه وكده، ولذا نجد دعوات صريحة فى القرآن العظيم بالسعى فى مناكب الأرض، وأخذ الطيبات من الرزق، والأكل مما عملته الأيدى، وتحبيب العمل، ومحاربة العجز والكسب والفقر، فأعظم الصدقة أجراً، (أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى)[3].

---

(١) الثابت أن أنبياء الله كانوا يعملون ويحترفون مهناً، وقد كان رسول الله ﷺ صاحب طاقة كبيرة على العمل والحياة؛ مهما تباينت الظروف واختلفت الأحوال؛ فقد رفع الأحجار مع أصحابه فى بناء المسجد وفى حفر الخندق. وقد علّم أصحابه أن الاستسلام لشهوات البطن سقوط بهمة المسلم، وخور فى عزيمته، وضعف فى يقينه، وتغلب للشيطان. ولذا يقول ﷺ واصفاً هؤلاء المتخمين العاجزين عن العمل (إن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم، فضعفت قلوبهم، وجمعت شهواتهم) وقال (إنما أخشى عليكم شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى) وقال (إن شرار أمتى الذين غُذوا بالنعيم، وبنيت عليه أجسامهم).

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه. والحديث لا يقلل من شأن الإنفاق فى وجوه الخير ـ التى فصلها ـ فهذا الأمر حسمته الأحاديث الأخرى. وإنما المقصود هو كفالة الأسرة، ورعاية الآخرين وإعداد النشء الصالح، وتكوين البيت المسلم، وتوفير حاجاتهم، وإغناؤهم عن السؤال والتسول، وإعفافهم وهكذا يكون الإنفاق على الأهل أشبه بالجهاد فى سبيل الله. ومن عظمة هذا الدين توجيهه العناية للأسرة المسلمة، وتزكية ملكاتها، وتنسيق إنتاجها. ونقلها إلى حالة القوة والعطاء بدلاً من الضعف والوهن، والارتقاء بمستواها، ودفعها للعمل والإنتاج بدلاً من العجز والتسول وانتظار عطاء الآخرين.

(٣) رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه.

بل يمتد أجر العمل - ليس وقفاً على الأهل - ليشمل أنواعاً من المخلوقات، أصابت شيئاً من نتاج عمل المسلم، وثمار ما غرست يداه (فلايغرس المسلم غرساً فيأكل منه إنسان، ولا دابة، ولاطير إلا كان له به صدقة إلى يوم القيامة)(١).

ولأن عمل المسلم يعد معروفاً، لأنه به يصون نفسه، ويخدم غيره، وينفع المجتمع المسلم، فإنه مثاب على ذلك لقوله ﷺ (كل معروف صدقة)(٢).

ولانه لايحدث تقدم ملموس فى المجتمع المسلم إلا بالعمل والجد والكد، فإننا نتساءل: هل ثمة تعارض بين الرفاهية وبين الإسلام؟

الحق أن الإسلام يقدم معايير للتقدم والرفاهية، متصلة بإقبال الدنيا وزينتها والخير الوفير والرزق منها قوله ﷺ «إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها، إنه لا يأتى الخير بالشر، وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً، أو يلم. وإن هذا المال خضرة حلوة؛ فمن أخذه بحقه، ووضعه فى حقه، فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذى يأكل ولايشبع، ويكون شهيداً عليهم يوم القيامة»(٣).

ونلتمس جانب التقدم والرفاهية فى الحديث، إلا أنه تقدم إلى الأسوأ، وذلك حينما توضع الأمور فى غير موضعها، وحينما تكثر النعم، وتقبل الدنيا، وتستشرى القمة، ولا يؤدى حق الله. وهذه هى الرفاهية المذمومة.

ولكن عندما تؤدى الحقوق، ويعطى الفقراء حقهم، ويكون الاعتدال وعدم الإسراف والتوسط هو نمط الحياة فإن الرفاهية هنا محمودة، لأنها تسير وفق منهج الله تعالى، ولا تتغلب فيها الملذات والشهوات والتخمة.

---

(١) رواه مسلم عن جابر بن عبدالله رضى الله عنه.
(٢) رواه البخارى عن جابر بن عبدالله رضى الله عنه.
(٣) رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه. والحبط : امتلاء البطن بالطعام والتُخمة أو يلم : أى يقارب الموت.

والحديث المتقدم ـ لا يبتعد كثيراً عن وصف لواقعنا الإسلامى، إذ نرى دولاً قد أكلت وأتخمت، وأخرى وصلت لحد من الفقر والجدب يدمى القلب، دون أن تأخذ حظها من أصحاب الوفرة. والشئ نفسه داخل البلد المسلم الواحد، إذ ترى أصحاب السيارات الفارهة والقصور الفخمة فى نعيمهم، وبجوارهم أو أمامهم أو خلفهم من لايملكون قوت يومهم، ولايكادون يتاح لهم حد الكفاف، وأدنى وسائل العيش اليسير.

وثمّ حديث آخر، يعضد المعنى السابق، ويصف واقعنا، ويزيده وضوحاً (والذى نفسى بيده ليفتحن عليكم فارس الروم، ولتصبن عليكم الدنيا صباً، وليكثرن عندكم الخبز واللحم حتى لا يذكر على كثير منه اسم الله)[1].

والحديث يقدم أمثلة للرفاهية، فى زيادة الدخل العام والفردى؛ وفى وفرة الغذاء النباتى والحيوانى وفى انتشار الترف فى الطعام. وفى مقابل ذلك نسيان الخالق سبحانه، وعدم التحدث بنعمه. وهذا النوع من الرفاهية، الذى يكثر فيه النعيم، وينسى فيه المنعم، هو مذموم ولا شك.

والإسلام لا يعارض الرفاهية، التى تؤدى فيها الحقوق والواجبات، والتى لا يخدع فيها بمظاهر الدنيا، والتى لا يرتبط فيها النعيم بالغفلة والنسيان.

وهنا نقرر أن الدنيا ـ بصورتها التى رسمها الحديث ـ دنيا الرفاهية المذمومة والغفلة والبلادة والذهول عن الواجبات، والجرى وراء الشهوات هى مذمومة، لأنها مشغلة عن العمل الحق وعن ذكر الله، وغير دافعة للإنتاج والتقدم، وملهاة عن الآخرة، ولا يتعلق بها إلا البخلاء والجبناء وطلاب الظهور والمنافقون ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[**هود**: ١٥، ١٦].

---

(١) رواه الطبرانى عن عبدالله بن يسير رضى الله عنه.

وتكون غير مذمومة، عندما تكون مزرعة طيبة للآخرة، ومرفداً للعمل الصالح، وسبيلاً للتزود من الخير والطاعات، والتغلب على الشيطان، ومحاربة الشهوات، وعندما يصفو القلب لله، وينقى العمل من الرياء، وتصدق النوايا مع الله ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [البقرة: ٢٠١]. ﴿**فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٨].

وفى نهاية تناولنا القضية العلم فى الإسلام فإننا نرصد أمرين على قدر من الأهمية:

أولاً: الجزاء عند الله تعالى ليس على **حجم العمل أو نوعيته، بل على درجة الإخلاص والإحسان** فيه، وأن العمل مهما صغر فإن المسلم مثاب عليه، ويدخل فى نطاق العبادة، يجسد ذلك قول ﷺ «كل سُلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، تعدل بين الاثنين صدقة. وتعين الرجل فى دابته. فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»[1].

فالأعمال ـ التى تحسبها صغيرة ـ هى عظيمة عند الله تعالى، فإفراغك من دلوك فى دلو أخيك، وتذليل صعاب الطريق، ومساعدة الرجل فى ركوب دابته أو متاعه كلها صدقات؛ تعدل الصلاة والكلمة الطيبة.

ثانياً : الغاية من حياتنا على العموم هى عبادة الله تعالى، وبذا يلزمنا أن تأتى أعمالنا على أنها عبادة لله تعالى فأعمالنا العملية هى تحقيق للعبادة، وعندما نأتيها بوعى، ونأتى كل أعمالنا الإنسانية -الروحية والمادية دون فصل- مقرونة بإيمان ونية ويقين أن هذا العمل عبادة حقه.

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه. والسُلامى أى العضو.

ورغم أن الاصطلاح جرى على أن العبادة هى العبادات المشروعة كالصلاة فهذا المعنى خاص، أما معناها العام فهو كل قول أو عمل أو فعل للمسلم، تتجه فيه النية إلى الله، ويدخل فى هذا العمل الدينوى - كما أشرنا ـــ وإن كان فيه حظ النفس والشهوة وقضاء الوطر، فهذا يدخل فى العبادة «وفى بضع أحدكم صدقة قالوا: يارسول الله أياتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزراً فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر»[١].

ونقرر هنا أن كل أعمال المسلم وأقواله تأخذ طابع العبادة، ولو كانت محض أعمال دينوية كالأكل والشرب والسعى فى طلب الرزق؛ مادامت نية الطاعة وراء هذا كله.

بل إن الامتناع عن فعل المحرمات يدخل فى معنى (العبادة) أيضا ، إذا توافر الشرط السابق، وهذا نوع من العبادة السلبية؛ ففى حديث النفر الثلاثة[٢] الذين كانوا فى الغار، أغلقته صخرة من الجبل، حين استشفع ثانيهم بامتناعه عن الزنا بابنة عمه؛ التى كان يحبها أشد الحب لما ناشدته الله، فامتنع طاعة لله وابتغاء مرضاته. وبذا يكون الامتناع عبادة، أثيب عليه فاعله.

وهنا تكون حياة المسلم كلها تحقيقاً لمعنى العبادة بمفهومها الواسع الشامل، وهو بعض ما يفهم من قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[**الذاريات**:٥٦]. ولا تتحقق الحياة الصحيحة عندما يُفصل فيها الدين عن الحياة، وعندما يقتصر فهم العبادة على العبادات المخصوصة، وعندما يقتصر فهم العمل على أنه العمل الدنيوى فقط.

وهكذا رصدنا قضية العمل فى الإسلام، والمضمون التعبدى لها، والرؤية الشمولية للإسلام فى ذلك فإننا نؤكد أننا ركزنا على الجانب القيمى

---

(١) رواه مسلم عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه. والبضع أى الجماع.

(٢) رواه الشيخان عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما وهو حديث عظيم المعنى والفائدة.

والأخلاقى للعمل فى الإسلام، وأن معالجتنا استهدفت تبيان وجه الحق فى رؤية الإسلام للعمل وربطه بالعبادة، والحث عليه كقيمة خلقية فردية وجماعية، به تتحقق قوة المسلم، واليد العليا تكون له دائماً، وبه ينهض المجتمع المسلم، ويقيم حضارته على أسس إيمانية، وعلى فهم رشيد ليقيم العمل والإنتاج فى الإسلام.

وللإسلام نظرته القيمية للمال؛ وهى تتكامل مع رؤيته الواسعة للعمل، وتحقيقا للترابط فى معالجة المنظور القيمى والأخلاقى فى الإسلام، وللتكامل فى التناول، فإننا سنعرض لقضية المال فى الإسلام.

رابعاً : الجانب القيمى والاجتماعى للمال فى الإسلام:

نقرر بداية أن المال ليس غاية فى ذاته، وإنما هو وسيلة من وسائل قضاء الحوائج، وتحقيق المآرب، فمن استعمله فى هذا السبيل كان خيراً له وللمجتمع، ولذا يقول ﷺ «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[١].

وقد عدّ القرآن الكريم المال من الشهوات ، التى زينت للناس ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾[آل عمران: ١٤] . وعدّه زينة كذلك ﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً** ﴾[الكهف: ٤٦].

ولايمكن إغفال قيمة المال للعمل الإسلامى ولحركة المجتمع، فقد قيل لحكيم : لم تجمع المال وأنت حكيم! فقال : لأصون به العِرض، وأؤدى به الفرض، وأستغنى به عن القرض.

(١) رواه أحمد بن حنبل فى مسنده من حديث عمرو بن العاص رضى الله عنه.

وقيل لأحد الصالحين: لمّ تحب الدراهم والدنانير من الدنيا! فقال : هى وإن أدنتنى منها، فقد صانتنى عنها. وكان أحد الصالحين يقول : الله ارزقنى حمداً ومجداً، فإنه لا حمد إلا بفعال، ولا مجد إلا بمال.

وبذا فإنه بالمال، تصان العروض، وتحفظ الكرامة، وتوصل القربات، ويُواسى الفقراء، ويتحقق الإحسان، ويساهم فى أعمال البر والخير، وتربية الأولاد تربية صحيحة كما يستطيع المال أن يفعل الكثير فى مجال الدعوة وتبليغ الرسالة، فالمال المزكى المطهر المقبول عند الله يساهم بفاعلية فى إنشاء جيل جديد قوى متماسك؛ يملك جميع أسباب القوة، وبه تستطيع الدعوة أن تصمد أمام الحوادث[1].

والحق أن للمال سلطاناً متمكناً من النفوس، وطغياناً مدمراً لكثير من الناس؛ الذين يلهيهم المال؛ ويذهب بهم مذاهب التيه والكبرياء؛ وقد يدفعهم ذلك إلى استعباد الناس أو إذلالهم، مما يستوجب غضب الله تعالى وسخطه، وهذا ما نجده فى قصة قارون؛ الذى آتاه الله المال؛ فتكبر وفرح وطغى وتعالى فكانت عاقبته ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص:٨١]

ودعوة الإسلام لعدم الاغترار بالدنيا والزهد فى زينتها والإقلال من شأنها، وتوجيه الانتباه للآخرة واعتبار المال فتنةً، ليس معناها إهمال قيمة المال فى حياة المسلمين وفى ركب الحياة؛ أو الدعوة للفقر العام؛ فالنصوص التى أكدت المعنى السابق -الدعوة السابقة- على كثرتها؛ لم تُغفل الأثر الطيب للمال عندما يوظف توظيفاً جيداً، وهذا ما نجده فى الأحاديث التالية (فو الله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم)[2] (إن مما أخاف عليكم من بعدى

---

(١) رغم قيمة المال فى مجال الدعوة ولتلبية حاجات المجتمع المسلم، إلا أنه مهما تضخم وتكدس، لايغنى عن ذلك الفراغ المعنوى والروحى والفكرى، ولا يغنى عن مسحات الفكر، وتأملات العقل كما لا يغنى عن الفكر الدقيق ولا عن الرأى السديد، ولا يجبر كل سديد، ولا يسد كل عوز، ولا يملأ كل فراغ.

(٢) رواه الشيخان عن عمرو بن عوف الأنصارى رضى الله عنه.

ما يفتح علكيم من زهرة الدنيا وزينتها)[١] (إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء)[٢] (ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فينظر بم يرجع)[٣] (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولاتنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم)[٤] (إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال والخَلْق فلينظر إلى من هو أسفل منه)[٥] (ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس)[٦] (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)[٧] (إن لكل أمة فتنة ، وفتنة أمتى : المال)[٨] (يقول ابن آدم : مالى مالى وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت)[٩] (اطلعتُ فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء)[١٠].

وغير ذلك من أحاديث الرسول الكريم ﷺ ـ فى نفس المعنى السابق ـ ومما نجده فى أقوال الصحابة والسلف[١١] بيد أننا لا يفوتنا أن نعقب على الأحاديث المتقدمة مؤكدين؛ أن الدنيا عندما تُقبل علينا فنؤدى حقوق الله تعالى، وننصر المظلوم، ونغيث المستغيث، ونساعد المحتاج، ونقوم بواجبات الخلافة فى الأرض فعندئذ لا تكون مذمومة، ولا يخشى من إقبالها. وهذا ليس معناه أن يكون جمع

(١) رواه الشيخان عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.
(٢) رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه
(٣) رواه مسلم عن المستورد بن شداد رضى الله عنه.
(٤) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٥) رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٦) رواه ابن ماجه عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه.
(٧) رواه البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما.
(٨) رواه الترمذى عن كعب بن عياض رضى الله عنه.
(٩) رواه مسلم عن عبدالله بن الشخير رضى الله عنه.
(١٠) رواه البخارى عن عمران بن الحصين رضى الله عنه.
(١١) يمكن للقارى الكريم الاستزادة من ذلك من كتاب (جامع العلوم والحكم) لابن رجب الحنبلى، فى تفسير الحديث الأربعين (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) ص ص ٣٥٦ ـ ٣٦٤.

المال هو غايتنا كى نحقق ما تقدم بعد أن نكون قد استنفذنا طاقتنا الإيمانية والعملية فى ذلك، ولا أن تكون الدنيا هى بغيتنا وهدفنا. ولكن فى أعمال الخير والبر والعطاء نجعلها موضعاً لتحقيق هذه الأعمال، فإن أدرك المسلم نعيمها ومالها ـ بعد عمل وأخذ بالأسباب ـ فعليه أن يتقى الله فيما استخلف فيه، وإن لم يدركه ذلك فعليه أن ينظر إلى من هو أقل منه مالاً حتى يحمد الله على ما أعطاه. وعليه ألا يستكين أو يركن إلى مقام الفقر واليد السفلى.

فالمسلم يحكمه إيمان عميق بدنو الأجل والضيافة فى الدنيا واغتنام الخير فيها. ولذا فإنه إن أعطى المال فهو يوقن أنه فتنة؛ وعليه أن يتغلب بعزيمته الإيمانية وأن يسمو بنفسه وأن يرقى بروحه عن الاغترار به أو تسلطه على نفسه، وإن لم يعط المال فعسى أن يكون ذلك خيراً؛ لأنه ربما أعطى المال فلم يقم بواجباته، وقد يفسد حاله، ويتزلزل كيانه. ولذا لم يخش رسول الله ﷺ على أمته من الفقر مع أنه موجع للناس، ومُذل للنفس، ولكنه خشى من أن تُبسط لهم الدنيا؛ فيتنازعوا فيها تنازع الوحوش، وتشتعل بينهم العداوة والبغضاء، ويُذكرنا الرسول الكريم بأن الغنى الحقيقى ليس بكثرة المال ولا علو المنصب والمكانة؛ فهذا غنى زائل، لأنه عرض من أعراض الدنيا (ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس)[1].

ويعجب المرء كثيراً عندما يقرأ فى كتب الصوفية؛ فيرى نزعة قوية تميل إلى بغض المال وتحبب الزهد فالمحاسبى -وهو قدوة للصوفية- كان من أعداء المال، ولم تكن عداوته للمال عداوة هينة، لأنه ضرب على الوتر الحساس حين ذكر المسلمين بفقر الرسول الكريم، وهو يتخذ فقره ﷺ حجة على شر الغنى وإضراره بخير الدنيا والدين.

«والحق أن النبى الكريم لم يفكر فى إصلاح دنياه؛ لأنه شُغل بتبليغ الرسالة، ومن المعقول أن يلوذ الأنبياء بالفقر، ليتفرغوا لدعوتهم ورسالتهم.. ولكن كيف يصبح الفقر شريعة؟ أو كيف يصير من واجب الناس أن يعيشوا فقراء؟.

(١) رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه.

فالفقر خُلقةٌ بشعة؛ لا يطمع فى التعرف إليها رجل كريم، لأنه البلية العظمى، والنكبة الكبرى، والبلاء الماحق، والشر الملعون، وهو أقبح الصفات التى تنزه عنها الله عز وجل»[١].

والأحاديث التى ذمت الدنيا وهونت من شأنها، لا يفهم منها تعطيل العمران، أو رفض المال، والانزواء فى الأرض؛ فتقوى الدنيا فى الحديث (اتقوا الدنيا) يكون بطرح الشر فيها، وعدم الاغترار بها، وفهم حقيقتها. والإسلام عندما يذم الحياة الدنيا فذلك ليضمن حدود الاعتدال فيها، ويحجز الغرائز الجامحة بالأثرة والبغى والفساد، وتأكيد لأن الدنيا تليها حياة أعظم وأبقى وأخلد **﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]**.

وهكذا فإن الإسلام لا يبغض الدنيا لذاتها، وإنما يبغض الانكباب عليها، والتناحر من أجلها، وجمع بعضها على بعض، دون نظر من أين أتت ، ولا أين تنفق.

ولذا لكى يتجاوز المسلم فتن الدنيا والمال، ولكى يعلو عليهما، حبب الإسلام إليه خُلق السخاء والكرم والإنفاق فى سبيل الله، وهذا ما نجده فى الأحاديث التالية (لو كان لى مثل أُحد ذهباً لسرنى أن لا تمر علىّ ثلاث ليال وعندى منه شئ إلا شئ أرصده لدين)[٢] (يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى)[٣] (ما من مسلم يكسو مسلماً ثوباً إلا وكان فى حفظ الله مادام عليه منه خرقة)[٤] (ماتصدق أحدٌ بصدقة من طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ إلا أخذها الرحمن بيمينه. وإن كانت تمرة فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما

(١) محمد الغزالى : كيف نفهم الإسلام ، مرجع سابق، ص ص ٥٤-٥٥.
(٢) رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٣) رواه مسلم عن صدى بن عجلان رضى الله عنه.
(٤) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس رضى الله عنهما.

يربى أحدكم فلوه [مُهره الصغير] أو فصيله)[١] (. . وإن هذا المال خضر حلو ونعم صاحب المال هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل)[٢] (وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل فى فىِ - فم - امرأتك)[٣].

فقناعة المسلم بأن المال مفقود؛ فإنه يدخره عند الله تعالى، ويقل حرصه عليه، وإن كان مُوسعاً عليه فى الرزق فينبغى أن يكون حاله السخاء واصطناع المعروف، والتباعد عن الشح والبخل، وهذا ما أوضحناه فى حديثنا عن ذميمة البخل فى القسم الثالث.

ولعلنا نخلص إلى تقديم رؤية شمولية للمال فى الإسلام، فى النقاط التالية :

١ - المال فيه خير وشر؛ ومن عرف فوائده وغوائله؛ أمكنه أن يحترز من شره ويستدر من خيره - على نحو ما قاله الإمام الغزالى - الذى حصر فوائده الدينية فى ثلاثة أنواع هى النفقة على النفس والأهل، والصدقة، والخير العام. وحصر آفاته الدينية فى جره للمعاصى، والتعلق به، وملهاة صاحبه عن ذكر الله وله آفاته الدنيوية كالخوف والحزن والغم والهم والتعب فى دفع الحساب، وتجشم المصاعب فى جمع المال وحفظه.

كما أن المال خُلق لحكمة، وهو صلاحه لحاجات الخلق؛ فيمكن إمساكه عن صرفه إلى ما خُلق الصرف إليه، ويمكن التصرف فيه بالعدل، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ، ويُبذل حيث يجب البذل؛ فالإمساك حيث يجب البذل بخل، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير، والتوسط بينهما محمود بين الإسراف والاقتار وبين البسط والقبض.

٢ - ليس ثمة تناقض بين دعوة الإسلام إلى اتقاء الدنيا والزهد فيها، وبين دعوته للعمل والإنفاق والسخاء والكرم، وليس هناك تناقض بين القيام بواجبات الاستخلاف وبين الاغترار بالدنيا، فالعرب والمسلمون لم يعزفوا عن الدنيا - قديماً -

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) رواه الشيخان والنسائى عن أبى سعيد رضى الله عنه.

(٣) رواه الشيخان وغيرهما عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه.

ولم ينصرفوا عن علومها، ولو كانوا كذلك ما قامت لهم دولة ولا كيان. وبذا لا نتفق مع أفكار المتصوفة التى من شأنها شل حركة المسلمين وتخلفهم، وذلك بالإعراض عن الدنيا ومنافاة ذلك لطريق الله على حد قولهم.

٣ ـ يدعو الإسلام إلى كسب المال من طريق الحلال، وإنفاقه فى وجوه الخير، وفرض على صاحب المال إخراج الزكاة منه، سواء كان نقداً أو أنعاماً، أو زرعاً، أو ركازاً. وللمال شأن عظيم فى إقامة المجتمع القوى، القادر على حماية نفسه، القادر على مد العون لكل المسلمين.

٤ ـ تمتلك البلدان الإسلامية ثروة عظيمة من البترول، الذى يتفجر من باطنها، وجمع الله لها أسباب القوة المادية، وبالطاقة والمال تستطيع نشر دين الله، ونصرة باقى المسلمين، ومساعدة الجياع من إخواننا فى البلاد الأفريقية. وتسخير هذه الإمكانات فى تقديم صورة مشرقة لدين الله، وتبليغه لكل دول العالم بوسائل العلم الحديث، وبالإذاعات الإسلامية التى تتصدى للغزوات التبشيرية. وبهذه النعمة التى أنعم الله بها على هذه البلدان تستطيع أن تعطى وتساعد وتعاون، وتستطيع أن تكون ذا قرار فى القضايا العالمية، وتستطيع أن تعلى كلمة الله، وأن تكون صاحبة اليد العليا دائماً.

تعقيب وتعليق:

ناقشنا فى هذا الفصل المنظور القيمى والأخلاقى فى الإسلام كأحد مقومات البعث، مؤكدين على فعالية الأخلاقيات فى حياة المسلمين، وفى أى نهضة حضارية لهم، وذلك فى أربعة مباحث رئيسة :

فى المبحث الأول عرضنا للجانب الأخلاقى ومضامينه فى الإسلام، وذلك من خلال تأصيل نظرى لقضية الأخلاق فى الإسلام، وبيان فضل حسن الخلق وعلاماته، ورصد العلاقة بين العبادات والأخلاق، وبين الإيمان والأخلاق، وبيان الرؤية الشمولية للأخلاق فى الإسلام، ومدى تأثر الشخصية المسلمة بذلك، وإبراز رؤيتنا لفاعلية الأخلاق فى النهضة الإسلامية.

أما المبحث الثانى فقد قدمنا فيه تصنيفاً مفصلا للمنظومة الأخلاقية فى الإسلام من خلال أقسام ثلاث؛، قدمنا فى كل قسم أحد عشر خلقاً منها وذلك

فى الأخلاق الأساسية فى البناء الاجتماعى والعلائقى للمجتمع المسلم، وفى الأخلاق الفرعية الحميدة، ثم الأخلاق الذميمة. وقد أكدنا فى كل خلق منها على أثره فى سلوك المسلم كفرد، وفى المجتمع المسلم كجماعة.

وأما المبحث الثالث فتناول دراسة تحليلية لقضية العمل فى الإسلام، من منظور البناء والبعث، فأوضحنا علاقة العمل بالعبادة، وبينا فاعليته للمجتمع، ورصدنا أوجه الخير المتصلة بالعمل، وفلسفة القرآن فى الربط بين الدنيا والآخرة. ثم قدمنا معايير التقدم والرفاهية فى الإسلام. وخلصنا إلى رؤيتنا للمضمون التعبدى والجانب القيمى فى قضية العمل.

وفى المبحث الرابع : عرضنا للجانب القيمى والاجتماعى للمال فى الإسلام، وذلك ببيان رؤية القرآن الكريم للمال وقيمة المال للعمل الإسلامى، والتأكيد على أن ذم المال والدنيا إنما يكون عند الاغترار بهما وتقديمها على ما عداهما ثم ناقشنا رأى الصوفية فى المال، وبيان ضرر الفقر على المجتمع المسلم. وخلصنا إلى رؤيتنا للمضمون القيمى والحركى للمال فى الإسلام.

وهكذا . . **رأينا الصرح الشامل المتكامل للأخلاق الإسلامية،** وأنه لم يبق جانب من جوانب الحياة الإنسانية إلا وقد صاغه الإسلام صياغة أخلاقية؛ بحيث ترى هذه الأخلاق التامة الكاملة قد جمعت كل خلق حسن، ونبذت كل خلق سيىء، وبمقدار ما يأخذ الإنسان من الأولى يرتفع، وبمقدار ما يدنو من الثانية يهبط. وتصفو الشخصية الإسلامية وترقى كلما تجدها متمسكة بالأخلاق الإسلامية. وعندما تحيا الأخلاق الإسلامية من جديد نستعيد بذلك سلوكيات أجيال السالف، ويكون ذلك بداية لنهضة إسلامية حقيقية.

ومناقشتنا للجانب القيمى والأخلاقى فى الإسلام، وتأكيدنا على المضامين الإخلاقية فى الإسلام كمنطلقات للبعث والنهضة يستتبعه تناول الجانب العلمى والتعليمى والإعلامى فى الإسلام كأحد ركائز البعث؛ وهذا ما نفصله فى الفصل التالى.

الفصل الثالث

المنظور العلمي والإعلامي في الإسلام كإحدى ركائز البعث

أولاً : الجانب العلمي ومضامينه في الإسلام.

ثانياً : العلم وحضارة المسلمين بين الأمس واليوم.

ثالثاً : الجانب الإعلامي ومضامينه في الإسلام.

المنظور العلمى والإعلامى فى الإسلام
كإحدى ركائز البعث

أولاً: الجانب العلمى ومضامينه فى الإسلام:

عنى الإسلام بالعلم، وجعل طلبه فريضةً على كل مسلم ومسلمة، وعده جهاداً فى سبيل الله، ورفع من شأن أهله، وأدخلهم فى مقام الخشية.

ولم يكن العلم الذى عناه الإسلام قاصراً على ما وقر فى نفوس البعض من العلم الدينى فحسب، وإنما هو العلم بمفهومه العام، ومدلوله الشامل الذى يشمل شتى العلوم والمعارف بكل أنواعها يقول الله عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨]. وقد جمعت الآيتان الكريمتان علوم الكون المختلفة، وعدتا دراسة هذه العلوم سبيلاً لخشية الخالق سبحانه[1].

ودعوة الإسلام إلى العلم ليست فى حاجة إلى دليل، ويكفى أن نقرر أن لفظ (العلم) ورد بمشتقاته وتكراراته فى (٧٧١) موضعاً من القرآن الكريم[*] يقول الحق سبحانه ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، ويقول ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] ويقول ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. ويقول ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]. ويقول ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

---

(١) جدير بالإشارة توضيحاً لهذه الجزئية المهمة ـ أن العلم النافع فى الإسلام هو الذى يتجه إلى تكوين الإنسان الصالح، ويقوى صلته بخالقه، ويساعده على القيام بواجبات الخلافة، أكان هذا العلم دينياً أو دنيويا. المهم أن يعم نفعه لصالح الأمة، ويكون هدفه هداية الإنسان، وإقامة أمر الدين.

(*) هذا حصر لألفاظ (العلم) فقط فى القرآن الكريم، لكننا نقرر أن ألفاظ مشابهة كالفقه والتدبر والتعقل والتأمل والتبصر والنظر وما يتصل بمعانيها ووسائل تكرر فى نحو ألفى آيه قرآنية كريمة.

ولا نجد أدل على تشريف القرآن الكريم للعلم، وبيان درجته من الآية الكريمة ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]. إذ تقرر أنه بالعلم النافع يهتدى الإنسان إلى الصراط المستقيم، آخذاً فى التدبر الصحيح ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وبهذا العلم؛ الذى هو منحة ربانية عجيبة منحها الله للإنسان تفتح أسرار الكون ويبدو إعجاز الخالق ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

ولذا فإن القارئ لآيات الذكر الحكيم يجد حثاً على الاستزادة من العلم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. وعلى التأمل والبحث والنظر فى ملكوت الله ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]. ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]. . وعلى التفكر والتدبر ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩] ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]. ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]. وحث على التذكر والتبصر ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]. ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]. ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢].

(*) الآيات التى ورد فيها ذكر (العقل) فى القرآن الكريم المأخوذ من الفعل (عقل) هى تسع وأربعون آية؛ تدعو جميعها إلى إعمال العقل فى جنبات الكون، ولذا نلاحظ ارتباطها بكلمة (آية) و(آيات) فى ثلاث عشرة آية فى مثل ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]. وهذا أمر له دلالته؛ فآيات الله فى كونه وفى قرآنه تستنفر العقل الواعى لكى يدرك عظمة الله وإعجازه وإبداعه فى هذه الآى.

كما يجد دعوة إلى التعقل واستنارة البصيرة ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ٧٣]. ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤]. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون:٨٠]. ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الروم:٢٨]. ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣] (*).

ولا يخفى على القارئ أن الدعوات القرآنية سابقة الذكر لن يقوم بواجبها وحقها إلا أولوا الألباب (الذين ورد ذكرهم فى ست عشرة آية قرآنية) الذين يتأملون فى الكون، ويلتمسون العبرة، ويحسنون التدبر فى آيات الله، ويقودهم هذا إلى أداء العبادة الصحيحة، والقنوت لله تعالى، والحذر منه، ورجاء رحمته.. وهذه المعانى المتقدمة نقرأها عندما نطالع بعض هذه المواضع فى قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٩]. ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:١٩٧]. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[آل عمران: ٧] ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الرعد:١٩]. ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم:٥٢]. ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]. ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[الزمر:٩]. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ [الطلاق: ١٠].

وتأكيداً لدعوة أولى الألباب للتأمل والتعرف على جلال الله وعظمته، وبديع صنعه ومحكم آياته ورائع بيانه؛ فإننا نجد أن القرآن الكريم لا يدع موطناً فى الكون دون أن يطوف بالإنسان خلاله، ويستثير فيه النظرة التأملية، ويلفت أصحاب العقول الراجحة إلى المنهج الصحيح فى التعامل مع الكون ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[فصلت:٥٣]. وإعادة النظر فى ظواهر الكون والبحث عن حكمتها وتصاريفها؛ يُظهر لنا

حقائق نورانية، ويفتح عين البصيرة، ونزداد من الله هداية ويقيناً، وسبيل ذلك بإعمال آليات الإدراك، واستخدام الحواس استخداماً وظيفياً صحيحاً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾[المؤمنون:٧٨]. ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾ [النور:٤٤].

ووفق المنهج الإسلامى فإننا نجد أن العلم تتسع دائرته؛ ليشمل المعرفة بكل ما هو نافع من الأمور. إنه المعرفة بالكون، وبما وراء الكون، بالوجود المادى، وبالوجود الروحى، إنه العلم بمعانيه الثلاثة (العلم العقلى ــ العلم الطبيعى ــ علم الوحى) وعندئذ فإن النظرة المعرفية الإسلامية تجد الأخذ بعلوم الفلك والطبيعة والطب والجغرافيا.. الخ سبيلاً للهداية والتفقه كشأن العلوم الدينية مثل الفقه والتوحيد والحديث والسير.. الخ.

ووفقا للمنهج ذاته نجد أن دعوة الإسلام للعلم وبيان فضله جاءت تقريراً مفصلاً، يقول رسول الله ﷺ «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين»[١] وقال فى تفضيل العلم على العبادة «فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى»[٢] وقال «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[٣] وفى فضل طلب العلم يقول الرسول الكريم ﷺ «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة»[٤].

وقوله ﷺ فى بيان منزلة العلم وأهله «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله تعالى، وما والاه، وعالماً أو متعلماً»[٥] وقال «من خرج فى طلب

---

(١) متفق عليه عن معاوية رضى الله عنه.

(٢) رواه الترمذى من حديث أبى أمامة. قال: حديث حسن صحيح.

(٣) من حديث طويل رواه أبو الدرداء رضى الله عنه وإسناده حسن.

(٤) من حديث رواه أبو الدرداء وإسناده حسن.

(٥) رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه وقال: حديث حسن.

العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع[١] وقال «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[٢] وفى بيان أجر العالم يقول ﷺ «فو الله لأن يهدى الله به رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»[٣].

ويقول«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»[٤] وفى كونه مجالاً للغبطة يقول ﷺ «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها»[٥] وفى إبراز خطورة كتم العلم يقول ﷺ «من سئل عن علم فكتمه أُلجم بلجامٍ من نار»[٦] وفى الربط بين العلماء وصون العلم يقول ﷺ :«إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً من الناس. ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبْق عالماً اتخذ الناس رُءوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا أو أضلوا»[٧] وفى الحض على بذل العلم وتعليمه للناس يقول ﷺ «إن الله سبحانه وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتى النملة فى جحرها، وحتى الحوت فى البحر ليصلون على معلم الناس الخير»[٨] ويقول «أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً ثم يعلمه آخاه المسلم»[٩]، ويقول « العالم والمتعلم شريكان فى الخير، وسائر الناس لا خير

---

(١) رواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه. وقال حديث حسن.
(٢) رواه أبو داود والترمذى عن أبى الدرداء رضى الله عنه.
(٣) متفق عليه . عن سهل بن سعد رضى الله عنه.
(٤) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٥) متفق عليه عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه.
(٦) رواه أبو داود والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٧) متفق عليه عن عبدالله بن عمرو بن العاصى رضى الله عنهما.
(٨) رواه الترمذى عن أبى الدرداء رضى الله عنه.
(٩) رواه ابن ماجه.

فيه»[١] ويقول أيضاً ﷺ «إن مثل العلماء فى الأرض كمثل النجوم يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة».

وفى ترغيبه ﷺ فى طلب العلم وترحيبه بأهله يأتيه صفوان بن عسال المرادى رضى الله عنه ويقول له: يا رسول الله جئت أطلب العلم، فقال: مرحباً بطالب العلم؛ إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضاً حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب»[٢] وقوله ﷺ لصحابته: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»[٣].

ويدعونا الإسلام إلى العمل بالعلم، يقول الحق سبحانه ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾ [**الجمعة**:٥]. ولذا يقول الرسول الكريم ﷺ «من تعلم العلم لأربع دخل النار، ليباهى به العلماء أو يمارى به السفهاء، أو يقبل به وجوه الناس إليه، أو يأخذ به من الأمراء المال والحرمة والجاه والمنزلة»[٤] والعمل بالعلم يقتضى البعد عن الرياء والشهرة، وابتغاء وجه الله تعالى؛ فمن حديث طويل عن أول ثلاثة تسعر بهم النار يوم القيامة. ومنه قوله ﷺ: «فأول من يُدعى به رجل جمع القرآن، ورجل قتل فى سبيل الله، ورجل كثير المال. فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى؟ فيقول: بلى يارب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار؛ فيقول الله له: كذبت. وتقول الملائكة له: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان قارئ»[٥] ولذا يقول

---

(١) رواه أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٢) رواه أحمد والطبرانى وابن حبان والحاكم.

(٣) رواه مسلم عن عقبة بن عامر رضى الله عنه.

(٤) رواه أحمد والترمذى: ووجوه الناس أى عظماؤهم.

(٥) أخرجه الترمذى عن عقبة بن مسلم رضى الله عنه وهو جزء من حديث طويل.

الإمام أبو حامد الغزالى «الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون».

ونجد التأكيد الكريم من رسول الله ﷺ على مجالسة العلماء، وحضور مجالس العلم ففى تعقيبه ﷺ على هؤلاء الثلاثة الذين سد أحدهم فرجه فى الحلقة، وجلس الآخر خلفهم، وأدبر الثالث ذاهباً فقال : «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة، أما الأول فأوى إلى الله فأواه الله، وأما الثانى فاستحى من الله أن يؤذى الناس فاستحيا الله منه، وأما الثالث فأعرض، فأعرض الله عنه»[١] وقوله ﷺ فى تفضيله لمجلس العلم على مجلس الذكر «كلا المجلسين على خير، وأحدهما أفضل من صاحبه، وأما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه إن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم. وأما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل، وإنما بعثت معلماً»[٢] وكان عبدالله بن مسعود رضى الله عنه يقول: المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة.[٣]

وإذا كنا أشرنا للأدب النبوى فى أمور متصلة بالعلم وفضله؛ فإن الصحابة رضى الله عنهم تركوا لنا آثاراً عظيمة فى الباب ذاته، فعن ترغيب معاذ بن جبل فى العلم يقول: تعلموا العلم، فإن تعلمه لله تعالى خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار (سبل) أهل الجنة، والأنس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدِّث فى الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، يرفع الله تعالى به أقواماً، ويجعلهم فى الخير قادة وأئمة، تقتبس آثارهم، ويقتدى بفعالهم،

---

(١) رواه أصحاب السنن بإسناد جيد.
(٢) أخرجه ابن عبد البر فى جامع العلم عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما.
(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبير.

وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة فى خُلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس حتى الحيتان فى البحر وهوامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجة العليا فى الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء(١).

ويقول أبو الدرداء رضى الله عنه «ما من أحد يغدو إلى المسجد لخير يتعلمه أو يعلمه إلا كتب له أجر مجاهد، لا ينقلب إلا غانماً»(٢) ويقول أيضاً: «لأن أتعلم مسألة أحب إلى من قيام ليلة». وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول: اغد عالماً أو متعلماً، ولا تغد فيما بين ذلك، فإنما بين ذلك جاهل أو جُهل(٣). ويقول الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه: العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزكو مع النفقة، والمال تنقصه النفقة، والعلماء باقون ما بقى الدهر.

وقد أردنا بهذا العرض النظرى لآيات القرآن الكريم، ولأحاديث الرسول الكريم ﷺ ، ولكلام الصحابة رضى الله عنهم، أن نبرز أهمية العلم من وجهة النظر الإسلامية. ويبدو لنا أن هذه المضامين تحمل دلالات عظيمة فى تقدير الإسلام للعلم، وكونه عبادة حقيقية، وسبيلاً إلى فهم دينى رشيد، وإلى أداء تعبدى صحيح، اعتقاداً منا أنه ما عبد الله بشئ أفضل من فقه فى الدين، وأن الله تعالى يعبد على جهل عندما لا تكون هناك بصيرة بالعلم، ولا هداية باليقين، وعندما تضطرب المفاهيم لدى الناس، أو يأخذون أنصاف الحقائق ، أو يعتمدون على مدعى العلم من الأدعياء والجهال.

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية، وابن عبدالبر فى جامع بيان العلم.

(٢) أخرجه ابن عبدالبر فى جامعه.

(٣) أخرجه ابن عبدالبر فى جامعه.

فبهذا العلم كانت معجزة الإسلام، الذى أُيد بمعجزة عقلية علمية برهانية؛ لتبقى مستمرة غير حسية مؤقتة أو مادية عابرة، ولتكون دلالتها مستمرة، مهما تعاقبت الدهور، يعضد هذا قوله ﷺ «ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» (١) وهذا الوحى إشارة إلى النور الإلهى والعطاء السماوى الذى يتفاوت الناس فى قبول الخير، والنفع بالعلم، والانتفاع به، ولذا يقول الرسول الكريم ﷺ «مثل ما بعثنى الله (به) من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا.. وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله، ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله، الذى جئت به»(٢).

وتصنيف الناس إلى أقسام ثلاثة فى هذا الحديث من حيث انتفاعهم بالعلم والهدى ونفعهم به، وتمثيل ذلك بصور ثلاث للأرض فى تصوير نبوى كريم، يعتمد على المحس من الأشياء، يعكس تفاوت الناس فى قبولهم للهدى.. ولعلنا إذا طالعنا سيرة أصحاب النبى الكريم ﷺ فإننا نجد نقاء أرضهم فى نقاء سريرتهم؛ إذ كانت استجابتهم سريعة فى إقبالهم على العلم بعزم وإيمان، واتخذوا المساجد للصلاة والدرس معاً، وتعلموا فى الحضر والسفر، وفى المسجد والدار وكانت مساجد المسلمين منذ أُنشئت دار تعليم منذ جلس الرسول الكريم يعلم أصحابه، حتى استقلت دور العلم عن المساجد فى القرن الرابع الهجرى، بعد أن ظل المسجد مكاناً للعبادة والدرس أربعة قرون.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه..

(٢) أخرجه الشيخان عن أبى موسى رضى الله عنه.

والملمح المهم هنا أن المسلمين لم يشعروا قط أن الدنيا تنفصل فى إحساسهم عن الآخرة أو أن الدين ينفصل عن الحياة، وبهذه الروح الشاملة كانوا يأخذون العلم على أنه تحقيق المعرفة بالله؛ التى تزيدهم إيماناً وتعلقاً بالله. وذلك بتوظيف العقل فى التفكير والاكتشاف والاستنباط، ولذا أفادوا منه فى التوصل إلى قوانين ونظريات وحقائق وتطبيقات؛ مكنتهم من تعمير الأرض، ومعرفة الأسرار الكونية.

ولذا فقد نبغ المسلمون فى كافة ميادين العلم والمعرفة، وكانوا أصحاب النهضة العلمية فى شتى المجالات، ولم تعزلهم عقيدتهم عن البحث فى العلوم الطبيعية؛ بل عدت ذلك عبادة وسياحة روحانية فى آفاق الكون(١) وكان ولعهم بالعلوم الكونية والفنون والآداب وترجمتهم الواسعة فى الثقافات الأخرى واستيعابهم لها مثار دهشة العلماء والباحثين.

وإذا كانت العلوم النافعة هى المستمدة من الوحى أى العلوم الشرعية فإنه يبدو لنا أن العلوم الكونية، وهى التى تهدى إلى التعرف على سنن الله فى كونه، وأسراره فى خلقه، لا تقل فى أهميتها عن دراسة العلوم الشرعية. فالإجادة فى هذه العلوم عون على عمارة الكون وإظهار أسرار الله فى الإعجاز الكونى. فتعلم أصول الزراعة والطب والهندسة، والسعى لتقديم مخترعات وإنجازات علمية إلى غير ذلك هو علم نافع؛ يتحقق به النفع، وترجى منه المصلحة، ويكون طلبه عبادة مع صحة النية، وسلامة الطوية. ومع استقامة المقصد، وسمو الهدف أى مع وجود عنصر الإخلاص فى

(١) حول هذا المعنى يقول الأستاذ الشيخ محمد الغزالى «إن دراسة العلوم الحديثة واجب إسلامى أول، وأن أى عقل نظيف يدرك أن هذه الدراسة امتداد محتوم لحديث القرآن الكريم عن الكون، وأن نتائج الجهود العقلية الذكية دعم للإيمان الصحيح، ودمغ للإلحاد. ودراسة هذه العلوم أولى من التوفر على تفاصيل فقهية ما كان يعرفها الصحابة رضوان الله عليهم. (علل وأدوية/ ١١٤)

طلبه. أما كان غير ذلك فهو علم غير نافع، قد يضر صاحبه ويكون فتنة ووبالاً عليه، خاصة إذا لم يفد منه صاحبه(١).

وهذه العلوم الطبيعية والبيولوجية - المشار إليها — من أخصب المجالات التى يمكن للإنسان أن يكتسب فيها تلك المعرفة، التى تساعده على العمل الصالح، الذى يتقرب به إلى الله تعالى، فمن خلالها يعرف الإنسان نفسه، ومن ثم يعرف قدره، وحدود دوره المرسوم له فى هذه الحياة الدنيا. ومن خلال دراسته لهذه العلوم يتعرف على بيئته، وما سخر الله تعالى له من دواب، والفلك، والأنعام، والشمس، والقمر ، والنجوم.

فالقصد من جميع المعارف والعلوم هو معرفة الله تعالى، والإقرار بوحدانيته، ووجوده سبحانه وعلى حظ قدر المرء من المعرفة تكون خشيته لربه، وطاعته، ومحبته، ورضاؤه بقضائه وقدره. ولذا فإن العقل المستقيم والفكر المتدبر والفهم الواعى لا يتحقق إلا بالتفكير فى ظواهر الكون المختلفة، والتأمل فى عجائب صنع الله ويتأتى ذلك من خلال إعمال الحواس، التى زودنا الله تعالى بها فى اكتساب المعرفة، وملاحظة أنعمه سبحانه، ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [**النحل**: ٧٨].

وقد ذكرنا غير ذات مرة أن الكون كتاب مفتوح، وأنه سياحة فى خلق الله وكونه، وأن مجال العلوم الكونية سبيل للتيقن، فشواهدها ومعطياتها

(١) كان رسول الله ﷺ يتعوذ من علم لاينفع، ومن قلب لا يخشع. والعلم غير النافع هو العلم بدون عمل، والعلم الذى يتلقفه الشيطان، والذى يصبح أداةً للكفر ولا يكون نوراً وهداية ومعرفة للحلال والحرام وطريقاً للخير لا للشر، للحق لا للباطل للطاعة لا للفسق.. يقول الرسول الكريم ﷺ عن أبى الدرداء رضى الله عنه. (ويل لمن لا يعلم مرة، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبعين مرة) وقال «إنما أخاف أن يقال إلى يوم القيامة.. أعلمت أم جهلت؟ فأقول علمت، فلا تبقى آية من من كتاب الله عز وجل آمرة أو زاجرة إلا جاءتنى تسألنى فريضتها، تسألنى الآمرة هل ائتمرت، والزاجرة، هل ازدجرت؟ فأعوذ بالله من علم لا ينفع، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعاء لا يسمع»(جامع بيان العلم لابن عبدالبر).

وأدلتها تقوى إيماننا، وتعزز عقيدتنا، وتهدينا إلى سبل الرشاد[١] وهاكم ما قاله بعض علماء الغرب فى تعضيد العلم للإيمان[٢].

يقول (هرشل) العالم الإنجليزى : كلما اتسع نطاق العلم، ازدادت البراهين القوية الدامغة على وجود خالق أزلى لاحد لقدرته ولا نهاية، فالجيولوجيون، والرياضيون، والفلكيون، والطبيعيون، قد تعاونوا على تشييد صرح العلم، وهو صرح عظمة الله وحده.

ويقول (توماس هكسلى) العالم البريطانى الشهير مخبراً عن قدرة الخالق: «فى شروق الشمس رأيت أعظم ما يمكن أن يراه إنسان آمن بالله.. وهل هناك أروع من تلك اللحظة التى يظهر فيها هذا القرص الهائل من نفس المكان كل يوم، فيبدد بضوئه الظلام الذى يحتوينا كلما غربت الشمس!!».

ثم يضيف : إن الله والعلم لا يفترقان إنهما دائماً على موعد، وفى لقاء كل تجربة، فى كل بحث يقوم به العلماء للكشف عن أسرار الكون.

ويقول (هربرت سبنسر) الإنجليزى فى رسالته فى التربية: «إن العالم الذى يرى قطرة الماء فيعلم أنها تتركب من الأوكسجين والأيدروجين بنسب خاصة، بحيث لو اختلفت هذه النسبة لكانت شيئاً آخر غير الماء، يعتقد عظمة الله وحكمته وعلمه الواسع وعندئذ يشعر بجمال الخالق تحت المجهر، ودقيق حكمته أكبر من ذلك الذى لا يعرف بديع صنع الله.

أما ألبرت بروس سابين عالم الميكروبات الشهير فيقول : « إن العلم وسيلة فى فهم أسرار الكون، وكلما استخدم الإنسان ما يقدم إليه من معرفة، تزداد نظرته إلى الحياة، ويزداد أمام عجائب الخلق خشوعاً، ويصل إلى الإيمان».

---

(١) ارجع إلى كتابنا (الإشارات العلمية فى القرآن الكريم) المنشور فى القاهرة، المكتبة القيمة، ١٩٩٣.

(٢) لمزيد من هذه الأقوال، التى تعضد أهمية العلم للإيمان يمكن الرجوع إلى :

- عبد الله صالح علوان : شبهات وردود حول العقيدة الربانية، القاهرة، دار السلام، ١٩٨٣.
- يحيى هاشم حسن : الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة، القاهرة، دار المعارف ١٩٨٤.

ولسنا فى حاجة إلى كثير تعقيب على الشهادات الصادقة السابقة من علماء منصفين اللهم الإشارة إلى أنه كلما ازددنا علما زاد إدراكنا لقدرة الله وحكمته. وأن العلم فى فهمهم هو توافق الإيمان مع المشاهدة. فالعلم يمنحنا الإحساس العاطفى والروحانى باكتشاف الكون فيما لم يدركه السابقون، وهنا يحدث التجلى، وهو فى الواقع إحساس مفاجئ بفهم الإنسان، وفهم علاقته بالكون، وبخالقه سبحانه.

وتناولنا المتقدم للعلاقة بين الإيمان والعلم، وبين الهداية والعلم وقد أفضى بنا هذا التناول إلى تبيان عدة حقائق مهمة يقينية ونورانية يقودنا إلى محاولة وضع تصور لخصائص العلم فى القرآن الكريم، وسماته المتميزة من خلال إيضاح منهج القرآن الكريم فى تناول قضية «العلم» - وبوسعنا الخلوص إلى عدة نقاط فى ذلك نسوقها فيما يلى: -

١ - ينكر القرآن الكريم النظرى البحت، العلم الجاف الفارغ، ويؤكد على العلم التطبيقى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣]. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢، ٣]

٢ - يؤكد القرآن الكريم على المشاهدة والتجريب، ويرفض أى دعوى بغير دليل وبرهان حتى فى الأمور اليقينية ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [المؤمنون:١١٧]. وكذا فى الأمور العقلية ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[البقرة:١١١]، [النمل:٦٤]. ونلمح المشاهدة فى الأمور الحسية فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف:١٩]. ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤]

٣- ينص القرآن الكريم فى منهاجه العلمي والتعليمي إلى وجوب اليقين والتثبت مما يتعلمه المرء المسلم، ويحذر من اتباع الأهواء والمراء والظن ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦]. ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[الإسراء: ٣٦]. ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾[النجم:٢٨]. ويرفض الظن فى مجال العلم ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦]. ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾[يونس: ٦٦]. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾[النجم: ٢٣].

٤ ـ جعل الله تعالى (العلم) من أسباب التفوق والجدارة بالريادة والرياسة وهذا ما يفهم من قوله تعالى﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٤٧] ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩]

٥ ـ ينكر القرآن الكريم تقليد الآخرين والتبعية لهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾[البقرة:١٧٠]، وينعى القرآن الكريم على الذين اتبعوا ساداتهم وكبراءهم بلا علم ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨]. ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ﴾ [الأحزاب:٦٧].

٦ ـ يذكر القرآن الكريم أن العلم نعمة ومنة وعطاء من الله تعالى، بداية بآدم عليه السلام ومروراً بأنبياء الله ، ووصولاً إلى رسول الله ﷺ. ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١]. ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة:٣٢]. ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾[يوسف:١٠١]. وداود عليه السلام ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء:٨٠]. وعيسى عليه السلام ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾[المائدة:١١٠]

والنبى الكريم ﷺ ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[آل عمران: ١٦٤]. ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

٧ - وسع القرآن الكريم دائرة حواس التلقى والمعرفة، فهناك العقل ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]. وهناك اللمس باليد ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[الأنعام: ٧]. وهناك القلب ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]. ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]. ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. الذى يعبر عنه بالفؤاد والأفئدة ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾[النجم: ١١]. ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾[الأنعام: ١١٣]. وهناك السمع والبصر المشار إليهما - بالمفرد فى سورة الإسراء ﴿كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[الإسراء: ٣٦] وبالجمع فى سورة النحل ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾ وهذه الحواس إذا أحسن الإنسان استخدامها هدى إلى العلم النافع، خاصة أن المرء مسئول عنها يوم القيامة ﴿كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[الإسراء: ٣٦]. وقد عطل الله تعالى حواس المشركين وأهل النار من الجن والإنس ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[الأعراف: ١٧٩]. وقد أضافت الآية الكريمة حاستى الأعين والآذان أما الأعين فجاء التعبير عنها بالبصر والإبصار، وأما الآذان، فوردت مقرونة بالقلوب فى ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]، [الإسراء: ٤٦]. ووردت مقرونة بالأصابع والثياب

فى ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح:٧]. ووردت مقرونة بالعمى فى قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤].

٨ - يقرب القرآن الكريم الحقائق العلمية بضرب الأمثال، لتكون هداية لأولى العلم والراسخين فيه، وراغبى الهداية، وطالبى الحكمة، فمن فوائد ضرب الأمثال ما يذكره الحق سبحانه ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥]. ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم:٤٥]. ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]. ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

وقد ضرب الحق تعالى تسعة وستين مثلاً فى القرآن الكريم، وجاء التمثيل فى الخلق والهداية والقرآن والدنيا والجنة والنار والإنفاق والكلمة والشيطان وعيسى عليه السلام والشرك[1] الخ. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧]. والمثل المضروب فى الآية به عمق وتفرد ومغزى فالحق فى ثباته واستقراره كمثل الماء الصافى الذى يستقر فى الأرض، فينتفع منه الناس، ومثل الباطل فى زواله واضمحلاله كمثل الزبد والغثاء الذى يقذف به الماء؛ ليتلاشى ويضمحل، وبذا لا ينتفع منه أحد.

٩ - يرشد القرآن الكريم إلى آداب رائعة؛ ليتأدب بها طلاب العلم، كى يرزقوا المعرفة الكاملة، والعقل الثابت، وكى يزدادوا علماً وهداية وإلهاماً

---

(١) لإحصاء هذه الأمثال استعين بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبدالباقى فى كلمات (مَثَلٌ) و (مَثَلاً) و(مِثْلُهُ) و(مَثَلُهم).

﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾[التغابن:١١]. ويتطلب هذا التواضع ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء:٨٥]. والوثوق بأن الله واهب العلم لا عقله وذكاؤه وتحصيله[1] ولذا يطلب المزيد دوماً ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]. ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[يوسف:٧٦]. وموسى عليه السلام يطلب العلم من الخضر عليه السلام بتواضع شديد ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾[الكهف:٦٦-٦٩]. وهكذا يضاف إلى تواضع موسى عليه السلام صنعة أخرى لطالب العلم وهى الصبر عليه، وتحمل متاعبه ومشقة طلبه. ومن آداب التعلم فى الإسلام الإخلاص فى طلب العلم وتصحيح النية، فيتحرى بعلمه وجه الله والدار الآخرة لا مباهاة العلماء، ولا مداهنة الأمراء ولا مماراة السفهاء، ولا التطلع إلى متاع الدنيا. فى المقام الأول ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [النازعات:٣٧-٣٨][2] وهناك آداب كثيرة ينبغى توافرها لدى المعلم مثل حسن السؤال، وتقدير المعلم، والتواضع له[3] وعدم الوقوع فى المعصية، والاجتهاد ومداومة الطلب، وآداب أخرى كثيرة[4].

---

(١) ثم مقولات مهمة فى هذا الصدد منها (لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه علم فقد جهل) ومنها (من عمل بما علم أورثه الله علم مايعلم، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

(٢) أفاضت أحاديث الرسول ﷺ فى بيان خطورة قصد الدنيا فقط فى طلب العلم فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً يبتغى به وجه الله عزوجل لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» يعنى :ريحها. رواه أبوداود باسناد صحيح.

(٣) يؤكد هذا قول ﷺ (تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار وتواضعوا لمن تعلمون منه) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٤) عنيت كتب السلف ببيان آداب المتعلم ومن ذلك : إحياء علوم الدين، ج١، للإمام الغزالى، ومفتاح دار السعادة للإمام ابن قيم الجوزية، وجامع بيان العلم لابن عبدالبر، وحياة الصحابة، ج٤، للعلامة محمد بن يوسف الكاندهلوى.

١٠- يركز القرآن الكريم على آثار العلم، وما يحدثه من خشية لدى أهله، ومخافة لله تعالى، وإقدار عظمته سبحانه؛ فالذين أوتوا العلم لهم خيرية عظيمة عند الله، وقد أشير إلى ذلك فى تسع آيات من الذكر الحكيم ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[النحل:٢٧]. ولنتأمل تأثرهم بكتاب الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الاسراء:١٠٧] ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾[الحج:٥٤]. والعلماء الصالحون فى قوم قارون لم يخدعوا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص:٨٠]. وصدورهم تخشع لعظمة ما تكتنزه ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. وأفواههم تنطق بالحق والصدق ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٦]. ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[سبأ:٦]. ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾[محمد:١٦]. وهاهم يرفعهم الله تعالى ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:١١]. فضلاً عن الخشية -المشار إليها- التى يحققها العلم لدى أهله﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨][١] فالعلماء يخافون قدرة الله تعالى؛ فهم يعلمون أن الله على كل شئ قدير. وعندئذ تتحقق الخشية[٢].

---

(١) استشهدنا بهذه الآية الكريمة فى بداية هذا الفصل، ونضيف هنا أن الآية الكريمة شملت صنوف العلم الطبيعية فى إنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات المختلفة الألوان، واختلاف أحوال الجبال، واختلاف أحوال الناس والدواب والأنعام. وهذه علوم كونية تشهد صاحبها عظمة الله تعالى، وتؤكد آياته سبحانه.

(٢) فى بيان معنى (الخشية) يقول سعيد بن جبير : الخشية هى التى تحول بينك وبين معصية الله تعالى. وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله تعالى فليس بعالم. وقال الحسن البصرى : العالم من خشى الرحمن بالغيب ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه. وقال الأمام مالك: إن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما العلم نور يجعله الله فى القلب.

١١ - يدعو القرآن الكريم إلى تكليف طائفة من المسلمين بالتفقه فى الدين ﴿فَلَوْلا نَفَرَ من كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة:١٢٢]. وهذه الآية توجب التفقه فى الكتاب والسنة، وأنه على الكفاية دون الأعيان، وفرض الكفاية يتحول إلى فرض عين على المكلفين بهذا الأمر، وعليهم القيام بهذه الواجبات[1] ونجد الدعوة واضحة فى القرآن الكريم إلى الفقه والاعتبار ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام:٦٥]. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام:٩٨] ونعى على هؤلاء الذين لا يفقهون ولايعتبرون ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾[التوبة:٨٧] ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:١٢٧].﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر:١٣].

والخصائص التى رصدناها فى منهج القرآن الكريم فى تناول (العلم) تعكس نظرة تكاملية واسعة فى التعامل مع (العلم) على أنه فريضة وواجب وعبادة ورسالة وتكليف وسبيل إلى الإيمان والخشية والتبصر والتفقه، كما أنه دعوة إلى التقدم والدفع الحضارى، وهذا ما فهمه العرب والمسلمون جيداً، وكان له تأثيره على حركة حياتهم، وعلى نهجهم الفكرى، وهذا ما نتناوله بالتفصيل فى النقطة التالية.

ثانياً: العلم وحضارة المسلمين بين الأمس واليوم:

بداية نقرر أن التاريخ يبرهن أنه ما من دين حث على التقدم العلمى كما حث عليه الإسلام وأن التشجيع الذى لقيه والبحث العلمى من الدين

---

(١) كان صحابة رسول الله ﷺ مثالاً فى التفقه فى أمور الدين، وبرز منهم الفقهاء والعلماء ومن ذلك يقول عبدالله بن مسعود : إن عمر بن الخطاب كان أعلمنا بالله، وأقرأنا لكتاب الله، وأفقهنا فى دين الله. ويقول عن نفسه : ما أنزلت سورة إلا وأنا أعلم فيما نزلت: ولو أعلم أن أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل أو المطايا لأتيته. ويقول سعد بن أبى وقاص عن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما : ما رأيت أحداً أحضر فهماً، ولا ألب لباً، ولا أكثر علماً، ولا أوسع حلماً من ابن عباس وكان عبدالله بن عمرو بن العاص يقول : ابن عباس أعلمنا بما مضى، وأفقهنا فيما نزل مما لم يأت فيه بشئ.

الإسلامى أفضى إلى هذا الإنتاج الثقافى- الذى أقل ما يوصف به أنه رائع ومتميز وخلاق - فى أيام الأمويين والعباسيين وأيام العرب فى الأندلس(١) فالإسلام هو الذى دفعهم إلى التقدم، وإدراكهم لقيمة العلم والعلماء حفزهم للنشاط الفكرى، ويقينهم بإعلاء الإسلام للعقل جعل إسهاماتهم العلمية، وجهودهم المعلمية متميزة.

وقد أقبل المسلمون على العلم ينشدونه فى مظانه، ووجهوا عزائمهم إلى الفكر الأصيل، وكانت رحلاتهم فى طلب العلم مثالاً لحب العلم والتعلم، فقد ارتحل جابر بن عبدالله رضى الله عنهما إلى الشام وإلى مصر ليسمع حديثين عن النبى ﷺ، وارتحل أبو أيوب رضى الله عنه إلى مصر ليسمع حديثاً من عقبة بن عامر رضى الله عنه، وارتحل صحابى إلى فضالة ابن عبدالله رضى الله عنه، وهو بمصر - يطلب حديثا. وكان عبيدالله بن مسعود رضى الله عنه. يقول: لو أعلم أحداً تبلغنيه الإبل هو أعلم بما نزل على محمد ﷺ لقصدته حتى ازداد علماً إلى علمى.

وكان سعيهم لطلب العلم هو أخذه عن ثقة ، والتماسه من أهله وكان عبدالله بن مسعود رضى الله عنه يؤكد هذا بقوله (لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، فإذا أخذوه من أصاغرهم وشرارهم هلكوا) ولذا فقد انتهوا إلى تحديد رموز للعلم يؤخذ عنهم، ويؤول إليهم إلى حد التخصص، ولنتأمل خطبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالجابية : يأيها

---

(١) لا يحسب القارئ الكريم أن هذا الكلام يقال على سبيل الفخر والإعجاب والتغنى بالماضى وإنما هو رصد لواقع أكده المرحوم الدكتور عبدالوهاب عزام بقوله : لا أخال التاريخ يعرف أمة من الأمم سارت سيرة المسلمين فى طلب العلم، والإخلاص فى تحصيله، وجعله عبادة، واتخاذ المساجد للصلاة والدرس معاً؛ فالمسلم مأمور بالنظر فى السماوات وآثار الأمم وسيرها وأن يطلب العلم حيث كان، ويلتقط الحكمة أنى وجدها. ونضيف إلى ذلك أن مفكرى العرب كانوا يدرسون فكر أرسطو ويكتبون الشروح على فلسفته فى الوقت الذى كان فيه الامبراطور شارلمان ورجال بلاطه لا يعرفون كيف يكتبون أسماءهم!!

الناس،و من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أُبَىّ بن كعب، وحتى أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى فإن الله جعلنى له والياً وقاسماً.

وتأسيساً على فهمهم السابق فقد انتقلوا بفضل قناعتهم بروح العلم والبحث والدراسة والتفقه من أمة أمية إلى أمة متعلمة وعالمة، إلى قادة للفكر والرأى إلى رواد للمعرفة والحكمة.

ونستطيع القول أن المسلمين الذين جددوا، وأضافوا ، وأبدعوا لم يضعوا فى سبيل ذلك قيوداً على عقولهم وفكرهم، فلا يخفى على أحد مدى تعمق المسلمين فى علوم الحياة فكان منهم المنظرون فى شتى فروع العلماء من أطباء وفلكيين ورياضيين وكيميائين، وكان منهم المكتشفون لحقائق علمية لم يسبقوا إليها. وبفضل عقليتهم العلمية وعدم تحجرهم أطل المسلمون على فكر الآخرين، ووضعوا منهجاً عقلياً علمياً فى التعامل مع ظواهر الحياة[1] ينتقلون فيه من المعلوم إلى المجهول، ومن النظرية إلى التطبيق ويلتزمون فيه بحرية الفكر، التى تطلق العقول والأفهام من أغلال التحجر الفكرى وتستمد روحها من عدم طاعة الأهواء والتقليد الأعمى ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ** ﴾[**القصص**: ٥٠]. ومن الدعوة إلى التفكير والتأمل والنظر ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**

(١) لا يجد أى باحث صعوبة فى تأصيل هذا المنهج العقلى فى الفكر الإسلامى، فالرسول الكريمﷺ يقول عندما صادف كسوف الشمس وفاة ابنه ابراهيم «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته» وهذا تقرير منه ﷺ على تحرير العقل، وعدم تقييده بأمور خارجة عنه، أو بأمور تحد من إعماله وانطلاقه بخلاف أفكار غير إسلامية قديمة مؤداها أن المرء يخلع عقله مع حذائه عن دخوله دار العبادة !! ولذا تسقط دعاوى المتصوفة بأن المريد يكون بين يديه شيخه لما يكون المتوفى بين يدى مغسله!! ودعواهم فى التسليم بكل شئ منه لأن الخبز الذى يفتش لا يؤكل!!

﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق:٦-٨] والدعوة ذاتها فى قوله تعالى ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[الغاشية:١٧-٢٠]. وهذه الآيات الكونية استنهضت عقولهم، وأيقظت حواسهم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٦٧] ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَىٰ﴾ [طه:٥٤]. ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر:٢].

وإذا أردنا أن نؤصل لمنهجهم العلمى الذى دفعهم إلى التقدم فإن منهجهم قرآنى الأصل يجمع بين العقل والحواس ويتطلب الدليل والبرهان فى عرض الآراء والأفكار كما أن علماء المسلمين استخدموا طريقاً علمياً فى البحث، يعتمد على الملاحظة والتجريب، ويخلص إلى حقائق، وقوانين، ونظريات.

ونرصد ملمحاً آخر يتمثل فى تنوع إنتاجهم الفكرى والعملى فى شتى فروع العلم، فى الفلك والزراعة والمعادن والكيمياء والطب والهندسة والرياضيات والجغرافيا والفيزياء، هذا فضلاً عن العلوم النظرية والدينية واللغوية والأدبية.. ولم يقتصر الأمر على نبوغهم فى كافة ميادين العلم والمعرفة، وقادوا أكبر حركة فكرية، وتجلى اهتمامهم فى التوسع فى إنشاء المدارس ودور الكتب.

هذا فضلاً عن عنايتهم بالترجمة الواسعة عن اليونانية والسريانية والفارسية وسعيهم إلى تحصيل علوم الأمم الأخرى ومعارفهم، وبعد استيعابهم لتلك المعارف أضافوا إليها، وصححوها، ونقدوها[1].

---

(١) يؤكد هذا المعنى [ول ديورانت] فيقول : بلغ الإسلام فى ذلك الوقت أوج حياته الثقافية، وكنت تجد فى ألف مسجد منتشرة من قرطبة إلى سمرقند، علماء لا يحصيهم العد،وكانت جميع مسالك العالم الإسلامى تعج بعلماء الدين والجغرافيا والمؤرخين، انتشروا فى الأرض بحثاً وراء المعرفة والحكمة، ولقد استطاع العرب أن يستوعبوا ما كان عند الأمم المفتوحة من ثقافات بما اتصفوا به من سرعة الخاطر وقوة البديهة.

أما توجههم إلى التجريب كمنهج فى البحث (المنهج التجريبى) واعتمادهم عليه فى استخلاص نتائجهم فهذا أمر مقرر وثابت؛ فالقاعدة التى كانوا يسيرون عليها -كما قال أحد فلاسفة الغرب ونقله جوستاف لوبون- هى : جَرب، وشاهد ، ولاحظ. ولذا كان المنهج التجريبى منضبطاً، وله أصول وقواعد ـ سبقت فرنسيس بيكون فى عصر النهضة ـ فقد استطاعوا التمييز بين طبيعة الظواهر العقلية الخالصة من جهة، والظواهر المادية الحسية من جهة أخرى، وعلموا أن الأداة المستخدمة فى دراسة هذه الظواهر يجب أن تختلف حسب طبيعة كل منها. كما استطاعوا نقد المنطق الأرسطى العقيم الذى كان يلجأ إلى القياس النظرى المجرد فى تفسير الظواهر الطبيعية. واستبدلوا ذلك بالملاحظات الحسية (التى تقوم على الحواس المجردة) وبالملاحظات التى تتم باستخدام الأجهزة والأدوات المختلفة، وساعدهم ذلك على رصد الأجرام السماوية، وتصنيف النباتات والحيوانات، وتسجيل حالات المرضى، ومتابعة نتائج التجارب فى المختبرات[1].

وخطوات هذا المنهج أضحت متفقاً عليها لدى علمائهم؛ فهو السائد فى الطب وفى الفلك وفى الجغرافيا وفى الكيمياء وفى سائر العلوم الطبيعية، وهذا أضفى على إنتاجهم سمات الأصالة، والدقة، والتميز، والابتكار.

ولم يبق هذا المنهج حبيس الأفق العربى والإسلامى ولكنه سرعان ما أبرقت أضواؤه على سحب ظلام أوربا؛ فبدت أشعة الحضارة الإسلامية تطل على نوافذها المغلقة، التى سرعان ما فتحت لتتلقى النور الجديد.

فقد انتقل المنهج الإسلامى التجريبى إلى العقلية الأوربية، واتجه الفكر

(١) كان الحسن بن الهيثم على قناعة بأهمية التجربة العلمية القائمة على استخدام الأجهزة، ولذا كان يوصى الباحث بألا يقنع باستخدام الملاحظة فى تصفح الظواهر الحسية الجزئية، وتحديد خصائصها وصفاتها. فالاحتكام إلى التجربة - عند ابن الهيثم وعلماء العرب- هو الأساس، فضلاً عن التجرد من الذاتية والاستقلال بالرأى، وعدم التسليم بأى فكرة سائدة دون تجريب ، والرصد الدقيق والعناية بالجزئيات والتفاصيل . .

الغربى إلى البحوث العلمية التجريبية، وكشف البحث العلمى حقائق فلكية وجغرافية وطبيعية غير تلك المجموعة من الأوهام والأساطير والخرافات، التى تتبناها الكنيسة، وتعتبرها حقائق مقدسة، وهى ليست من النصرانية فى شئ. . ولقد وقفت الكنيسة وقفة عنيفة فى وجه هذا الاتجاه الجديد المنبثق من منهج الثقافة الإسلامية، وقابلت نتائج بحوث الطليعة من العلماء الأوربيين، الذين استقوا من ذلك النبع بجفوة وعداء شديدين، وعندئذ تحقق هذا الفصل بين الدين والعلم حتى مطلع القرن العشرين فى أوربا، ثم بدأ الانفراج بعد ذلك - فالعلم مدين بظهوره لذلك الازدهار العلمى الهائل؛ الذى شهدته الحضارة الإسلامية، والذى انتقل تأثيره إلى أوربا منذ القرن الثانى عشر الميلاد، وكان لذلك عظيم الأثر فى التقدم العلمى العالمى، وفى النقلة الحضارية للبشرية[1].

وفى هذا الإطار من المعرفة الشمولية، ومن اقتحام كل ميادين العلم والفنون، ومن البحث العلمى التجريبى، واعتبار ذلك كله عبادة، وفهمهم العميق لدور العلم فى الحياة بكل ذلك درسوا وبحثوا واجتهدوا ، فتقدموا ، وأنشأوا حضارات رائعة، وكان عصر النهضة فى أوربا صدى للحضارة الإسلامية، وانعكاساً لعلومهم وإنتاجهم الفكرى والعملى والتجريبى المتكامل.

والمقدمات السابقة كان ينبغى أن تفضى إلى نتائج صحيحة؛ بمعنى أن المنجزات العلمية السابقة لدى علماء المسلمين كان يقدر لها أن تنمو وتزدهر،

---

(١) يشير إلى ذلك الانجليزى (روجير بيكون) بقوله «إنه باتباع المنهج التجريبى الذى كان له الفضل فى تقدم العرب، فإنه أضحى بالإمكان اختراع آلات جديدة، تيسر التفوق عليهم، ففى الإمكان إيجاد آلات تمخر عباب البحر دون مجداف يحركها، وصنع عربات تتحرك بدون دواب الجر، وإيجاد آلات طائرة يستطيع المرء أن يجلس فيها ويدير شيئاً تخفق به أجنحة صناعية فى الهواء مثل أجنحة الطير» ونقول إنه ما كان للبشرية أن تخطو خطواتها فى المخترعات والتقنية والمدنية إلا برصيد العرب والمسلمين من الاكتشافات والبحوث والمؤلفات والتجارب.

وأننا ننحو نحوهم، ونقتفى آثارهم، ونفيد من إنجازاتهم. فنحن فى حاجة إلى أن ننطلق من فكر أسلافنا القدوة والمثل فى حب العلم، والحرص عليه، والتفانى من أجله حتى ننفلت من ركب التخلف ونسعى إلى معاودة الصدارة، واسترداد اللواء المفقود منذ قرون عديدة[١].

فالمسلمون اليوم فى حاجة لأن يعيدوا إلى العلم قداسته واحترامه، وأن يؤخذ بالجد والعناية والاحترام، ونحن أحق من غيرنا بذلك، فما تقدمت أوربا إلا بإعلاء قيمة العلم وما تخلفنا إلا بالتخلى عن سيرة أجدادنا فى العلم وتطبيقه. وبالتخلى عن روح البحث العلمى فى الإسلام، وبالفصل بين الدين والعلم، وبين الدين والحياة، وبين العمل والعبادة، وهى كلها مفاهيم جذب لا دفع، رغم أنها فى أصلها مقومات صحيحة للتقدم إذا لم يتحقق فصل بينها على المستويين الفكرى والعملى.

ومفاهيم الجذب هذه، وعوامل سلبية متعددة أودت إلى التخلف، وتدهور الحضارة الإسلامية الزاهرة وضعفها؛ فضلاً عن التمزق السياسى الذى عاشته الأمة وابتعاد أسلوب الحكم عن مبادئ الإسلام[٢]، وكذا الاضمحلال الفكرى الذى تسرب إلى فكر الأمة، بتقييد حرية الفكروالبحث، وعدم إعلاء عمل العقل، وضيق الأفق، وعدم التسامح الفكرى، والحجر على آراء الآخرين، والتعصب للمذهب، والحرص على التقليد والاتباع.

---

(١) إبراز قيمة التراث العلمى عند العرب والمسلمين لا يستلزم العكوف عليه دون غيره، بل علينا أن نفيد من علوم الآخرين واجتهاداتهم فى جانبها الحضارى، وأن نركز الضوء على هؤلاء العلماء الذين انتقلوا من الشك إلى اليقين أمثال «جارودى» و«بوكاى» ليكون فكرهم تعبيراً صادقاً عن انجذابهم إلى رحاب الإسلام، وعن خور الحضارة العلمية الأوربية عندما تفقد جانبها القيمى، والإيمانى، والإنسانى.

(٢) مثل الشورى والعدالة والحرية والمساواة.. وليس بوسعك أن تفصل بين قوة الأمة الإسلامية سياسياً وبين قوتها العلمية والفكرية؛ ففى ظل أنظمة حكم مستقيمة ومستقرة، يستطيع العلماء العطاء والإنتاج، ويقدر للأمة أن تتقدم وتزدهر وتعطى.

فمنطق القرآن الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد:١١] نلاحظ تطابقه الشديد على حالة العرب والمسلمين، إذ لم يقدروا قيمة النور الذى يمتلكون، والكنز الذى ورثوه، ولم يحتفظوا بما آتاهم الله من علم وحكمة.

فالمفاتيح العلمية الكثيرة الموجودة فى أيديهم لم يحسنوا استغلالها، ففى مجالات كثيرة كان بوسعهم التطوير والإضافة والتقدم، ولكنهم آثروا السلامة والدعة والقناعة والتسليم للمستعمر، فالطباعة ــ مثلاً ـ طورها العرب عن الصينيين، وأنشأوا لها مصانع امتدت إلى الأندلس، وظلت تنتج أجود الأوراق إلى أن غلبتها الصناعة الأوربية الآلية فى مطالع العصر الحديث[١].

فضلاً عن عوامل ضعف كثيرة أودت إلى التخلف، ورغم البون الشاسع بين مجالات العطاء التى أضاف المسلمون من خلالها وبين واقعهم المتردى هذه الأيام فإنك ترصد محاولات جادة لإيقاظ الأمة، وبث روح النهضة فيها، وإحياء قيم العلم والتعليم، وتطوير البحث العلمى، وإنشاء هيئات ومؤسسات تساعد المبتكرين العرب والمسلمين، وتشجيع الحكومات لذلك، ومحاولة التميز فى بعض المجالات. والمحاولات السابقة المتطلعة للتقدم والتطوير لا تعوزها الإمكانيات المادية، فالأمة الإسلامية تمتلك ثروات طبيعية وبشرية تكفل لها تحقيق نهضة علمية كبيرة فالأمة الإسلامية ليست بالقليلة فهى تعادل ربع سكان العالم عدداً ومكاناً ، وتتعدد ثرواتها، وتتكامل تضاريسها، فضلاً عن تنوع مصادر المياه فيها، وكذا وجود مصادر متعددة للطاقة خاصة الشمس؛ التى تطل بضوئها الساطع أغلب أيام العام على بلادها. ناهيك عن مصادر الطاقة الأخرى.

---

(١) لابد أن نشير هنا أن أسلافنا قصروا فى تطوير الطباعة، فرغم عنايتهم بها فإنهم لم يطوروها بصورة تحفظ إنتاجهم الفكرى، وإنجازهم الحضارى.

ولن يغيب عنا أن الأمة الإسلامية أخذت تعنى بالبحث العلمى، ويبدو ذلك جلياً فى الجامعات والمعاهد المتخصصة ومراكز البحوث المنتشرة فى دول العالم الإسلامى ويساعد على ذلك هذه الكثرة العظيمة من آلاف العلماء من الأكاديميين والمتخصصين ومن المهنيين المهرة والأكفاء من مهندسين وأطباء وفنيين»[١].

وهذه المتطلبات المادية والمقومات البشرية الموجودة لا تصنع التقدم وحدها فلابد من وجود مقومات أخرى مهمة، وهى المقومات المعنوية والروحية؛ النابعة من ضرورة إقدار دور العلم فى صنع التقدم، والقناعة بأن الأخذ به نهجاً وسلوكاً وفكراً من منظور إسلامى هو السبيل لتحقيق ذلك.

وتأسيساً على ما تقدم نقول إن العلم هو صانع الحضارات، وهو القيم على الحياة بما وضع الله فى خصائصه من طاقات لتصوير الظواهر الكونية، وهو الذى وضع المجتمع الإسلامى فى مكان الصدارة من الحياة، يوم أن كان العلم هو القائد لهذا المجتمع؛ فكان العلم هو الذى يوجه حركته، ويدفعه للأمام، فلما ابتعد المجتمع الإسلامى عن هداية القرآن ونور العلم، بما نشأ فوق أرضه من سحائب الجهل والغفلة والفرقة، والانغماس فى الترف المادى، وركود التفكير العلمى، وعندئذ تخلف المجتمع الإسلامى عن قافلة الحياة العلمية، فى الوقت الذى تفوق علينا غيرنا، وساسوا الحياة بآليات العلم.

ولذا فلن تسرى النهضة واليقظة فى المجتمع الإسلامى إلا إذا عادت إليه الهداية القرآنية فى مجالات العلم قوة دافعة، بالعودة إلى روح كتاب الله الذى أفاض بألوان الهداية التى ترفع شأن العلم، وتعلى قدره فى آياته الشاهدة بتعظيمه وبيان سموه، ورفع قدر أهله.

---

(١) رغم هذه التوجهات المشيرة لوجود نهضة علمية فى دول العالم العربى والإسلامى فإنك ترصد ارتفاع نسبة الأمية فى كثير من هذه الدول، وهذا له تأثير عظيم على عملية التنمية والمشاركة والنهضة فيها، ففى مصر يشير تقرير لجنة التعليم أن الأمية فى مصر لا تزال تمثل تسعة وأربعين فى المائة من مجموع السكان!! هؤلاء الذين لا يقرأون ولا يكتبون أنى لهم بإتقان فنون الحضارة، وأنى لهم القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض وأنى لهم فى الإسهام الفعال فى الحركة الثقافية والتعليمية فى بلادهم.

وهذا أمر ــ إن تحقق ـ يعد أملاً مرتقباً، وليس عسيراً، فالأمة الإسلامية بوسعها الإسهام فى الإبداع الحضارى بالقدر الذى يتناسب مع مجدها ومكانتها ويستوجب هذا الانتقال من الأخذ والاستيعاب والنقل إلى العطاء والمبادأة والإبداع. ومن الغفلة إلى اليقظة. ومن الرضا بالدونية إلى علو الهمم وعزة المنال. ومن التبعية إلى الاستقلالية. ومن أخذ الفتات إلى تقديم النتاج ومن روح الانهزامية إلى روح التحدى والإصرار

ونستطيع -بعد هذا العرض- أن نوجز الرؤية الشمولية للعلم فى الإسلام والتى نطرحها كأحد أبرز المضامين المهمة للحضارة الإسلامية، وأحد منطلقات البعث الحضارى المنشود والمأمول فى النقاط التالية :-

١ ـ تردد لفظ (العلم) ومشتقاته فى القرآن الكريم فى (٧٧١) موضعاً، تأكيداً لأهميته وفرضيته، وحثاً عليه، وإعلاء قيمة أهله، وإبراز مكانتهم ودورهم ورغم تعدد مجالات تناول القرآن الكريم للعلم فى هذا الرقم الكبير فإننا نجد أن هناك أكثر من ألفى آية، تناولت ما يتصل بالعلم من فقه وعقل وتأمل ونظر وتدبر وتبصر.

٢ ـ يعلى القرآن الكريم من شأن طالبى العلم والعلماء الذين يقدرون عظمة الله تعالى، ومهابته وخشيته، كما أثنى على أولى الألباب، الذين يقومون بواجب العلم حق القيام من تأمل فى الكون، والتماس العبرة، وإحسان التدبر، ورجاء رحمة الله تعالى.

٣ ـ جعل الإسلام البحث العلمى عبادة وقربى لله تعالى، وكان هذا دافعاً للمسلمين للتقدم فقد سعوا لأداء فريضة البحث العلمى، وأخذوا بمنهج النظر العميق فى مختلف مجالات العلوم، وأعملوا النظرة التأملية، والمنهج الصحيح فى التعامل مع الكون.

٤ ـ أوضحت الأحاديث النبوية فضل العلم، وتفضيله على العبادة، وفضل طلبه، والحث على العمل به، وشروط ذلك، وكذا الحث على

حضور مجالس العلم ومجالسة العلماء كما نطقت أقوال الصحابة والتابعين بالحكمة فى بيان الترغيب فى العلم، وضرورته لأداء عبادة صحيحة، وفهم دينى رشيد.

٥ ـ أجاد المسلمون الأوائل فى العلوم الكونية، ونبغوا فى كافة ميادين المعرفة، ولم يشعروا أن الدين ينفصل عن الحياة، فالعلم ـ جميعه ـ طريق للإيمان والهداية، وسبيل لإعمال العقل فى الاكتشاف والاستنباط، كما أنه عون على معرفة الأسرار الكونية، والقيام بواجبات الاستخلاف.

٦ ـ تشمل دائرة العلم فى الإسلام كل العلوم الدينية والطبيعية، والنظرية والتطبيقية والعلوم الكونية ـ بعامة ـ لا تقل أهمية فى دراستها عن العلوم الشرعية، وذلك لاعتبارات مهمة ذكرناها فى مكانها من التناول.

٧ ـ أكدت شهادات علماء الغرب ضرورة العلم للإيمان، وضرورة الأخذ بكل العلوم لتعضيد الإيمان؛ تأكيداً لأن العلم هو توافق الإيمان مع المشاهدة، وأن العلم يمنحنا الإحساس بعظمة الخالق، وإعجازه فى كونه.

٨ ـ فهمنا للعلم فى القرآن الكريم ينبغى أن يدفعنا إلى التقدم العلمى والتقنى والاقتصادى لنأخذ بأسس الاستخلاف فى الأرض وعمارتها، فالمسلم لا يرى فى البحث العلمى مجرد جرى وراء الكشف عن أسرار الكون، وقوانين الله فيه لتطبيق تلك الكشوف والقوانين فى استثمار ثروات الأرض، وإحكام السيطرة عليها، بل هى من واجبات الاستخلاف فى الأرض، ووسيلة للتعرف على واجبات العبودية لله، التى تمثل الضمان الوحيد لعدم استخدام معطيات العلوم فى الإفساد والمعصية.

٩ ـ ما قدمه القرآن الكريم من دعوات للتأمل والمشاهدة واستخدام الحواس والنظر والاعتبار ارتبط فى معظمه بالآيات الكونية، وهذا له مدلوله الذى ينبغى أن ننوه إليه فى ضرورة الأخذ بوسائل العلم وأدواته لتحقيق الاهتداء واليقين.

١٠ ـ ثمّ خصائص للعلم فى القرآن الكريم، أوجزناها فى عشر سمات لمنهج القرآن الكريم فى تناول قضية (العلم) وهى جامعة لتركيز القرآن الكريم على العلم التطبيقى، وتأكيده على المشاهدة والتجريب، وتحذيره من اتباع الأهواء والمراء والظن، وإنكاره من تقليد الآخرين والتبعية لهم، وتوسيعه دائرة الحواس والتلقى والمعرفة، وتقريبه الحقائق العلمية بضرب الأمثال، وإرشاده إلى آداب رائعة فى طلب العلم، وإلى ما يحدثه العلم من خشية لدى أهله، ومخافة لله تعالى، وإقدار عظمته سبحانه، ودعوته إلى تكليف طائفة من المسلمين بالتفقه فى الدين.

١١ ـ اجتهد المسلمون فى طلب العلم، وقاموا برحلات شهيرة لذلك، وكانوا يتحرون أخذه عن ثقة، وأعملوا عقولهم وفكرهم فى طلبه، وتعمقوا فى كل علوم الحياة، وكان منهجهم أصيلاً، يقوم على التجريب كأساس فى الاستنباط، واستخداموا أدوات المنهج التجريبى، وساروا وفق خطواته، وأفاد الغرب من تطبيق هذا المنهج وكان أبرز محفزات السبق والتقدم فى عصر النهضة.

١٢ ـ هناك عوامل متعددة أدت إلى تخلف المسلمين، تتصل بمفاهيم الجذب، وعوامل سلبية أخرى وضيق النظرة إلى العلم، وعدم القيام بواجباته، وعدم الفهم العميق لدور العلم فى الحياة، والتخلى عن روح البحث العلمى، والفصل بين الدين والعلم، وآليات التقدم تتطلب مقومات مادية وأخرى معنوية، وتحققها ليس بالأمر العسير.

وتناولنا المتقدم لقضية العلم فى الإسلام من منظور شمولية العلم واتساعه وفق المنهج الإسلامى يتطلب أن نعرض للجانب الإعلامى فى الإسلام باعتباره لا ينفصم عن مفهوم العلم ودور الدعاة والعلماء فى الإسلام، فالعلم يظل بعيداً عن العامة والخاصة ما لم يُبلغ؛ فمفهوم الدعوة متمم لمفهوم العلم فى الإسلام. كما يأتى تناولنا للإعلام فى الإسلام باعتباره

أحد المضامين المهمة للحضارة الإسلامية وأحد المجالات التى يبرز من خلالها تكامل الرؤية الإسلامية فى البعث والتقدم وهذا ما نفصله فيما يلى:

ثالثاً : الجانب الإعلامى ومضامينه فى الإسلام :

يتباين الناس فى نظرتهم للأشياء، وفى حكمهم عليها، وفى سلوكهم، واتجاهاتهم باختلاف معتقداتهم وقيمهم الدينية.

ومن هنا تبدو أهمية الإعلام - فى الدولة الإسلامية - إذ يشكل الوجدان المسلم، ويوجه الفكر الإسلامى، ويكسب الناس القيم الدينية وينميها لديهم، ويتصدى للفكر المناهض، ويقوم بدوره الصحيح فى توعية الناس بالواجبات الدينية، وفى تعريفهم بدينهم، وفى دعوتهم إلى الدين الحق، وهذا ما سنتناوله بالتحليل فيما يلى :

فقد جاءت دعوة الإسلام عامة لكل الناس — مع اتساع مضمون هذه الكلمة - ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾[**الأعراف**:١٥٨]. واستوجبت هذه الرسالة المحمدية الجامعة الخاتمة القيام بواجبات التبليغ بصورة فردية، وبصورة جماعية(*) ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾[**المائدة**:٦٧]. والواضح من هذه الآية اقتران التبليغ بالرسالة فالرسول الكريم ﷺ إذا لم يقم بواجبات التبليغ فلن تتحقق الرسالة. ولذا يتضح الملازمة بينهما فى مثل ﴿**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ**﴾ [**النور**:٥٤] [**العنكبوت**:١٨]. وتبرز ماهية التبليغ وارتباطه بالخشية فى قوله تعالى:

(*) وردت الإشارة إلى التبليغ والبلاغ للرسالة فى أربع وعشرين آية فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى ﴿**أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ**﴾ [**الأعراف**:٦٢]. أما البلوغ الزمنى والمكانى - الأجل والمقام - فقد وردا فى ثمان وأربعين آية فى القرآن الكريم مثل ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ**﴾ [**يوسف**:٢٢]. وقوله تعالى ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا**﴾ [**الكهف**:٦٠]. وأما البلاغة - أى حسن البيان وقوة التأثير - فقد أشير إليها فى أربع آيات فقط مثل ﴿**وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا**﴾ [**النساء**:٦٣] وقوله تعالى ﴿**حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ**﴾[**القمر**:٥].

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب:٣٩]

وتحدد آيات قرآنية كثيرة مهمة الأنبياء فى التبليغ، منها قوله تعالى ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]. وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[النحل: ٨٢] ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [الشورى:٤٨]. ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن:١١].

وحتمية التبليغ والتى هى أساسية فى الرسالات السماوية يعلنها الأنبياء لأقوامهم﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ [الأحقاف:٢٣]. وذلك بعد أن يستنفذوا كل طاقاتهم، وبعد أن توصد أمامهم عقولهم وقلوبهم ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي﴾ [الأعراف:٩٣]. وبعد أن يصلوا لقناعة إيمانية أنهم لم يقصروا فى دعوتهم ﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨][(١)].

والحتمية السابقة استوجبت جهداً من أنبياء الله تعالى، وصبراً ومجاهدة، ولا خير أن يساعدهم فى هذا رجال آمنوا برسالتهم وبغايتهم، يسعون لإعلام الناس بالدعوة الجديدة، ويتحملون فى سبيل ذلك المشاق والمتاعب، والرسالة فى كل مرحلة تحتاج إلى تبليغ خاص؛ يتفق مع تطورات الرسالة الجديدة.

---

(١) يقول الإمام القرطبى فى تفسيره (٣/ ٢٤٨٥) «وتبليغ القرآن والسنة مأمور بهما، كما أمر النبى ﷺ بتبليغهما، فقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[المائدة:٦٧]. وفى صحيح البخارى عن عبدالله بن عمرو وعن النبى ﷺ «بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولاحرج ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، وفى الخبر أيضاً «من بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله أخذ به أو تركه». وقال مقاتل: من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له. وقال القرطبى: من بلغه القرآن فكأنما قد رأى محمداً ﷺ وسمع منه».

وتأسيساً على ذلك نجد حرص الرسول الكريم ﷺ على التبليغ والإبلاغ، أكان ذلك بالاتصال الشخصى عن طريق إرسال الرسل، والوفود والرسائل، أو بالاتصال الجماعى بالناس عن طريق مجالس العلم والخطب والوعظ.

وكان هذا التبليغ إيصالاً لفكر الرسالة وإعلاناً عنها؛ فقد أرسل الرسول الكريم وفوداً للتعريف بالإسلام، وكان أبرزها وفده إلى النجاشى ملك الحبشة، الذين تحدث باسمهم جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه، وكان للإعلام المناهض رأى آخر، فأرسلت قريش عبدالله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص، حاملين هدايا للنجاشى، وكان من شأنه أن ردها عليهما، وخرجا من عنده مقبوحين.

كما أرسل الرسول الكريم ﷺ مصعب بن عمير رضى الله عنه إلى المدينة المنورة -قبل الهجرة- والذى عد أول سفراء الإسلام، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم فى الدين، وكان صهيب مبشراً بالإسلام، وفاتحاً الأفاق للنور الجديد، ومُعداً المدينة ليوم الهجرة العظيم، وكان داعية يحمل أمانة التبليغ، وكان من أثر ذلك إسلام أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة رضى الله عنهم.

وقد استمر إرسال الوفود بعد الهجرة إلى المدينة، وبعد أن مكن الله تعالى لدينه؛ فقد أرسل الرسول الكريم ﷺ دحية الكلبى رضى الله عنه إلى قيصر ملك الروم، واستعان هو الآخر بأبى سفيان بن حرب وكفار قريش ـ الذين كانوا «تجاراً بالشام ـ وذلك لسؤالهم عن هذا النبى الجديد، الذى كانت كلمات رسالته ﷺ ناطقة بالدعوة إلى الإسلام، والدخول فى كلمة الله تعالى.

ثم أرسل الرسول الكريم بكتاب آخر مع رجل إلى كسرى ملك فارس، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين؛ فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه كسرى مزقه، وذلك لغضبه بدء رسول الله ﷺ الرسالة بنفسه، وصاح وغضب قبل أن يعلم ما فيها، ولم تكن كلماته ﷺ سوى تبليغاً ودعاية. وقد

آيس شجاع بن وهب من رد فعل كسرى؛ فلما رأى ذلك قعد على راحلته ثم سار، فالتمسوه فلم يجدوه، فلما قدم شجاع على النبى ﷺ أخبره بما حدث. فقال ﷺ «مزّق كسرى ملكه».

وكان كتابه ﷺ إلى المقوقس صاحب الأسكندرية مع الصحابى حاطب ابن أبى بلتعة رضى الله عنه تأكيداً لحرص الرسول الكريم ﷺ على التبليغ والإبلاغ، وكان من شأن المقوقس أن قبل الكتاب، وأكرم حاطباً، وأحسن نزله، وسرحه إلى النبى ﷺ وأهدى له مع حاطب كسوة وبغلة بسرجها وجاريتين : إحداهما (مارية القبطية) أم إبراهيم، وأما الأخرى فوهبها رسول الله ﷺ لمحمد ابن قيس العبدى.

كما تحقق إسلام كثير من القبائل من خلال هذه الرسائل المحمدية، التى تحمل الدعوة للتوحيد ومنها كتابه ﷺ إلى أهل نجران باليمن، وإسلام شرحبيل بن وداعة، وكذا كتابه ﷺ إلى الأسقف أبى الحارث، وكتابه إلى بكر ابن وائل، وكتابه ﷺ إلى بنى جذامة.

وقد أردنا الإشارة إلى هذه الرسائل باعتبارها من صور الاتصال الفردى الشخصى؛ التى آتت ثماراً طيبة يانعة، وتحقق بها التبليغ الصحيح، فتح الله بها بعض القلوب لنور الله.

أما الاتصال الجماعى للتبليغ فيبرز فى خطبه الكريمة ﷺ، وقد تنوعت فى الحج والغزوات، وجميع الحالات، وكانت أول خطبة له ﷺ فى التذكير بالآخرة، ثم خطبه ﷺ الجامعة فى يوم الجمعة فى تقوى الله تعالى، وخطباته ﷺ فى الغزوات وبيان فضل الشهادة فى سبيل الله، ومن ذلك خطبته ﷺ فى غزوة تبوك، وفى فتح مكة وخطباته ﷺ فى شهر رمضان، فى استقباله، وفى مغفرة ذنوب الشياطين فى أول ليلة من ليالى رمضان، وفى حبس الشياطين، واستجابة الدعاء فى رمضان وخطبته ﷺ فى تأكيد صلاة الجمعة، وفى حجة الوداع. وخطباته ﷺ فى الدجال وفى الكسوف،

وفى مسيلمة الكذاب، وفى يأجوج ومأجوج، وفى ذم الغيبة، وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفى التحذير من الكبائر، وفى الشكر، وفى خير العيش، وفى الرغبة عن الدنيا، وفى الحشر، وفى القدر، وخطبته ﷺ فى الولاة والعمال، وفى الأنصار.

وكما نرى تنوع موضوعات خطبه ﷺ واتساع مضامينها، وشموليتها؛ فإننا نرى خطباً متعددة للصحابة رضى الله عنهم، ومنها خطبة أبى بكر الصديق رضى الله عنه لما ولى الخلافة، وخطبة له فى التقوى والعمل بالآخرة، وخطبة جامعة له فى مكارم الأخلاق. ومنها خطبات عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين فرغ من دفن أبى بكر الصديق رضى الله عنه. وخطبته حين ولى الخلافة، وخطبته فى طريقة معرفته الناس، وفى أمور أخرى. وخطبته فى النهى عن المغالاة فى المهور، وفى النهى عن الكلام فى القدر، وفى نصح الرعية وبيان حقها عليه. وكذا خطبات عثمان بن عفان رضى الله عنه بعد تولى الخلافة، وخطبه عن الموت، والتقوى، وطلب الآخرة. ونلحظ تنوع خطبات ـ جمع خطبة ـ الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه فى فضل العشيرة للرجل، وفى حضور رمضان، وفى القبر وأهواله، وفى الآخرة، وخطبة له فى تشييع جنازة، وفى الحض على العمل للآخرة، وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وثم صور أخرى فى الاتصال الجماعى للتبليغ نلحظها فى مواعظه ﷺ فى السفر والحضر، ومنها موعظته ﷺ فى التفكر، وفى صحف موسى عليه السلام، وكذا مواعظ الصحابة رضى الله عنهم مثل مواعظ عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الحكم، وفى تصنيف الرجال والنساء، وفى العلم والحكمة. وكذا مواعظ أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فى بيان حقيقة الخير. ومواعظ أخرى عظيمة للصحابة فى متفرقات عظيمة.

ويبدو لنا أن حرص الرسول الكريم ﷺ على التبليغ بالصور السابقة هو استجابة للأوامر القرآنية المتعددة، وسعى لإعلام الناس بحقيقة الإسلام ﴿هَٰذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم:٥٢]. ولذا كان التبليغ فى بداية الدعوة مقصوراً على بيان حقيقة الدين الإسلامى، وظل كذلك لمن هم خارج مكة أو المدينة، حيث جاءت دعوته ﷺ لهرقل وكسرى والمقوقس منصبة على التعريف بالإسلام والتوحيد والهداية ونلمح هنا اختلاف مضمون رسالة التبليغ، فقد اختلف محتوى الخطب والمواعظ عن الرسائل الخارجية والوفود، وذلك لاختلاف طبيعة المتلقين، وهاكم ما يؤكد ذلك:

- جاء فى رسالته ﷺ إلى هرقل عظيم الروم: -

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ٦٤]

والأريسيين: أى الاتباع والخدم.

- ونتأمل خطبته ﷺ فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: «عن عائشة رضى الله عنها قالت: دخل على النبى ﷺ فعرفت فى وجهه أن قد حضره شئ، فتوضأ وما كلم أحداً، فلصقت بالحجرة أستمع ما يقول، فقعد على المنبر فحمد الله، وأثنى عليه وقال: «يأيها الناس إن الله يقول لكم: مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا أجيب لكم، وتسألونى فلا أعطيكم، وتستنصرونى فلا أنصركم» فما زاد عليهن حتى نزل[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجه وابن حبان وأحمد والبراز عن السيدة عائشة رضى الله عنها.

والواضح أن الاختلاف فى مضمون الرسالة عن محتوى الخطبة يرجع إلى أن المتلقى للرسالة كان خالى الذهن بموضوعها، ولذا انصبت على التوحيد والإسلام، أما الخطبة التى استشهدنا بها فقد اتجهت إلى أمور توجيهية وأمرية وتحذيرية، وذلك لأن الجمهور المتلقى هم الصحابة الكرام، وقد تجاوزوا مرحلة الإيمان، وتطلب نصحهم الرقى بمضمون الرسالة، والدقة فى موضوعها، أو الخصوصية التوجيهية[١].

وإنك لتلحظ أمراً آخر فى تبليغه ﷺ للملوك والرؤساء، فقد خاطب كلاً منهم بمضمون يختلف عن الآخر، ولذا يبدو تأكيده الواضح ﷺ على المسيحية وعيسى بن مريم عليهما السلام فى كتبه إلى النجاشى والمقوقس وغيرهما: مثل «وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة؛ فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته كما خلق آدم بيده ونفخه» وهذا الجزء المقتبس من رسالته ﷺ إلى النجاشى هو إدراك منه ﷺ لحال المخاطب، والتحدث إليه بمشاركة دينية روحية عقائدية، يعلن فيها الرسول الكريم الإيمان بنبيهم عليه السلام، وكان من شأن هذا التأثير الطيب على النجاشى أن كان رده كريما «... فقد بلغنى كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ماذكرت. وقد عرفنا ما بعثت به إلينا؛ وقربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقاً ومصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين».

ولن يفوتنا أن نقرر أن هدف الرسالة الإعلامية فى رسائله ﷺ للملوك كان محدداً بإعلامهم بالإسلام وتبليغهم به، ودعوتهم إليه. أما الرسالة

(١) ولذا يبدو تطوير مضمون خطبه ﷺ وارتقاء فحواها فى موضوعات تشريعية وأخلاقية وإرشادية وفى تصحيح المفاهيم، وتفقيه الناس فى دين الله تعالى.

الإعلامية الداخلية فى الخطب والمواعظ فكان متسعاً، باتساع أهدافها، وتطور حاجيات المجتمع الوليد؛ الذى لن يكتمل نموه إلا ببذور جديدة، وبتوجيهات متصلة، وبإيضاحات متتالية، وبأفكار قوية، تصل الناس بصاحب الرسالةﷺ.

ونستطيع أن نخلص مما تقدم إلى عدة أمور مهمة تتصل بالعلاقة بين الإعلام فى الإسلام، وبين التبليغ بصوره المتعددة فى النقاط التالية: ـ

والتحديد السابق لماهية التبليغ باعتباره أحد وسائل الإعلام فى الإسلام وأحد مهام الرسل الوثيقة الصلة بطبيعة الرسالة؛ التى لن يتحقق وجودها بصورة واقعية إلا بالتبليغ والإبلاغ؛ هذا التحديد يعد جزئياً فى المفهوم الكلى للإعلام فى الإسلام، ولذا تبرز دائرة أخرى أكثر اتساعاً للإعلام الإسلامى وهى «الدعوة» باعتبارها ركيزة أساسية فى النظرية الإعلامية فى الإسلام، وهذا ما سنعرض له فيما يلى :

المتأمل فى آيات القرآن الكريم يجد الدعوة الصريحة للإعلام بالدعوة، والجهر بها(*) ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:٢١٤]. ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]. ثم إنذار العرب جميعاً ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾[يس:٦]. ثم بيان إرساله ﷺ إلى كل العالمين ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ:٢٨]. ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١].

(*) وردت الإشارة فى القرآن الكريم إلى الإنذار بالدعوة بصورتيه الاسمية والفعلية فى (١٢٤) موضعاً تأكيداً لأهمية التبليغ بالإنذار، واعتبار ذلك جزءاً من إعلام الناس بالدعوة، فالصيغ الفعلية وردت فى (٤٥) موضعاً، بينما وردت الصيغ الاسمية فى (٧٩) موضعاً. ونجد الثراء والتنوع فى التناول فى تلك الصيغ من الأفعال المضارعة والأمرية والماضية ومن المفرد والجمع، ومن اسم الفاعل واسم المفعول وصيغة المبالغة.

ويؤكد القرآن الكريم أن رسالات الأنبياء استوجبت الجهر بالدعوة ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[نوح:١] . ويُلح أنبياء الله على بيان ذلك ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾[هود:٢] . ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج:٤٩] . ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[القصص:٤٦] . ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس:٦] .

ونلمح تشابهاً قرآنياً بين التبليغ والإنذار، فمفهوم الإنذار ينضوى تحت التبليغ، وكلاهما تحقيق للدعوة والإعلام عنها، ولذا نجد الربط بينهما فى قوله تعالى ﴿هَٰذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ [إبراهيم:٥٢]، وكما أن القرآن الكريم قصر مهمة الرسل فى التبليغ ـ كما تقدم ـ فقد قصرها هنا فى إنذار أقوامهم ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:١٨٨] . ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص:٧٠] . ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك:٢٦] .

وإذا أضفنا للجهر بالإنذار بالدعوة عنصراً آخر هو التبشير لتكامل مفهوم التبليغ لاكتمل مفهوم التبليغ ـ بالإنذار والتبشير ـ حيث ربط القرآن الكريم بينهما فى خمسة عشر موضعاً . فماهية التبليغ فى القرآن الكريم تقوم عليهما ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الكهف:٢] . ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧] . ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت:٤] . وماهية التبليغ عن رسل الله، تعالى تجمع بينهما ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة:٢١٣] . ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[النساء:١٦٥]﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[الأنعام:٤٨] . وماهية التبليغ عن رسول الله ﷺ تتحقق بهما معاً ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[البقرة: ١١٩] . ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفرقان:٥٦] . ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥] ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[فاطر:٢٤] .

وهكذا فإن القرآن الكريم يوسع دائرة التبليغ؛ باعتباره إعلاماً للمتلقين بدين الله تعالى على اختلاف أحوالهم، كما يوسع مضمون الرسالة المبلغة بالتبشير والإنذار، والترغيب والترهيب، وهذا متحقق فى التبليغ بالقرآن الكريم، وفى رسالة أنبياء الله، وفى رسالة الرسول الكريم ﷺ.

وحديثنا عن (التبليغ) هو جزء من مفهوم أكبر هو «الدعوة» التى أشرنا إلى أنها ركيزة أساسية فى النظرية الإعلامية فى الإسلام. فماذا عن الدعوة فى المضمون الإعلامى للدين الإسلامى؟.

الحق أن القرآن الكريم يؤكد دوماً أن الدعوة هى سبيل أنبياء الله تعالى لإبلاغ رسالتهم لأقوامهم وإخبارهم وإعلامهم بها ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾[يوسف:١٠٨]. ورد أقوامهم واضح ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦٢]. ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[الشورى:١٣]. أما المؤمنون فإن استجابتهم لدعوة الرسل فورية ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور:٥١]. وأنبياء الله يبذلون جهداً مضاعفاً فى دعوة أقوامهم ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ۞ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۞ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۞ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [نوح: ٥-٩][*].

(*) الملاحظ فى الآية الكريمة أنها جمعت بين أمور متعددة فى قضية الدعوة وقوة الداعية، فهناك ضرورة مواصلة الدعوة، ومقابلة ذلك بتباعد الإيمان من قوم نوح عليه السلام، وتعبيرهم عن ذلك بوسائل الرفض المختلفة، وذلك بعدم استماعهم، وإعراضهم، وانصرافهم، واستكبارهم. ورغم ذلك فنوح عليه السلام حريص على معاودة الدعوة وإظهارها، تارة بالجهر بها، وأخرى بالصياح، ثم بالإسرار، وإتيانهم فى منازلهم، أى أنه لم يبق مجهوداً إلا فعله.

ونجد القرآن الكريم حريصاً على بيان منهج الدعوة الإسلامية الصحيحة؛ روحاً وأسلوباً ومضموناً وهذا ما يتضح من تطويفنا بالآيات التالية؛ ففى روحها نقرأ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]. وفى أسلوبها نقرأ ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]. ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾[القصص:٨٧]. ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾[الشورى:١٥].

وفى مضمونها نقرأ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف:١٩٣] ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥]. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٦٧].
﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى:١٥] ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢] ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ [الحديد:٨]

كما نجد أدب النبوة زاخراً ببيان ذلك؛ يقول الرسول الكريم ﷺ فى بيان أجر الدعوة إلى الله تعالى «من دل على خير فله أجر مثل أجر فاعله»[١] ولانجد فضلاً أعظم من هذا فى اتساع دائرة الأجر والثواب؛ الذى يعضده أيضاً قوله ﷺ «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور مَنْ اتبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»[٢] ويتعاظم فضل الدعوة فى قوله ﷺ

(١) رواه مسلم عن عقبة بن عمرو الأنصارى رضى الله عنه.
(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

فوالله لأن يهدى بك الله رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»[١] وقد ذكر الرسول الكريم حُمر النعم لأنها أنفس أموال العرب، ويضربون بها المثل فى نفاسة الشئ، وأنه ليس هناك أعظم منه، وهذا تقريب للأفهام من خلال صورة دنيوية مُجسة.

ونجد تبياناً آخر منه ﷺ فى بيان أجر الدعوة فيقول «من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها، ووزر من عمل من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً»[٢] وقوله ﷺ «من سن فى الإسلام خيراً فاستن به كان له أجره ومثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سن شراً فاستن به كان عليه وزره ومثل أوزار من تبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً»[٣].

ونجد حرصه ﷺ على تبليغ الرسالة والدعوة إليها بشتى الوسائل، مهما قوت الموانع، وكثرت المعوقات، وعاند المعارضون[٤] فقد عرض الرسول الكريم ﷺ الدعوة على أبى طالب عند وفاته «ياعماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة، فقال: لولا أن تعيرنى قريش يقولون: ما حمله عليه إلا فزع الموت لأقررت بها عينك، ولا أقولها إلا لأقر بها عينك، فأنزل الله عزوجل ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [**القصص**:٥٦][٥].

وتبدو صلابته ﷺ وقوة إرادته، ورسوخه فى الحق، من عرض عتبة بن

(١) جزء من حديث متفق عليه عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه.

(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجة عن جرير بن عبدالله البجلى رضى الله عنه.

(٣) رواه الإمام أحمد والحاكم فى المستدرك عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه.

(٤) يتأكد لنا حرصه ﷺ على الدعوة؛ مما أخرجه الطبرانى عن ابن عباس فى قوله تعالى (فمنهم شقى وسعيد) [هود: ١٠٥] ونحو هذا من القرآن قال (إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس، ويبايعوه على الهدى؛ فأخبره الله عز وجل أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء فى الذكر، ثم قال الله عزوجل لنبيه ﷺ: ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** ﴾[الشعراء: ٣، ٤]

(٥) رواه مسلم وأحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه.

ربيعة عدة إغراءات على الرسول الكريم ﷺ فيقول «له يا ابن أخى ـ إن كنت تطلب بهذا الحديث مالاً فذلك لك على قومك أن يجمع لك حتى تكون أكثرنا مالاً. وإن كنت تطلب شرفاً حتى لا يكون أحد من قومك أشرف منك ولا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد ملكاً ملكناك» ولم يكن منه ﷺ إلا أن قرأ عليه حم السجدة، وعتبة يستمع إليه، ثم يعود إلى نادى قومه ـ وهو الذى جاء ليزحزح الرسول الكريم عن دينه ورسالته ودعوته ـ فلما رأوه مقبلاً قالوا: لقد رجع إليكم بوجه غير ما قام من عندكم، فجلس إليهم فقال: يامعشر قريش، قد كلمته بالذى أمرتمونى به، حتى إذا فرغت كلمنى بكلام لا والله ما سمعت أذناى مثله قط ومادريت ما أقوله له!!(١).

وكان هذا الصمود القوى منه ﷺ تأكيداً لقناعته بدعوته؛ وكان هذا دافعاً لإسلام الكثيرين، فهو يجاهد بحق فى دعوة قومه، وكان هذا مثار تعجب ودهشة من بعض الصحابة فانظر إلى صبره ﷺ فى دعوة الحكم بن كيسان إلى الإسلام، الذى جعل رسول الله يدعوه إلى الإسلام فأطال، فقال عمر: علام تكلم هذا يارسول الله! والله لايسلم هذا آخر الأبد دعنى أضرب عنقه، فجعل النبى ﷺ لا يُقبل على عمر؛ حتى أسلم الحكم. فقال عمر : فأسلم والله فحسن إسلامه، وجاهد فى الله حتى قتل شهيداً ببئر معونة ورسول الله راض عنه ودخل الجنان(٢).

وهو ﷺ يدعو فى السلم والحرب، فها هو رسول الله ﷺ يعطى الراية لرجل يحبه الله ورسوله، هو الإمام على بن أبى طالب -رضى الله عنه- -فى غزوة خيبر- فيقول الإمام على : يارسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال رسول الله ﷺ «انفذ على رسْلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه؛ فوالله لئن يهدى الله رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم(٣).

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن سعد عن المقداد بن عمرو رضى الله عنه.

(٣) رواه البخارى ومسلم عن سهل بن سعد رضى الله عنهما.

ولم يكن لرسالة الإسلام أن تصل إلى قلوب الناس وعقولهم إلا بإيمان صاحبها بقوة حاضرها وإزدهار مستقبلها، وأنها ستبلغ شأناً عظيماً فيقول المصطفى ﷺ «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون »[١] ويؤكد هذا المعنى قوله ﷺ «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله الله هذا الدين بعزٍّ عزيز، أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وأهله، وذلاً يذل الله به الكفر»[٢].

وهذا الإيمان منه ﷺ برسالته كان أساساً فى تبليغ دعوته، وإعلام الناس بها، أفراداً وجماعات؛ ولنا أن نصاحب رسول الله ﷺ فى رحلاته الإيمانية الداخلية والخارجية، فيعرض الرسول الكريم الدعوة على ـ صديقه فى الجاهلية ـ أبى بكر الصديق رضى الله عنه فقال له «إنى رسول الله أدعوك إلى الله» فلما فرغ من كلامه أسلم أبوبكر[٣] وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ وهذا الذى دعا رسول الله ﷺ أن ينصر الله به الإسلام، يقدم على الرسول الكريم ﷺ ويقول له : اعرض علىّ الذى تدعو إليه، فقال «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، فأسلم عمر مكانه. ودعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان إلى الإسلام، فأسلم. ودعا علياً ابن أبى طالب رضى الله عنه إلى الإسلام، فأسلم، فقال له «أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، وإلى عبادته وأن تكفر اللات والعزى» والدعوة ذاتها إلى الصحابى خالد بن سعيد بن العاص رضى الله عنه «أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لايسمع ولا يضر ولا يبصر، ولاينفع ولا يدرى مَنْ عبده ممن لا يعبده»!! قال خالد : إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، فسر رسول الله ﷺ بإسلامه.

---

(١) رواه البخارى عن خباب بن الأرت رضى الله عنه.

(٢) رواه أحمد والطبرانى عن تميم الدارى رضى الله عنه.

(٣) فى صدد سرعة استجابة أبى بكر الصديق فى الإيمان يقول الرسول الكريم ﷺ «ما عرضت الإسلام على أحد، إلا كانت له كبوة عدا أبى بكر، فإنه لم يتلعثم!!».

كما جاهد رسول الله ﷺ فى دعوة المشركين، فدعا أبا جهل بن هشام إلى الإسلام، فقال له: «يا أبا الحكم، هلم إلى الله وإلى رسوله، أدعوك إلى الله» ويدعو الرسول الكريم الجماعة من رؤساء قريش إلى الإسلام، إذ يجتمعون فى مكان واحد، وكان منهم عتبة وشيبة ابنى ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، وعبدالله بن أبى أمية ، والعاص ابن وائل، ويبعثون إلى محمدﷺ ليكلموه ـ وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم، ويعز عليه فسادهم ـ وتحدثوا إليه عن إدخاله على قومه ما أدخل ، وشتمه أباءهم وآلهتم، وتفريق جماعتهم، ويعرضون عليه المال والشرف والملك، فيقول لهم ﷺ «ما بى ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثنى رسولاً، وأنزل على كتاباً، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربى، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم» وينصرف رسول الله ﷺ حزيناً أسفاً لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه.

ولا تكاد تأتى مناسبة إلا ويستغلها رسول الله ﷺ فى دعوة قومه، فعندما نزل قوله تعالى ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾[**الشعراء**:٢١٤] يعلو النبى الكريم جبل المروة منادياً آل عبدمناف، وآل قصى ـ كل قريش ـ ويقول «إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين وأنتم الأقربون من قريش، وإنى لا أملك لكم من الله حظاً، ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا (لا إله إلا الله) فأشهد بها لكم عند ربكم، وتدين لكم العرب، وتذل لكم بها العجم».

ويعرض الرسول الكريم ﷺ الدعوة على قبائل العرب، فيدعو بنى عامر، وبنى صحارب، وبنى عبس، وعلى كِندة، وعلى بنى كعب، وعلى بنى كلب، وعلى بنى حنيفة، وعلى بنى بكر، وعلى بنى شيبان، ودعوته الأوس والخزرج. ودعوته ﷺ القبائل فى الأسواق ، وفى السفر، وفى القتال.

كما اتخذت دعوته ﷺ أبعاداً أوسع، بإيفاد الصحابة رضى الله عنهم

لدعوة الناس إلى الله تعالى ورسوله، وكذا إرساله السرايا للدعوة إلى الله تعالى، وإرساله الرسائل إلى المشركين بعد هجرته ﷺ ، ثم مخاطبته ﷺ للملوك والرؤساء على نحو ما أوضحنا آنفاً.

وفضلاً عما تقدم من جهاده ﷺ فى نشر الدعوة، فقد قيض الله تعالى لدينه من نصروه من أبنائه، ومن أعدائه.. ونستشهد لذلك بجعفر بن أبى طالب فى دعوته للنجاشى ملك الحبشة عند الهجرة إليها ـ وجعفر من أبناء الإسلام ـ وكذا بحديث أبى سفيان مع هرقل ملك الروم ـ وهو يومئذ من أعداء الإسلام ـ وهذا ما نعرضه فيما يلى:

أما دعوة جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه فكانت بعد لقاء النجاشى بوفد قريش -الإعلام المضاد- ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءوا، وقد دعا النجاشى أساقفته، وسأل الصحابة عن دينهم الذى فارقوا قومهم لأجله، فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه فقال له: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك؛ حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.. فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليرودنا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك[1].

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، بيروت، مؤسسة علوم القرآن، د.ت، ص ٣٣٦.

وأنت ترى قوة حجة الداعية، وسلامة منطقه من كلام جعفر بن أبى طالب، الذى قارن بين العرب فى الجاهلية، وفى الإسلام، وأورد صفات النبى الكريم ﷺ، وأركان الدين الجديد، والقيم التى يدعو إليها، وما فعله الكفار لردهم عن دينهم، ثم سبب اختيارهم لملك الحبشة دون سواه. . وكان تعاطف النجاشى معهم هو الجزاء الأوفى، بأن أكرم ضيافتهم، ولم يسلمهم لوفد قريش، وحقق النصرة لهم، ودخل دينهم كما أوردناه.

وأما عون الله تعالى للإسلام، بنصرته على يد أعدائه، من خلال دعوة الحق، ومن خلال تيسير الله تعالى من ينطقون بالحق من غير أهل الإسلام، فمن ذلك حديث أبى سفيان مع هرقل عظيم الروم، مما أخرجه البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه أن أبا سفيان أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش ـ وكانوا تجاراً بالشام – فى المدة التى كان رسول الله ﷺ مهادن فيها أبا سفيان وكفار قريش – بعد صلح الحديبية – فأتوه، وهم بإيلياء. فدعاهم فى مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بالترجمان، فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى! قال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً، قال : ادنوه منى، وقربوا أصحابه فاجعلوه عند ظهره. ثم قال لترجمانه قل لهم: إنى سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبنى فكذبوه، فوالله لولا أن يؤثروا عنى كذباً لكذبت عنه.

ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال: كيف نسبه فيكم! قلت : هو فينا ذو نسب قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله! قلت : لا. قال: فهل كان من آبائه من مَلك! قلت: لا. قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم! قلت: بل ضعفاؤهم. قال : أيزيدون أم ينقصون؟ قلت : بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر! قلت: لا، ونحن منه فى مدة لاندرى ما هو فاعل فيها. قال: ولم يمكنى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال فهل قاتلتموه! قلت: نعم. قال : فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت :

الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منها وننال منه. قال : ماذا يأمركم ؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق ، والعفاف، والصلة.

فقال الترجمان : قل له سألتك عن نسبه؛ فزعمت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها. وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله. وسألتك: هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر ـ يدع ـ الكذب على الناس، ويكذب على الله. وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؛ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك : هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لاتغدر. وسألتك: بم يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولاتشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ماتقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت ـ تكلفت ـ لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

إن المنهج الذكى الذى استخدمه هرقل فى الإحاطة بالإسلام من لسان أحد أعدائه لحقيق به أن يصل إلى النتيجة الصادقة السابقة. كما أن صدق أبى سفيان فى إجاباته ساعده على تكوين صورة متكاملة صحيحة عن الإسلام. وهذا الحديث درس لكل داعية فى استخدام منطق صائب فى المحاورة، والخلوص إلى النتائج من خلال المقدمات ولا أظنك تختلف معى فى أن الله تعالى أنطق الحق أولاً على لسان أبى سفيان إذ فرضت عليه عروبته ونخوته

ومكانته أن يكون صادقاً، ثم أنطقه كذلك على لسان هرقل، الذى تكشفت أمامه حقائق، لا تقبل الشك أو التأويل، فجميع إجابات أبى سفيان جاءت بالنفى، وإذ به هو الآخر يذعن لهذا الحق البين، وينسى ملكه وحاشيته ويود أن يكون من خدم رسول اللهﷺ، وقبل هذا يتنبأ للإسلام بمستقبل آت، وهذا ما صدقته الأيام، ووصل الإسلام أرض الشام ومصر وفارس وغيرها.

وكان وصوله لهذه البلاد، وغلبة كلمة الحق، على يد رجال أدركوا أهمية الدعوة إلى الله؛ فعمر بن الخطاب يوصى سعداً بن أبى وقاص رضى الله عنهما أن يدعو الناس إلى الإسلام ثلاثة أيام قبل أن يقاتلهم، والشئ نفسه فعله سلمان الفارسى رضى الله عنه فى دعوة بنى قومه أياماً ثلاثة قبل قتالهم، وكان داعية أهل فارس. وكذا فعل النعمان بن مقرن والمغيرة بن شعبة رضى الله عنهما مع رستم يوم القادسية بالدعوة إلى الله تعالى قبل القتال ويدعوه ربعى بن عامر بمنطق إيمانى عظيم ـ عندما سأله رستم عن سبب مجيئهم ـ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدينا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نُفضى -ننتهى- إلى موعود الله، قالوا: وما موعود الله ! قال الجنة لمن مات على قتال مَنْ أبى، والظفر لمن بقى.

واستمرت وفود الصحابة لدعوة رستم إلى دين الله؛ فذهب حذيفة ابن محصن رضى الله عنه فى اليوم الثانى والثالث، وبعث طائفة من أصحاب سعد ابن أبى وقاص إليه قبل الواقعة ولم يكن بد من القتال بعد أن أغمضوا عيونهم، وصموا آذانهم، وأغلقوا عقولهم، وتحقق نصر الله تعالى لعباده المسلمين الصادقين يوم القادسية.

ونستطيع أن نرصد سمات منهجه ﷺ فى الدعوة إلى الله تعالى فى النقاط التالية :

أولاً : الدعوة إلى مكارم الأخلاق: يقول الحق تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ

لنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وهذا الخطاب إليه ﷺ اشتمل على عدة أخلاقيات حميدة، وآداب عظيمة فى التعامل مع الناس، وفى دعوتهم إلى الله تعالى، ويعضد هذا قول الحق تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾[الأحزاب:٢١]. فالتأسى برسول الله ﷺ فى أقواله، وأفعاله وأحواله، والاقتداء بشمائله تحقيق لإسلامية الأمة، التى لا يكتمل إيمان أحدها حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول الكريم ﷺ.

وأهم مكارم الأخلاق التى يدعو إليها رسول الله ﷺ هى التى أوجزها فى قوله «مكارم الأخلاق عشرة، تكون فى الرجل ولا تكون فى ابنه، وتكون فى الابن ولاتكون فى الأب، وتكون فى العبد وتكون فى سيده، يقسمها الله لمن أراد به السعادة: صدق الحديث، وصدق البأس، وإعطاء السائل، والمكافأة بالصنائع، وحفظ الأمانة، وصلة الرحم، والتذمم للجار، والتذمم للصاحب، وإقراء الضيف ، ورأسهن الحياء»[١].

ومنها قوله ﷺ لأبى هريرة رضى الله عنه: أطعم الطعام، وأفش السلام، وصل الأرحام، وصل بالليل والناس نيام تدخل الجنة بسلام»[٢].

وقوله ﷺ لأبى هريرة رضى الله عنه -أيضاً- «اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، واحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب» .

ووصاياه الذهبية ﷺ للصحابة رضى الله عنهم تمثل إطاراً جامعاً لمكارم الأخلاق، فيقول أبو ذر الغفارى رضى الله عنه: أوصانى خليلى ﷺ بخصال من الخير: أوصانى بأن لا أنظر إلى مَنْ هو فوقى، وأن أنظر إلى من هو دونى.

---

(١) رواه الحكيم والبيهقى عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها.

(٢) رواه أحمد وابن أبى الدنيا وابن حبان والحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

وأوصانى: بحب المساكين، والدنو منهم، وأوصانى: أن أصل رحمى وإن ادبرت . وأوصانى أن لا أخاف فى الله لومة لائم. وأوصانى أن أقول الحق وإن كان مراً. وأوصانى أن أكثر من قول لاحول ولاقوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة»(١).

وتتنوع مكارم الأخلاق فى الإسلام لاتساع دائرة الأخلاق الحميدة، وهى التى تحدثنا عنها بشئ من التفصيل فى الفصل الثانى. . ويعنينا هنا الإشارة إلى أنه من المضامين الأساسية لدعوة الحق، ولإعلام الناس بالقيم التى يدعو إليها هذا الدين العظيم، ولذا كان الرسول الكريم ﷺ يقدم توجيهاته الأخلاقية إلى أصحابه، ودائماً تكون هذه التوجيهات متصلة بالسلوكيات والنصائح والأخلاقيات الإسلامية، وتكون كذلك جامعة لأسس مكارم الأخلاق. فانظر إلى هذه الوصية الجامعة لأسس مكارم الأخلاق. فى قوله ﷺ لمعاذ بن جبل رضى الله عنه «يامعاذ: أوصيك باتقاء الله وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجار، ورحمة اليتيم، ولين الجانب، وبذل السلام، وسنن العمل، وقصر الأمل ولزوم الإيمان، والتفقه فى القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح. وأنهاك : أن تسب حكيماً، وتكذب صادقاً، أو تطيع آثماً، أو تعصى إماماً عادلاً، أو تفسد أرضاً؛ وأوصيك: باتقاء الله عند كل حجر وشجر، ومدر، وأن تحدث لكل ذنب توبة: السر، بالسر والعلانية بالعلانية»(٢).

ثانياً : الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة : يقول الحق سبحانه ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[النحل:١٢٥] .واستوجبت هذه الحكمة الصبر على قومه والأخذ بأيديهم إلى رحاب الله، وضرب الأمثال لهم، لتقريب الفهم، والداعية الحق هو الذى ينتهج حكمة وعقلانية وموضوعية فى دعوة الناس.

(١) رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) رواه البيهقى فى الزهد، وأبو نعيم فى الحلية عن معاذ بن جبل رضى الله عنه.

وتعضد هذه الحكمة والرشاد ـ التى تكون بالأمر بالأخلاق الحميدة والنهى عن الصفات الرذيلة ـ بشئ مهم هو الأخذ بالموعظة الحسنة فى الدعوة؛ وذلك بعدم التشديد على الناس، وعدم التعسير عليهم، والرفق معهم، وفتح باب الرجاء أمامهم. وهذا ما تؤكده سلوكياته ﷺ فى التيسير على من يدعوهم، ومن يطلبون الهداية، وكان لهذا النمط الآخاذ من المعاملة بالرفق الأثر العظيم فى دخول كثير من الكفار وأهل الكتاب فى دين الله تعالى. بل تجده ﷺ يتسع صدره لأخطاء الناس، ويحاورهم بأسلوب رقيق؛ ليدركوا أخطاءهم بأنفسهم دون الموعظة المباشرة، ومن ذلك أن غلاماً شاباً أتى النبى ﷺ فقال : يا نبى الله أتأذن لى فى الزنا؟ فصاح الناس، فقال ﷺ: قربوه، إدن، فدنا حتى جلس بين يديه. فقال النبى ﷺ: أتحبه لأمك؟ فقال: لا، جعلنى الله فداك، قال: كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم.. أتحبه لأختك؟ وزاد ابن عوف حتى ذكر العمة والخالة وهو يقول فى كل واحدة : لا، جعلنى الله فداك، وهو ﷺ يقول : كذلك الناس لا يحبونه. فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال : اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصن فرجه؛ فلم يكن شئ أبغض إليه منه؛ يعنى الزنا[1].

وهكذا نجد حكمته الفريدة ﷺ فى محاورة هذا الرجل الذى استولت الرذيلة على نفسه، فإذا برسول الله ﷺ يُبدل تعلقه بالذنب، وطلبه الترخيص له بالزنا إلى دعاء صادق بطهارة القلب، ومغفرة الذنب، وتحصين الفرج. مما جعل الرجل يبغض الزنا ويستقبحه، ويحدث تحول إيجابى فى حياته من إقدام على المعصية إلى بُغضٍ لها، ونفورٍ منها؛ بعد أن استخلص الرسول الكريم وساوس الشر وجذور المعصية من قلبه وعقله وبدنه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بإسناد جيد عن أبى أمامة رضى الله عنه.

ولك أن تتأمل معى فى قصة هذا الشاب فلو أن الرسول الكريم أغلظ عليه فى القول، وشدد عليه فى النكير، وأمر بإخراجه لأنه شيطان مارق؛ لأدى هذا إلى قنوط الشاب من رحمة الله، وقد ينغمس فى شهواته، آخذاً اتجاهاً سلبياً مادام دواؤه قائماً ، وعِلته موجودة،وآخذة فى الاستفحال والكِبر.

ونجد تصديقاً نبوياً آخر لما تقدم، فى رفقه ﷺ بالجاهل، وتعليمه فى أناة وصبر من غير تعنيف وتسفيه، ومن غير زجر وشدة؛ ولنستشهد على ذلك بهذا الحديث الصحيح الذى رواه أنس بن مالك رضى الله عنه: بينما نحن فى المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابى فقام يبول فى المسجد؛ فقال أصحاب رسول ﷺ : مه . . مه . . فقال الرسول الكريم: لا تزرموه (لاتقطعوا عليه بوله) دعوه، فتركوه حتى بال. ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقاله له : إن هذه المساجد لا تصلح لشئ من هذا البول ولا القذر، إنما هى لذكر الله عز وجل، والصلاة، وقراءة القرآن. ثم أمر الرسول ﷺ رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه (أى صبه على موضع النجاسة)[1].

وهكذا تركه الرسول الكريم حتى ينتهى الموقف، ثم يعلمه فى رفق وأبوة، ولربما قطع الرجل بوله مخافة الناس ـ فأضر نفسه، ولعله كان سينجس مواضع أخرى من المسجد إذا أخذ فى التحرك للخارج وهو يبول، ولعله كان سينجس بدنه كذلك، وتنتشر النجاسة .

وهذه المواقف تمثل درساً تعليمياً قوياً فى توجيه الناس، وتبصير الدعاة بكيفية الدعوة بالحسنى، والتعامل مع أمراضهم وعللهم وأخطائهم بالحكمة السديدة.

---

(١) الحديث أوردته كتب الصحاح عن أنس بن مالك رضى الله عنه. ولفظ البخارى ـ رحمه الله ـ بال أعرابى فى المسجد؛ فقام الناس ليقعوا فيه، فقال النبى ﷺ : دعوه وأريقوا على بوله سجلاً (دلوا) من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين).

ومن الموعظة الحسنة لديه ﷺ التزام منهج محدد فى التيسير على الناس، وكلماته ﷺ فى ذلك أضحت صورة ناطقة بيسر الإسلام، ففى حديث أنس رضى الله عنه يقول الرسول الكريم «يسروا ولاتعسروا، وبشروا ولا تنفروا»[١] والأحاديث التى تنطق بعدم الغلو كثيرة ومنها قوله ﷺ فى بيان الفطرة الصحيحة «لكل عمل شِرة، ولكل عمل فترة، فمن كانت فترته إلى سنتى فقد اهتدى »[٢] ولذا كان النبى الكريم ﷺ ينكر على هؤلاء الذين يعتقدون أن الإفراط فى العبادة أمر محبب إلى الله تعالى، فأوضح سننه لهؤلاء النفر الذين قدموا إلى منزله ﷺ فسألوا السيدة عائشة عن عبادته ﷺ فكأنهم تقالوها، فقال أحدهم : أما أنا فأقوم الليل كله، وقال الثانى: أما أنا فأصوم الدهر كله، وقال الثالث : أما أنا فلا أتزوج النساء فإذا به ﷺ يخرج إليهم قائلاً: «أنتم الذين تقولون كذا وكذا، أما أنا فأقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء ، وهذه سنتى فمن رغب عن سنتى فليس منى»[٣].

وكان منهجه ﷺ فى أمر أصحابه ألا يكلفوا أنفسهم فوق طاقتها؛ لأن الله تعالى لا يمل حتى تملوا؛ وأحب العمل إلى الله تعالى أدومه وإن قل، فعن أنس بن مالك رضى الله عنه «دخل النبى ﷺ المسجد فإذا بحبل ممدود بين الساريتين فقال : ما هذا الحبل؟ قالوا : هذا حبل لزينب فإذا فترت تعلقت ، فقال النبى ﷺ لا - حلوه ، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد»[٤] ونلتمس توجيهاً كريماً منه ﷺ فى الحديث الذى رواه ابن عباس رضى الله عنه يقول : سمعت عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال

---

(١) أخرجه البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٢) أخرجه البخارى. والشرة أى الجدة وبلوغ الحد الأقصى، والفترة هى الفتور والتراخى.

(٣) أخرجه البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها.

(٤) أخرجه البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

لى النبى ﷺ «ألم أُخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟ قلت : إنى أفعل ذلك. قال : إنك إذا فعلت ذلك هجمت عينك، ونهقت نفسك، وإن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك حقاً، فصم وأفطر وقم ونم»[١].

وإنك لتجد مواقف أخرى تؤكد حرصه ﷺ على الموعظة الحسنة فى عدم إثقاله على الصحابة بالموعظة مخافة الملل والسأم، وهذا إدراك شامل لطبيعة النفس البشرية، فيقول ابن مسعود رضى الله عنه: كان النبى ﷺ يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا[٢].

ثالثاً : الموازنة فى أمور الدعوة : كما أن الدعوة إلى الله تعالى تكون بالحكمة والموعظة الحسنة فإنها كذلك تراعى ظروف المتلقين وأحوالهم، مما يستلزم فقهاً للدعوة فى البدء بالأهم، وتقديم الأساسيات على الفرعيات، بل وترك الأمر بالمعروف مخافة وقوع الناس فى الفساد .. ونجد تأكيد ذلك فى الأحاديث النبوية الكريمة، وفيما فعله رسول الله ﷺ فقد ترك الرسول الكريم قواعد الكعبة كما هى، ولم يشأ إعادتها إلى قواعد الخليل إبراهيم عليه السلام مخافة وقوع فتنة بين الناس، خاصة أن الإيمان لم يستقر فى قلوبهم بعد[٣] فعن ابن عمر رضى الله عنهما عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها :«ترى أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد إبراهيم، قلت : يارسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم! قال: لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت»[٤] ويقول لها أيضاً ﷺ «لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت، ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السلام فإن قريش استقصرت بناءه، وجعلت له خلفاً»[٥].

---

(١) أخرجه البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما وهجمت أى ضعفت، ونهقت : أى كلت.

(٢) أخرجه البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه.

(٣) لمزيد من الشرح يمكن الرجوع إلى تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة:١٢٧]. وذلك فى تفسير الإمام ابن كثير، وتفسير الإمام القرطبى، وتفسير الفخر الرازى.

(٤) أخرجه البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها.

(٥) أخرجه البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها.

وهكذا ترك رسول الله ﷺ ، إنكار المنكر خشية الوقوع فى منكر أشد، وهو قيام فتنة بين الناس، وظنهم أنه ﷺ يريد بهذا أن يفضلهم، ويفخر عليهم ذلكم أنهم ـ قريش ـ كانوا يعظمون الكعبة ، وهى مصدر قوتهم وسلطانهم. . ولم يكن لهم قبول أى تغيير فيها، ولن يقفوا سالبين إزاء ذلك، وهذا ما أدركه الرسول الكريم ﷺ بفكره الثاقب، وسلوكه القويم.

وهذه الموازنة فى أمور الدعوة والتى رأينا تأسيساً لها فى فكره وسلوكه ﷺ يجب أن تكون موجودة لدى كل داعية يتعامل مع الناس، فيبدأ بالأمور الأهم فى شئون الدعوة، ولايدخل بهم فى تفريعات فقهية وفكرية، ولا يلج بهم فى أمور خلافية ومذهبية إلا بعد أن يستوفى الأصول الرئيسة من الإيمان والفرائض والقواعد، فإذا ما أُشرب الناس ذلك وفهموه وطبقوه واهتدوا به، أخذهم بعد ذلك إلى الفروع وليس إلى الخلافات التى تعكر صفو الحياة الدينية، وتجعل النفوس غير مطمئنة[1].

ويمكن القول إن هناك سمات أخرى لمنهجه ﷺ فى الدعوة إلى الله تعالى، نكتفى بالإشارة إليها فقط هنا، وذلك مثل : التزام القدوة الحسنة، معاودة الدعوة لمن يعارضها، الجمع بين الترغيب والترهيب، الالتزام بالصدق فى الدعوة، الإخلاص والتجرد لله تعالى، مواجهة الأفكار المنحرفة، الحرص على تبليغ الدعوة، استخدام القصص والأمثلة فى توضيح الأمور للمتلقين. .الخ. وهذه السمات فى مجموعها أفضت إلى وجود قاعدة إعلامية نبوية، كان من نتائج نجاحها أن أظهر الله الحق ومحق الباطل ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾[الإسراء:٨١]. ودخل الناس فى دين الله أفواجاً فرحين بنور الله تعالى الذى فتح رسول الله ﷺ أبوابه لهم، بدعوته المتميزة إلى الله

(١) ولعل تدرج القرآن الكريم فى تحريم الخمر -على ثلاث مرات- ما يؤكد المنهج الإسلامى السابق الذى نفذه ﷺ فى دعوة الناس ثلاثة عشر عاماً إلى توحيد الله تعالى فإذا ما أدرك الناس ذلك وتحول ذلك إلى سلوك أخذت آيات الأحكام تنزل عليهم فى مدينة النور-المدينة المنورة- ويعلمهم رسول الله ذلك ، وهذا من فقه الدعوة الإسلامية.

تعالى والتى أثنى عليها الحق جل وعز ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]. ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٩٠].

وبوسعنا أن نقرر أن المنهج الإسلامى فى الدعوة والإعلام .. كما أوضحه القرآن الكريم وأحاديث النبى الكريم ﷺ وأقوال الصحابة وأفعالهم ـ ارتكز على أمانة الكلمة وصدقها فى الإسلام كأساس أصيل فى الدعوة إلى الله ، وهذا ما تفصله النقطة التالية..

أهمية الكلمة فى الإعلام الإسلامى:

يؤكد القرآن الكريم دوماً على خطورة الكلمة فيقول الحق سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم٢٤-٢٦]. ويقول جل وعز﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف:٥].

كما يدعو إلى القول الكريم الحسن المسئول فيقول سبحانه ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣]. ويقول ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٨]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ [الأحزاب:٧٠].

ويحذر من القول دون العمل بكلام مُرسل يجافيه السلوك العام والخاص للفرد دون إقدار لمسئولية الكلمة فيقول الحق سبحانه ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [النور:١٥]. ويقول عزت قدرته﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٦]. ويقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢-٣].

وفى مواضع كثيرة من القرآن الكريم يتكرر النداء ذاته بإقدار الكلمة وضرورة توجيهها للخير والصلاح ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ

ينزغ بينهم إنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ للإنسَان عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ [الإسراء:٥٣] . ﴿ وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات:١٢] . ﴿ مَا يَلْفظُ من قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْه رَقيبٌ عَتيدٌ ﴾ [ق:١٨] . ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافظينَ ۝ كرَامًا كَاتبينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] .

وفى الأدب النبوى نجد توجيهات النبى الكريم ﷺ بضرورة الحرص على القول الحسن، وعدم إطلاق الكلمات إلا فى الخير، فيقول ﷺ «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[١] ويقول أيضاً «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى مايلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يُلقى لها بالاً يهوى بها فى جهنم»[٢]. وعن سفيان بن عبدالله -رضى الله عنه- قال : قلت يارسول الله : حدثنى بأمر اعتصم به قال : قل ربى الله ثم استقم» قلت : يارسول الله ما أخوف ما تخاف علىّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال : «هذا»[٣] وفى حديث معاذ «وهل يكب الناسَ فى النار على وجوههم إلا حصائدُ ألسنتهم»[٤] وجمع الرسول الكريم ﷺ النجاة فى ثلاث، قالها ﷺ لعقبة بن عامر رضى الله عنه: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»[٥].

وأمانة الكلمة تقتضى عدم كتمها، والتصريح بها، وإعلانها، فيقول ﷺ «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[٦] ويقول أيضاً «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[٧] والمعنى ذاته فى قوله ﷺ «نضر الله امرأ سمع منى شيئاً فبلَّغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع»[٨].

---

(١) حديث متفق عليه رواه أبو هريرة رضى الله عنه.
(٢) أخرجه الإمام البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٣) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح.
(٤) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح.
(٥) رواه الترمذى وقال: حديث حسن .
(٦) رواه أبو داود والترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.
(٧) رواه أبو داود والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٨) رواه الترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه.

وفى المجتمع المسلم تتأكد خطورة الكلمة، وما يتبعها من مسئولية وتبعات؛ فالكلمة الصادقة تفتح أبواباً للخير والفلاح لدى المتلقى، وتكون بمثابة النور الذى يفتح العيون على رسالة الحق، ومن هنا يتأكد لنا ضرورة الالتزام بالتوجيهات القرآنية فى القول الحسن، والقول السديد، والقول الميسور، والالتزام بصدق العمل مع صدق القول.

فالكلمة هى مناط التفاهم، وطريق الوصول إلى الحقيقة، ومدار الحوار ، ومدار النقاش، وفى الإعلام الإسلامى لا تكون الكلمات للخداع أو الضغط أو الإكراه، وإنما هى وسيلة للإقناع، وسبيل للمواجهة، وميدان للتدبير والتفكير، وهى دعوة إلى الوصول إلى الحقيقة، والانتفاع بالعلم النافع، دون تأثير عارض مفتعل، يزول بزوال السبب، وإنما يبقى كشجرة طيبة وارفة؛ يمتد فرعها إلى السماء، فأصولها ثابتة قوية.

وفى المقابل فإن الكلمة السيئة الخبيثة فيها تضليل وإضلال وتزييف للحقيقة، ولا تستند إلى الحق، وفيها ترويج للإشاعات، وإتهام للآخرين، يقول الرسول الكريم ﷺ «أيما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمة، وهو منها برئٌ يشينه فى الدنيا كان حقاً على الله أن يذيبه فى النار، حتى يأتى بإنفاذ ماقال»[1] ولذا وجب التصدى لمثل هذه الأباطيل المكذوبة، وتصحيحها، يقول الرسول الكريم ﷺ «من ذب عرض أخيه بالغيبة كان حقاً على الله أن يقيه النار»[2].

فالرسالة الإعلامية فى المجتمع المسلم تقوم على نشر كلمة الدين الصحيحة، عن وعى وبصيرة، والدعوة إلى إعلاء كلمة الحق والصدق

(١) رواه البيهقى فى «شعب الإيمان» من حديث أبى ذر الغفارى رضى الله عنه.
(٢) أخرجه الإمام أحمد وابن المبارك فى (الزهد) والطبرانى فى (الكبير) وأبو نعيم فى الحلية عن أسماء بنت زيد رضى الله عنها.

والعدل، يقول سبحانه ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[يوسف:١٠٨]. وذلك بالتواصى بالخير والتناهى عن الشر ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]. وكذا المعارضة بأسلوب كريم، فيه الأدب والإحسان، ودفع السيئة بالحسنة، يقول تعالى ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون:٩٦]. فدفع السيئة بالسيئة ينقص من قيمة الحق، وقيمة الداعية، وإنقاص قيمة القدوة لديه، وبذا يصبح داعية سوء؛ لا يقدر أهمية الكلمة، وأهمية الرسالة؛ ولما للرسالة والكلمة من أهمية وفاعلية فإننا نلتمس إقدار الصحابة رضوان الله عليهم لذلك، ويقينهم أن الخير فى أن نقول الكلمة أمينة صادقة، ولا نمنع الآخرين من قولها، فانظر إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يدور حوار بينه وبين أحد الناس، ويتمسك الآخر برأيه، ويقول لأمير المؤمنين : اتق الله ياعمر! ويكررها مرات كثيرة، ويزجره أحد الأصحاب قائلاً: صه، فقد أكثرت على أمير المؤمنين. ولكن أمير المؤمنين يقول له: «دعه؛ فلا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها».

وهو رضى الله عنه يوجه أصحابه إلى عدم كتم النصح له، وتوجيهه بالرأى الصواب الذى قد يختلف مع رأى عمر رضى الله عنه؛ فتأمل قوله الصريح المجرد عن الهوى: «لاتقولوا الرأى الذى تظنونه يوافق هواى، وقولوا الرأى الذى تحسبونه يوافق الحق».

ونجد تأكيداً على ذلك فى حواره مع حذيفة رضى الله عنه عندما يجد عمر بن الخطاب مهموماً ، فيسأله : ماذا يا أمير المؤمنين؟!.

فيجيب عمر : إنى أخاف أن أخطئ فلا يردنى أحد منكم تعظيماً لى يقول حذيفة، فقلت له : «والله لو رأيناك خرجت عن الحق، لرددناك إليه» فيفرح عمر، ويستبشر، ويقول : «الحمد لله الذى جعل لى أصحاباً يقوموننى إذا اعوججت».

وهكذا نرصد فهماً راقياً للكلمة الناصحة، وللمعارضة المستنيرة، التى حدد عمر بن الخطاب مواصفات لها؛ فليس بالضرورة أن الأراء المعارضة توافق رأيه هو، فالرأى الحر الصحيح يبتغى به وجه الله، وليس إرضاء الحاكم؛ فموافقة الحق هو الأساس، ولصاحب الحق مقالة. ولذا يسر عمر عندما يجد من يقومونه، ويردونه إلى الصواب؛ عندما يعوج. . وكان يحزن لأن الناس قد يمتنعون عن رده ونصحه، تعظيماً وإجلالاً له؛ فإذا بهم يدركون دورهم، ويعلمون أمانة التوجيه، وفرضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ولعل الطريف هنا أن أمير المؤمنين عمر هو الذى يستحث الناس على معارضته، ويجعل الخير فى أن يقولوها صريحة مدوية، وعليه هو أن يسمعها ويستجيب لها، بل ويجعل من فضل الله عليه أن قيض الله له فى هذه الأمة من يقوم اعوجاجه، ويرده إلى الحق.

وأخيراً فإن الكلمة فى الإعلام الإسلامى ينبغى أن توافق المتلقى، وترعى ظروفه وأحواله فدعوة الخطاء (كثير الخطأ) الذى كثرت عليه الذنوب والمعاصى ينبغى أن تصبح مفتاحاً لتوبته وفلاحه، ودعوة المجاهر بالمعصية المبارز بالخطايا بقوارع الحجج وزواجر الكلم، ودعوة الرقيق الذى زلت قدمه تكون توجيهاً حانياً وأخذاً رفيقاً رقيقاً. . وفى كل حالة تتنوع الموعظة حسب طبيعة من توجه إليه، وقد ألمح القرآن العظيم إلى كيفية التعامل مع صنف آخر - لم نذكره فيما تقدم - هم المنافقون ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا** ﴾ [النساء:٦٣]. . .

وإذا كانت الكلمة - كما أوضحنا - لها أهميتها فى الإعلام الإسلامى والدعوة إلى الله تعالى فإن هناك حواساً أخرى تستقبل الكلمة، وتستقبل غيرها لها دور عظيم فى تلقى الإعلام الإسلامى، وهذا ما نوضحه فيما يلى. .

استقبال المسلم للمادة الإعلامية يعتمد فى درجة كبيرة على حواسه التى يتلقى بها، وعلى توظيفه الجيد لتلك الحواس؛ فالسمع والبصر نافذتان يتعامل

بهما قلب المرء مع العالم الخارجى، ومؤثراته وعليهما مسئولية عظيمة فى ذلك ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء:٣٦] . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧] .

ودورهما الرقابى التنظيمى لتلك المؤثرات يتعاظم هذه الأيام لكثرة ما يحيط بنا من مرئيات ومسموعات ، مما يراه المسلم ويصل إلى أذنيه من صنوف اللهو والفحش واللغو، فإذا ما مرت هذه الأشياء عبر الأذن أو العين فإنها تأخذ طريقها إلى القلب مباشرة، وعندئذ قد يفسد صاحبه، وقد ختم الله على قلبه لكثرة مداخلة المعاصى إليه: وخاصة عندما لا ينكر قلبه هذه الموبقات، بل يتآلف معها، ويستأنس بها، حتى يرنو على قلبه ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]. ويصاب القلب بالمرض والقسوة والزيغ والحسرة والديبة وكل هذه المعانى عبر عنها القرآن الكريم باعتبارها مظاهر لفساد القلب. وفى المقابل عبر عن صلاحه بالطهارة والتقوى والاطمئنان والتأليف والتثبيت والخشوع ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦][*].

وتتأكد بعد ذلك سيادة القلب فى توجيه المرء؛ فالقلب هو الملك، والأعضاء جنوده، وهو المضغة التى يتوقف عليها صلاح الجسد أو فساده؛ يقول الرسول الكريم ﷺ «ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»[1].

(*) أشرنا فقط إلى بعض مظاهر علة القلب، وبعض مظاهر صحته دون ذكر شواهدها القرآنية، لأن هذا ليس مقصدنا هنا، وجاءت الإشارة إلى هذا الأمر توفيه لتناولنا لأدوات الاستقبال عند المسلم، وما يعتبر بها من تحولات.

(١) متفق عليه عن النعمان بن بشير رضى الله عنه.

والمتأمل فى المنهج الإسلامى يجد الحرص على نقاء البيئة المحيطة بالإنسان منذ ولادته ليبقى استقباله طيباً نقياً[١] ونقاء البيئة يتبعه نقاء الرسالة أو الرسائل التى تُبث عن طريق السمع والبصر إلى الفؤاد، وحدوث عملية التكوين والتلقى، يشارك السمع والبصر فيه بنصيب أعظم، والمحصلة هى المشاركة فى بناء القلب أو هدمه، وفى صحته أو مرضه، يقول الحق سبحانه **﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾** [**النحل** : ٧٨] .

فمداخل الصلاح أو الفساد إلى القلب قد أضحت واضحة، ومتأثرة بنقاء البيئة من عمل الشيطان أو تلوثها به، ولأن هذه المداخل من السهل فك رموزها، فقد أدرك أعداء الإسلام أن الكلمة (السمع) والصورة (البصر) عليهما دور عظيم فى إفساد قلوب الأمة وسمعها وبصرها، وتحول بينها وبين سبل الهدى وذلك بالضرب على أوتار الشهوات، وإلهاب الغرائز أكان ذلك بالكلمة المسموعة أم بالصورة المشاهدة، وبإغراق الأمة فى الملذات، وفنون العبث والمجون والخلاعة.

وهذا ما تفعله الإذاعات المضللة والمعادية مثل إذاعة مونت كارلو، وإذاعة صوت الإنجيل، وإذاعة صوت طنجة، وإذاعة صوت إسرائيل، وشبكة البث المسيحية (C.B.N) وما تفعله أيضاً محطات التلفاز العالمية التى تغزو بلاد العالم الإسلامى، وتبث من أمريكا وأوربا. وهذه كلها تلوث البيئة المسلمة شكلاً وموضوعاً . . ومثال ذلك : شبكة الأخبار الأمريكية (C.N.N) والقناة الفرنسية (C.F.I) والشبكة العالمية الأمريكية.

ويحزن المرء عندما يجد أن البيئة المسلمة قد لوثت إعلامياً داخلها، ويبدأ بنائها، قبل وبعد أن غزيت من خارجها بالكلمة المسمومة والصورة المنحرفة

---

(١) لعل تصديق ذلك يتضح فى توجيه الرسول الكريم ﷺ بأن يكون الآذان للصلاة ثم الإقامة هما أول ما يطرق أذنى الطفل من مؤثرات صوتية بيئية خارجية ليطالع قلبه صوت الحق والرشاد والاطمئنان والسكينة.

المضللة ولمواجهة هذا الغزو القوى فلابد من وجود إعلام إسلامى مستنير، يتعهد الطفل منذ ولادته، وحتى مماته، فلا خدش للحياء العام، ولا انتهاك للأخلاق والآداب، ولانشر للأدب المكشوف، ولا إعاقة لعملية الإنتاج، ولاملء لفراغ الناشئة باللهو.

فالخطاب الإعلامى الإسلامى يكون له دور تعليمى إرشادى دفاعى، يتصدى للغزو الثقافى وللملوثات الأفكار والقيم، ويجمع كلمة المسلمين، ويرشد الصحوة الإسلامية القائمة فى أنحاء العالم الإسلامى، ويقدم ما يخدم الإسلام والمسلمين، وينشر الدعوة الإسلامية، ويبرز دور الحضارة الإسلامية فى مختلف فروع العلم والمعرفة فى إثراء الحضارة الإنسانية، ويبتعد عن مجالات الجدل الدينى، ويعدل سلوك الجماهير ليتلاءم مع جوهر الإسلام، ويقضى على المعتقدات الباطلة بين البعض، ويناقش القضايا الإسلامية المعاصرة، ويصحح صورة الإسلام فى أذهان العالم، ويواجه الحملات الإعلامية المضادة للإسلام، ويُعرف الرأى العام العالمى بموقف الإسلام من ذوى الأديان الأخرى.

كما أنه يعرف بالعقيدة الإسلامية كعبادة ومنهاج حياة، ويؤكد على القيم الإسلامية، ويناقش أحوال المسلمين، ويذيع أخبارهم، ويبرز دور الشخصيات الإسلامية فى جميع المجالات، ويُفند الدعايات الكاذبة والافتراءات المغرضة التى يشنها أعداء الإسلام، ويقدم الحلول لمشكلات المسلمين، ولا يخضع لسيطرة الإعلام الغربى، ولا ينساق وراء الشعارات، ولا يخدع بالإشاعات، ولا يشغل بسفاسف الأمور، ولابتوافه الأحداث والموضوعات(*).

(*) ليس بوسع منصف إنكار دور الإذاعات الإسلامية المتخصصة فى بعض البلدان العربية والإسلامية فى الحرص على أن يكون خطابها الإعلامى نابعاً من الإسلام شكلاً وموضوعاً، وعلى هذا فالإذاعات الإسلامية المسموعة لها دور لا يُنكر فى الدعوة الإسلامية.. لكنه فى المقابل فإننا نرصد غياب الإذاعة الإسلامية المرئية من الساحة الإعلامية، وثمّ توجهات مُعلنة الآن بالدعوة الجادة إلى إقامة قناة (محطة) إسلامية مرئية - فى مواجهة الغزو الثقافى - نرجو أن تظهر فى واقعنا قريباً.

ومواصفات الخطاب الإعلامى الإسلامى -التى عرضنا لها آنفاً- مأخوذة من مضامين المنهج العام للإعلام والدعوة فى الإسلام؛ الذى يمكن إيجازه فى بساطة الدعوة ووضوحها المتمثل فى وضوح العقيدة، وخلوها من التعقيدات، وسهولة استيعابها وشرحها، ومخاطبتها للفطرة الصحيحة.

ويمكن إيجازه أيضاً فى كونه يحترم العقل الإنسانى، ويقدر الفكر البشرى، ويدعو إلى التأمل والتدبر. كما أنه يقوم على العلم، والحقائق اليقينية على العلم الصحيح. ويقوم كذلك على التسامح الفكرى والتحلى بحسن الخلق واللين، والإعراض عن اللغو فى الحديث؛ فضلاً عما فصلناه قبل هذا تحت عنوان (سمات منهجه ﷺ فى الدعوة إلى الله تعالى).

وبعد.. فإن تناولنا المتقدم للجانب الإعلامى ومضامينه فى الإسلام أردنا به إبراز جانب مهم من مضامين الحضارة الإسلامية؛ الذى يؤهلها لدور نهضوى عظيم، ويعد أحد منطلقات البعث الحضارى المنشود، وهذا الجانب يعكس تكامل الرؤية الإسلامية فى الإعلام، والتبليغ، والدعوة، وفى شمولية المنهج الإعلامى فى الإسلام مما لا نجد له نظيراً فى الديانات والشرائع الأخرى.

ونستطيع إيجاز الرؤية التكاملية للإعلام فى الإسلام فى النقاط التالية:

١ ـ استوجبت الرسالة الإسلامية الجامعة وجود مجالات متنوعة للتبليغ والإعلام، بصورة فردية، وبصورة جماعية. وتركز جهد أنبياء الله فى تبليغ رسالتهم، وإيصال رسالة التوحيد إلى الناس جميعاً.

٢ ـ تنوعت قنوات الاتصال فى عهد النبوة لدى الرسول الكريم ﷺ فكان ذلك بالاتصال الشخصى عن طريق إرسال الوفود والرسل والرسائل، أو بالاتصال الجماعى عن طريق مجالس العلم والخطب والوعظ.

٣ ـ اختلف مضمون خطبه ورسائله ووعظه ﷺ باختلاف حالة المتلقى، فهى تبدأ بالدعوة إلى التوحيد، ثم تتجه إلى أمور تشريعية وأخلاقية وتصحيحه. كما راعت رسائله ﷺ عقيدة المتلقى، وكيفية دعوته إلى دين

الله تعالى كما اختلف مختلف الرسالة الإعلامية النبوية فى خارج الجزيرة العربية عن فحواها بداخل المجتمع الوليد، على نحو ما قدمنا شواهد على ذلك.

٤ - الدعوة إلى الله تعالى هى الركيزة الأساسية فى النظرية الإعلامية فى الإسلام وبين القرآن الكريم منهج الدعوة الإسلامية الصحيحة. روحاً وأسلوباً ومضموناً. كما ضمن أدب النبوة منهجاً حركياً شاملاً فى كيفية الدعوة إلى الله تعالى.

٥ - فى حياة الرسول الكريم ﷺ المثال الأعظم للدعوة إلى الله تعالى، والإعلام بها، وذلك فى حرصه على التبليغ بشتى الوسائل، وفى صلابته وقوة إرادته، ورسوخه فى الحق، وفى قناعته بدعوته، وإيمانه بقوة رسالته ومستقبلها المنتظر، وفى إيمانه ﷺ بتبليغ دعوته، وفى جهاده فى دعوة المشركين. وفى استغلاله لكل مناسبة لدعوة قومه.

٦ - ثم سمات متعددة لمنهجه ﷺ فى الدعوة إلى الله تعالى، وفى الإعلام بدين الله ومن ذلك: الدعوة إلى مكارم الأخلاق ، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والموازنة فى أمور الدعوة، وفى التزام التيسير.. إلى غير ذلك مما أشير إليه.

٧ - ارتكز المنهج الإسلامى فى الدعوة على أمانة الكلمة، وعلى خطورتها، وذلك بالدعوة إلى القول الحسن، وإقدار الكلمة الحسنة، والتحذير من الكلمة الخبيثة. وهذا المنهج واضح فى القرآن الكريم، وفى الحديث النبوى، وفى أقوال الصحابة وعملهم.

٨ - أقدر المنهج الإعلامى فى الإسلام دور الحواس فى التلقى، وذلك فى السمع والبصر، وهما النافذتان على قلب المرء، الذى بصلاحه يصلح البدن كله، وبفساده يفسد الجسد كله.. وهذا ما يتضح فى حديث القرآن الكريم عن السمع والبصر والفؤاد ، وعما يعرض للقلب من تحولات بالخير أو الشر، بالصلاح أو الفساد.

٩ ـ للخطاب الإعلامى الإسلامى دور تعليمى وإرشادى ودفاعى، فهو يجمع كلمة المسلمين ويرشد الصحوة الإسلامية، ويتصدى للغزو الثقافى، ويحصن الأمة، وله مواصفاته المأخوذة من مضامين المنهج العام فى الدعوة إلى الله تعالى.

١٠ ـ للقائم بالاتصال أو الداعية إلى الله تعالى أجر عظيم عند الله تعالى، ولذا عليه ألا يبغى من وراء رسالته جزاء مادياً ومعنوياً ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء: ١٠٩] . وعليه أن يطلب العون من الله تعالى دوماً، ولايجنح إلى الإغراء والاستجابة إلى الفتنة، ولا يميل إلى الخصومة فى شأن الدعوة ـ ويتميز بسعة الصدر، والتسامح، وعدم الاستهزاء بالآخرين والتزام الأمانة والصدق فى توصيل رسالته.

وختاماً لهذا الفصل ــ فإنه لا سبيل إلى استعادة هذه الأمة لمجدها إلا باستلهام عظمة دينها، والعودة إلى مضامينه الحضارية، وتبليغ الدعوة إلى الله لكل الناس، وغرس حقائق الوحى ونور السماء فى نفوس الناس وانتشالهم من أوهام المادة، وإزالة حجبات الظلام عن عيونهم وقلوبهم ، والأخذ بأيديهم إلى هداية الله تعالى.

وعلى هذه الأمة دور عظيم ومسئولية أعظم فى نشر دين الله تعالى وفى تبليغ الإسلام إلى كل العالم، وانطلاق هذه الدعوة مرهون بيقظة أهلها، وإدراكهم للدور المنوط به أداؤه ، ويقينهم بأن النصرة من الله تعالى لن تكون إلا بالرجوع إلى دينه، ولـن يصلح أمر هذه الأمـة فى آخرها إلا بما صلح به أولهـا ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]

تم بحمد الله تعالى

قائمة المراجع

١ - **القرآن الكريم ، وكتب أسباب النزول.**

٢ - **إبراهيم بن موسى الشطبى** :الاعتصام، القاهرة، دار التحرير للطباعة، ١٩٧٠ .

٣ - **أبو بكر الجزائرى** : منهاج المسلم، القاهرة، ١٩٧٨ .

٤ - **أحمد بن حنبل** : المسند، دار المعارف، مصر، ١٩٥٤ .

٥ - **سيد سابق** : فقه السنة، الجزء الثانى، القاهرة، مكتبة المسلم، د.ت. .

٦ - **عبدالمجيد محمود** : هدى الإسلام فى الزواج والفرقة، القاهرة، مكتبة الشباب، ١٩٧٢ .

٧ - **على حسب الله** : أصول التشريع الإسلامى، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩ .

٨ - **على بن حزم الظواهرى** : الإحكام فى أصول الأحكام، القاهرة، ١٩٧٨ .

٩ - **الفيروز أبادى** : لسان العرب، بيروت، دار صاد، د.ت.

١٠- **مالك بن أنس** : الموطأ، القاهرة، كتاب الشعب، ١٩٧٠ .

١١- **محمد أبو زهرة** : الأحوال الشخصية، القاهرة، دار الفكر العربى، د.ت.

١٢- **محمد البلتاجى** : فى أحكام الأسرة - دراسة مقارنة-، الكويت، مكتبة دار العروبة.

١٣- **محمد بن أبى بكر بن القيم الجوزى** : زاد المعاد فى هدى خير العباد، القاهرة، المطبعة المصرية، ١٩٧٢ .

١٤- **محمد بن اسماعيل البخارى** : صحيح البخارى، القاهرة، الشعب، د.ت.

١٥- **محمد بن على بن محمد الشوكانى** : نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار (شرح منتقى الأخبار)، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٣ .

١٦- **محمد فؤاد عبدالباقى** : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة، دار الحديث، ١٩٨١ .

١٧- **مسلم بن الحجاج** : صحيح مسلم، القاهرة، مطبعة محمد على صبيح، د.ت.

١٨- **يحى بن شرف النووى** : رياضى الصالحين من كلام سيد المرسلين، المنصورة، مطبعة الإيمان، ١٩٩٢ .

محتويات الكتاب

تابع محتويات الكتاب

رقم الايداع :
٢٠٠٢ / ١٣٥٨٤
الترقيم الدولى :
977 - 294 - 257- 7

مطابع أمون

٤ الفيروز من ش إسماعيل أباظة
لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦